تَبَارِيحُ القِرَاءَة

مقالات في القراءة والكتابة وشئونهما

نعيم بن محمَّد الفارسي

دار الرافدين

تباريحُ القِراءة

مقالات في القراءة والكتابة وشئونهما

نعيم بن محمَّد الفارسي

Torments of Reading

Essays on Reading, Writing, and other germane Matters

By Naeem Ban Mohamad Al-Farisi

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2023 (1000 نسخة)

Copyrights@Dar Al-Rafidain2023

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ــ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520/+9647811005860

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 93 - 2

تَبَارِيحُ القِرَاءَة

مقالات في القراءة والكتابة وشئونهما

نعيم بن محمَّد الفارسي

www.daralrafidain.com

إهـــداء

زوجتي الحبيبة نوال الشيدي.

لم أكن أعلم وأنا أُهديكِ كتابي الأول (القراءة صنعة العظماء) في أواخر عام 2017م، أني سأكتب بعد ذلك كُتبًا أخرى، كنت قد قلتُ في نفسي: بعد أن أنتهي من تأليف كتابي الأول، سأرجع لشغفي الأكبر؛ أعني القراءة، فقط يكفيني كتابًا واحدًا شجَّعتُ فيه على القراءة. لكني ـ بعد توفيق اللّه وفضله ـ كتبتُ بعد ذلك ثلاثة كتب أخرى. وها قد أنجزتُ كتابي الخامس (**تباريح القراءة**)، فاللهم لك الحمد.

وإهداء كتابي الخامس لا يستحقهُ سواكِ، لأنكِ ـ بعد توفيق الله ـ كُنتِ لي السند المُعين في كلِّ ما واجهته من ظروف صعبة في عالم التأليف والكتابة خلال السنوات الخمس الماضية، بل كنتِ السند في ظروف الحياة عامة، لكنَّ عالم الكتابة والنشر عالم فيه تحدٍّ كبير يعرفهُ من دخل فيه، والاستمرار فيه ليس سهلًا، يحتاج فيه المؤلِّف إلى يدٍ حانية تمسح عنه الإحباطات والصدمات التي يواجهها، ويحتاج فيه إلى كلمة طيبة تداوي جراحات روحه، وتُعيد إليه الثقة بنفسه، وبأنَّ لديه جديدًا لا بدَّ أن يُقدِّمه للقارئ.

صرتُ مؤمنًا بمقولة أنَّ وراء كل رجلٍ ناجح امرأةً عظيمة، تُساعده وتقف بجانبه، فلا يستطيع الإنسان أن ينجح بنفسه إلا بوجود روح تفهمه وتفهم أهدافه وتُشجِّعه عليها، وتُمهِّد له كل السُّبل ليصل إليها، ولا تسمح لليأس أن يتسلَّل إلى قلبه.

حفظكِ اللّه يا زوجتي، ودمتِ زوجةً وفيَّة كما عهدتكِ. أنتِ بحق من أفضل نعم اللّه عليَّ بعد نعمة الإسلام. والحمد للّه أولًا وآخرًا.

نعيم الفارسي

في البَدْءِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول اللّه، محمد بن عبد اللّه، وعلى آله وصحبهِ ومن والاه. اللهم لك الحمدُ حمدًا طيبًا مباركًا فيه، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سُلطانك. أما بعدُ:

مرحبًا بك أخي القارئ/أختي القارئة مع كتابي الخامس: (**تباريح القِراءة**).

سألني كثيرٌ من أصدقائي القُرَّاء والكُتَّاب من بلادي سلطنة عُمان، ومن بعض البلاد العربية ـ الذين أعتزُّ برأيهم وأقدِّره ـ قائلين: أنت قارئ نهم وتقرأ في عدة مجالات، فلماذا فقط تؤلِّف في مجال القراءة؟! لماذا حصرتَ نفسك في مجالٍ واحد؟! نحن متأكدون أنك ستُفيد أيضًا لو كتبتَ في مجال آخر.

فكنتُ أشكرهم على حسن ظنِّهم بي، وعلى كلامهم الذي أعتبره وسامَ شرف لي، ثم أُجيبهم قائلًا بأنّي آمل أن يكون هذا هو الكتاب الأخير في هذا المجال، ومن ثمَّ سأتَّجه لمجالٍ آخر. لكن لا ألبث أن أُخلف بوعدي وأعود للكتابة في مجال القراءة! وذلك ليس عمدًا مني، لكنني أتفاجأ بوجود الكثير من المواضيع التي تدور في بالي وتشغله، وتدفعني رغمًا عني للبحث عن أجوبة لها، وبعد ذلك ألجا للكتابة عنها والتنفيس عمَّا يدور بعقلي.

كنتُ قد قطعتُ على نفسي عهدًا بأنَّ كتاب (**شجون القُرَّاء**) هو كتابي الأخير في مجال القراءة، وأقنعتُ نفسي أنَّي أشبعتُ الموضوع بحثًا في أربعة كتب صدرت لي، فلا حاجة إلى الزيادة، وتوقفت عن الكتابة لقرابة عام، فكنتُ أقضي وقتي ـ طوال هذه الفترة ـ مستمتعًا بقراءاتٍ جميلة: (سِيَر ذاتية ممتعة، كتب فكرية، دراسات فلسفية، دراسات إسلامية... وغيرها)، وكتابة منشورات بسيطة على صفحاتي في مواقع التواصل الاجتماعي، منشورات أغلبها خفيفة ـ لا تحتاج إلى جهد كجهد التأليف ـ تأتيني من وحي القراءة، وأحيانًا أكتب عن بعض الكتب التي قرأتها لأُشجِّع على قراءتها.

ولأنَّ القراءة أمتع من التأليف؛ حيث يحتاج الثاني إلى بحث وجهد وإعمال الفكر، كنتُ قد توقعتُ أني سأستمر هكذا، فلم أشعر أنَّ لديَّ الرغبة في الكتابة في أي موضوع، ولم يكن في عقلي موضوع أودُّ الكتابة عنه، فقد كنتُ غارقًا في أروع المُتع ولا أرغب في تركها.

لكن هذه السعادة لم تدم طويلًا، حيثُ بدأتْ أسئلة كثيرة متعلقة بالقراءة والكتابة تطرق باب عقلي من جديد، وكنتُ أتجاهلها في بادئ الأمر، وأقول: خواطر بسيطة لا تلبث أن تزول! لكنها لم تختفِ، بل ظلَّت تُلِحُّ عليَّ بصورة أكثر، وتُفسد عليَّ مُتعتي في القراءة، وقد غذَّاها أسئلة كثير من قُرَّاء جُدد قرءوا كتبي وتواصلوا معي يسألون ويستوضحون ويناقشون.

وبعد مدَّة، ولكي أوقف إلحاح هذه الأسئلة، عزمتُ ـ وتوكلتُ على الله ـ على البحث والكتابة فيها، وسألتهُ أن يُعينني على ذلك وطلبتُ منه التوفيق والسداد، وما خاب مَن قصد باب ملك الملوك سبحانه، وقد يسَّرَ اللّه بمنِّه وكرمهِ ذلك، فكانت هذه المقالات التي كتبتها ووضعتها في هذا الكتاب الذي بين يديك الآن، والذي اخترتُ لهُ عنوان: (**تباريح القراءة**).

والتباريح تعني الشدائد، فيُقال: عانى تباريح الحياة؛ أي عانى مشقَّة المعيشة، ويُقال: عَانى تباريح الشوق؛ أي عانى توهُّج الشوق ولوعته وتكاليفه، وبما أني عانيت من تباريح (أي شدة) كتابة هذه المقالات، حيثُ أرَّقتني وأسهرتني وأخذت مني جهدًا كبيرًا، قراءةً وبحثًا وكتابة ومراجعة مع انشغال دائم لعقلي طوال فترة كتابتها، فإني رأيت أنَّ العنوان مناسب جدًّا ليضم هذه المقالات.

وقد قسَّمتُ الكتاب إلى أربعة فصول: الفصل الأول جعلتُ فيه المقالات المرتبطة بالقراءة. والفصل الثاني جعلتهُ حواراتٍ متخيلةً بيني وبين بعض الكُتَّاب والأدباء والمفكرين، وكأنهم يُحدِّثونني عن رأيهم حول القراءة والكتب. والفصل الثالث جعلتُ فيه المقالات المرتبطة بالكتابة. والفصل الرابع جعلته بحثًا مستقلًّا يشمل عشرة محاور تحدَّثتُ فيها عن الخطوات الأساسية لمن يُريد أن يُصبح كاتبًا، وقبل أن أختم الكتاب وجَّهتُ رسالة إلى مكتبتي الغالية. وأودُّ أن أُنبِّه أني قمتُ في كلِّ مقال بوضع عناوين فرعية؛ وذلك لأجعل المقال أكثر سلاسةً في القراءة.

وللتوضيح، فإنَّ بعض مواضيع وأفكار الكتاب قد تحدَّثتُ عنها في بعض منشوراتي على صفحاتي في مواقع التواصل الاجتماعي على فترات متباعدة، ولكني هنا قمت بتوسيع الموضوع وتفصيله أكثر، لتصل الفكرة إلى ذهن القارئ ـ بإذن الله ـ كاملة واضحة.

أسأل اللّه بفضله الواسع وكرمه أن يتقبَّل كتابي ويجعل لهُ القبول، وأن يكون خالصًا لوجههِ ونافعًا لكلِّ من يقرأه، هو وليُّ ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

المؤلف

14 أكتوبر 2022م

«اللهُ أمر بالعلم في أكثر من ألف موضع من القرآن، وأول الأوامر مطلقًا كان: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ] {العلق: 1}. ورغم هذا الأمر الصريح بالقِراءة، وهو الأمر الذي له أولوية مُطلقة فَي الإسلام، فنحنُ أمة لا تقرأ ولا تعقل ولا تُفكِّر!».

د. مصطفى محمود

«إن مؤلِّفي الكتب لا يموتون حقًّا... الكتب هي طريق الخلود. سيبقى (أفلاطون) خالدًا إلى الأبد، كما هو الحال مع (ديكنز)... من خلال الكتب جميعًا نعيش أوقاتًا أخرى، وأماكن أخرى وحياة أخرى، وبذلك نتمكَّن من أن نُصبح أكبر من ذاتنا الواقعية».

آنَّا كويندلين

«اقرءوا الكتاب الذي يُثير مشاعركم، فهو الشيء الوحيد الذي سيساعدكم على تحمُّل الحياة».

إرنستو ساباتو

«منذ طفولتي عوَّدتُ نفسي في الأوقات العصيبة على القراءة، والتعلُّم، واللجوء إلى الأدب، والتفكير في مخرج في المشكلة التي تُجابهني. كانت المعرفة تمنحني القدرة على التحكُّم».

جوان ديديون

«خير ما أعرفه للكتب من مزية هو هذا: أنها تفتح لي أبوابًا جديدة تُفضي إلى رحاب واسعة في عالم الفكر والخيال».

إبراهيم المازني

«الكتاب هو ذلك الشيء الذي تقرؤه فتحس أنك لست نفس الشخص الذي كنتهُ قبل قراءته، وإنما تغيَّرت فآمنت بشيء لم تكن تُؤمن به، أو تخلَّيت عن إيمان مُترسب فيك».

كامل الشناوي

«أحيانًا كثيرة يكون ما قرأناه هو الفلتر الذي سمح بمنح معنى للتجربة. القراءة هي مرآة التجربة، هي التي تُعرِّفها، وتُصيغها».

ريكاردو بيجليا

«القراءة رحلة سرنديبية (عجائبية) لا حدود لما يُمكن أن تجود به من الدهشة، وغالبًا ما تقودنا القراءة إلى آفاق ما توقَّعناها أو حلمنا بها من قبلُ».

لطفيَّة الدليمي

«الكتب تحمل في طيَّاتها قوى محركة هائلة، وأنها أدوات خطيرة وأسلحة ماضية».

روبرت ت. دونز

الفصل الأول:

في القراءة

كم كتابًا قرأت في هذا العام؟

هناك عادة بدأت منذ سنوات وازدادت انتشارًا كثيرًا في أيامنا هذه، وكنتُ قد أشرتُ لها إشارةً بسيطة في كتابي (عزاءات القراءة)، وأعني مسابقات تحدِّي القراءة، حيث يتنافس كثيرٌ من القُرَّاء في إنهاء قراءة أكثر عدد من الكتب خلال العام، ومن ثم يقومون بنشر صورة الفائز والكتب التي قرأها في صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، وأحيانًا يُحدِّدون عددًا معينًا من الكتب على المتسابق قراءتها، كقراءة مائة كتاب أو خمسين كتابًا خلال العام، ويتنافسون فيمن يستطيع أن يُنهي قراءة هذا العدد من الكتب خلال العام.

وقد بينتُ أنها فكرة جميلة، فقد ساهمت هذه المسابقات في زرع عادة القراءة لدى كثير من الأشخاص، وخصوصًا من الجيل الجديد الذي حاصرته المُلهيات أكثر فأكثر. لكن كما ذكرت أيضًا أنَّ هذه المسابقات يعيبها في الغالب نوعية الكتب المختارة، وكذلك أنَّ عددًا من المُتسابقين قد ركَّزوا على الكمِّ وأهملوا الكيف.

التنافس في قراءة الكتب

هنا أودُّ الحديث عن عادة شبيهة بها، ولعلَّها انبثقت منها، وأعني بها ظهور عدد كبير من القُرَّاء الذين يقومون بتصوير عدد الكتب التي قرءوها خلال العام، ومن ثم نشرها في حساباتهم في مواقع التواصل الاجتماعي. وقد تطوَّر الوضع لدى بعضهم وأصبحوا يقومون بتصوير حصيلة الكتب التي أتموا قراءتها خلال ستة أشهر. بل إنَّ بعضهم صار يفعل ذلك شهريًّا، حيث يقوم بتصوير الكتب التي قرأها ويُعلق بأنَّ هذه حصيلة قراءاته لهذا الشهر.

وهذا وإن كان يفعله القارئ بنفسه دون وجود مسابقة مُعلنة، فإنهُ يُشبه التنافس غير المرئي، حيثُ يحاول بعض هؤلاء الأشخاص أن يُنافسوا غيرهم من القُرَّاء، وأن يكونوا هم الأكثر قراءة لهذا العام. وأنا هنا لا أعني أنَّ كل من يقوم بهذا التصرُّف يقصد المُنافسة والمفاخرة، ولكني أتحدَّث عن حالات موجودة خبرتُ بعضها بنفسي، أو حدَّثني عنها بعض الأصدقاء ممَّن أثق بصدق كلامهم.

الإيجابيات والسلبيات

بدايةً لا أحد ينكر أنَّ هذا الفعل له إيجابيات عدَّة، فالإنسان من طِباعهِ المغروسة فيه ـ التي لا يستطيع الانفكاك عنها إلا نادرًا ـ التقليدُ وحُبُّ المنافسة والتحدِّي. وبما أنَّ الحماس ـ كما قالوا ـ يُعدي، فقد حفَّز هذا الفعل كثيرين إلى الاجتهاد في القراءة، وأشعل الحماس لديهم في إنهاء قراءة

أكبر عدد من الكتب. كما أنَّ هذا الفعل أيضًا عَرَّف كثيرًا من القَرَّاء على كتبٍ كثيرة لم يسمعوا عنها من قبلُ، وشجَّعهم على اقتنائها وقراءتها.

لكن، في الجانب الآخر، هذا الفعل له أضراره التي لا تخفى أيضًا. حيثُ نرى أنَّ عددًا ممَّن يفعلون ذلك، يدخلون ـ كما ذكرنا ـ في باب المنافسة والتحدِّي الخفي، وهذا التحدِّي الخفي يجرُّهم إلى التركيز على إنهاء أكبر عدد من الكتب، وإهمال جَنْي الفائدة من قراءة الكتب قراءة متأنية عميقة، وهذا بحدِّ ذاته إشكالية كبيرة جدًّا. فالهدف الأساسي مِن القراءة قد اختفى وحلَّ بدله هدفٌ آخر.

فلم تعد الفائدة من القراءة هي الاستفادة وترقية العقول والرُّقِيُّ بالنفس وتهذيبها، بل تحوَّلت القراءة إلى تنافس وسباق، ولو على حساب الفهم للأسف. فتجد من يفعل ذلك عندما تُصادفه فقرة لا يفهمها، لا يتروَّى قليلًا، ولا يحاول إعمال فكره في فهم المقصود، بل في الغالب سيتجاهلها ويُكمل قراءة الكتاب، وفي باله أنَّ عدم فهم فقرة أو فصل ليس بالشيء الكبير والمؤثر!

رأي (هنري ميلر)

يقول الكاتب (هنري ميلر): إنَّ أغلبنا يقرأ بطريقة تجعله يكبت انفعالاته ولا ينفعل مع القراءة.
ويقصد (ميلر) بكلامه هذا السرعة في القراءة دون التوقُّف والسماح للأفكار التي تطرق باب عقولنا ـ ونحن مثلًا نقرأ عبارة أو فقرة معينة ـ أن توقفنا عن القراءة لنتأمل فيها، بل ما يفعلهُ أغلبنا ـ كما يقول (ميلر) ـ هو تجاهل هذه الأفكار والانفعالات وإكمال القراءة، ثم نقول لأنفسنا بأننا سنعود لهذه الأفكار لاحقًا عند الانتهاء من قراءة الكتاب.

وبالتأكيد ـ كما قال (ميلر) ـ أنَّنا لا نعود لهذه الأفكار، وكان الأفضل والأكثر إفادة وحكمة وثراءً لنا، هو السماح لهذه الأفكار بمقاطعتنا ونحن نقرأ، وعدم كَبْتِها، فبذا نحصد الفائدة المرجوة من القراءة. لكن مشكلتنا بالفعل ـ كما ذكر (ميلر) ـ هي القراءة بسرعة لإنهاء صفحات الكتاب! وعقَّب (ميلر) بأنه ليس هناك أي مشكلة لو استغرقت قراءة الكتاب لديك عامًا كاملًا، ولو كنت تقرأ بخطى حلزون.

فكرة (ميلر) التي يُريد إيصالها واضحة، وهي أنَّ الهدف ليس قراءة الكتاب وإنهاءه بسرعة فائقة؛ بل الاستفادة وأنت تقرأ، ولو كنت بطيئًا جدًّا في القراءة.

تنبيه مهم

بالتأكيد ليس هناك تضاد بين الكيف والكمِّ، فليس معنى من قرأ كتبًا كثيرة أنه لم يفهمها ولم يستوعبها، وكان هدفه فقط إنهاءَ قراءة أكبر عدد من الكتب، لا أحد يقول ذلك، فلا مانع إطلاقًا أن نقرأ كتبًا كثيرة إذا كنَّا نستطيع فعل ذلك بفهم واستيعاب، والكتب لا تُقرأ بطريقة واحدة كما وضَّحت في كتابي (شُجون القُرَّاء)، لكني هنا أتحدَّثُ ـ كما وضحت ـ عن حالات موجودة.

فبعض القَرَّاء الذين شاركوا في مسابقات تحدِّي القراءة، أو الذين يضعون حصيلتهم الشهرية من قراءة الكتب، عندما تسأله وقد أعلن أنه أنهى قراءة كتاب ما، عن أهم أفكار الكتاب، وهل أجاد المؤلف في حديثه وتحليله للموضوع، وهل تنصح باقتناء الكتاب؟ تسمع منهُ كلامًا عامًّا سطحيًّا لا يروي الغليل، ويجعلك تستنتج منه أنهُ لم يقرأ الكتاب قراءةً جيدة، وكأنه تجاهل الكثير من قراءة صفحات الكتاب وقرأ الأفكار العامة فقط!

بمثل هذا التصرُّف نكون قد خسرنا الهدف الرئيس من إقامة مثل هذه المسابقات؛ فهذا النوع من القُرَّاء حَرَموا أنفسهم من أهم فائدة أُقيمت من أجلها هذه المسابقات، وهي زرع عادة القراءة لمن لم يتعوَّد عليها بعد، لتكون لديه هذه العادة الحميدة عادة لازمة له، فيجني منها الفائدة والمتعة في نفس الوقت.

ملاحظة

أنا هنا لا أدعو لإلغاء مثل هذه المسابقات، فقط أوضِّح بعض الخلل الذي يحدث من قِبل بعض المتسابقين، الأمر الذي يمكن أن يُتفادى ويُعالج.

القراءة السطحية قد تضر

القراءة بهدف التنافس وإنهاء الكتب هي غالبًا قراءة سطحية ليس فيها عمق، وبذا يكون ضررها أكثر من نفعها، فليس الهدف من القراءة هو مَلْءَ عقولنا بأية معلومات، بل ملؤها بالمعلومات الصائبة الصحيحة، وهذا لا يكون إلا بالتفكير العميق فيما نقرؤه، ومحاولة إقامة ما يُشبه المحاكمة للكتاب؛ لأن المؤلف بشر يُصيب ويُخطئ، وقد يتبع هواه، كما يقول (د. عبد الكريم بكَّار)، الذي بيَّن أنَّ الإضافة المعرفية لا تكون إلا بذلك، أمَّا غير ذلك فربما نخرج من قراءة الكتاب بنفس العقلية التي دخلنا بها، ولم نستفد شيئًا سوى إضاعة وقتنا المحدود.

كيف يرى (أيمن العتوم) القراءة السريعة؟

تحدَّث الروائي والشاعر (أيمن العتوم) عن طريقته في القراءة، فقال إنهُ لا يُؤمن بما يُسمَّى بالقراءة السريعة؛ لأنَّ هذا النوع من القراءة لا يُؤثر على النفس ولا على العقل ولا الوجدان، وهي إضاعة للوقت دون الحصول على الفائدة.

يُعلل (العتوم) ويقول: إنَّ القراءة إثراء، والإثراء لا يأتي بالقراءة السريعة، الإثراء يأتي بالقراءة المُنتجة، والتي لها سمات وأساليب لا تُوفرها القراءة السريعة. ويُعرِّف (العتوم) القراءة المُنتجة ــ التي يُؤمن بها وينتهجها في قراءاته ــ هي أن يقرأ بتأنٍّ، فقد يتوقف عند فقرة ليستمتع بأثرها العاطفي والنفسي عليه.

وقد تجعله فقرة أخرى يغوص في الخيال ويذهب بعيدًا، فيتوقّف عن القراءة ويسمح لنفسه بالشرود في غياهب الطرق التي أخذته إليها الفقرة حتى يصل الغاية، ومن ثم يعود لإكمال القراءة. كما يذكر (العتوم) أنهُ وهو يقرأ يُحاور الكاتبَ ويُناقشه ويطرح عليه أسئلة، وإن لم تأتِ الإجابة في نفس الوقت.

هذا النوع من القراءة الذي ينتهجه (العتوم) هو ما يحصل به الفائدة والتطوُّر الفكري، فالتأني في قراءة النص وسبر أغواره بعمق، ومحاولة فَهْم ما يرمي إليه المؤلف، وعمل حوار متخيَّل بينك وبين الكاتب، وكأنك تسأله فيما أشكل عليك؛ كلُّ هذه التصرفات تُحرِّك خلايا مخك وتنشطهُ، ويستوعب العقل أكثر بكثير من القراءة العابرة السريعة التي تمرُّ مرور الكرام على الصفحات، ولا يثبت منها في الذاكرة شيء. وقد يثبت قليلًا لكنه لا يلبث أن يزول بعد عدَّة أيام، فما دخل سريعًا يخرج سريعًا.

نصيحة مهمة

نصح (د. عبد الكريم بكَّار) بأنْ نقرأ الكتب التي تُحدث نوعًا من الخلخلة الإيجابية في نظام التفكير لدينا، وفي منهجية محاكمتنا العقلية. وما يعنيه (د. بكَّار) بذلك: الكتب التي عندما تقرؤها، تجعلك تُفكر وتقول: لقد كنتُ سطحيًّا في تحليلي لذلك الحدث. وفكرة أخرى تقول: لقد تعلمتُ ألَّا أعمِّم في الأحكام على الجهة الفلانية، وهكذا. وبيَّن (د. بكَّار) أنَّ هذا النوع من الكتب هو الذي يرتقي بعقولنا.

ثم عقَّب (د. بكَّار) تعقيبًا مهمًّا جدًّا، حيثُ قال: «ولن نحصل على هذا التجديد في نظم تفكيرنا إلا إذا قرأنا ببطء، وإلا إذا فكَّرنا بعد كلِّ قراءة ساعة، مدَّةً لا تقل عن ثلث ساعة»، وعلَّل السبب في ذلك؛ لكي نمنح عقولنا الفرصة لإدخال الأفكار الجديدة في أنساقنا الفكرية، وفي سلاسل المفاهيم التي نُفكِّر بها ومن خلالها.

تعقيب

نصيحة (د. بكَّار) صحيحة، وهي تشمل النقطتين السلبيتين اللذين ذكرتهما أنهما تحدثان مع بعض مَن يُشارك في مسابقات تحدِّي القراءة، أو مَن يقوم بتصوير الكتب التي قرأها؛ وهما، الأول: نوعية الكتب المختارة التي كثيرٌ منها سطحي وبسيط لا يُحدث تأثيرًا في عقل قارئه. الثاني: القراءة بسرعة لإنهاء هذه الكتب في أسرع وقت.

الخلاصة

القراءة السريعة ــ غالبًا ــ ليست هي القراءة التي تُغيِّرنا، وقد تحدَّثت في كتابي (شجون القُرَّاء) في إجابتي على أحد الأسئلة عن القراءة السريعة، وبيَّنت هل هي نافعة فعلًا أم لا؟ وإذا كانت نافعة ففي أي مجال من مجالات القراءة نستطيع أن نمارسها؟ كلُّ ذلك فصَّلته هناك بما يُغني عن الإعادة هنا، فليرجع إليه مَن أراد الاستزادة.

لكن الخلاصة هي أنَّ هناك نوعًا معينًا من الكتب نستطيع أن نُمارس فيه القراءة السريعة، لكن للإثراء المعرفي والتطوُّر الفكري لا تُجدي القراءة السريعة، فاعرفْ متى تمارسها لكيلا تُضيِّع وقتك الثمين.

لا تُشتت نفسك في القراءة

هناك مشكلة يُعاني منها بعض القُرَّاء، تحرمهم من جَنْي الفائدة التامَّة من قراءاتهم، وهي تشتيت أنفسهم في القراءة، وأعني بذلك أنهم يقرءون كلَّ يوم فَي مجال مُعين، ولا مشكلة للمبتدئ في القراءة أن يفعل ذلك، حتى يعتاد القراءة ويعرف أيَّ المجالات التي تميل نفسه إليها.

لكني أعني هنا مَن قطع شوطًا لا بأس به في القراءة، فهو يقرأ منذُ سنواتٍ ليست بالقليلة، ومع ذلك تراهُ مُشتِّتًا نفسَه بالقراءة في عشرات المجالات، فيقرأ يومًا في الفلسفة، ويومًا آخر في الأديان، وثالثًا في التاريخ، فهو ليس لديه مجال مُعيَّن يُعطيه جُلَّ قراءاته؛ ليفهمه بعمق، ومن ثم يُضيف هو أيضًا الجديد في هذا المجال.

أضرار التشتت في القراءة

القراءة المُبعثرة دون وجود خطة أو إطار عام لا تؤتي نفعها المرجوَّ منها، ولو كان صاحبها يقرأ الساعات الطوال في اليوم، بل تجعل صاحبها مُشتتًا ليس لديه إلا معلومات متنوعة من كل فنٍّ قرأه.

الطريقة الصحيحة في القراءة، التي تُغيِّر من صاحبها، هي أن يقوم القارئ بالتركيز على القراءة في مجال مُعين بحيث تكون قراءاته في هذا المجال بما لا يقل عن 50% من مجموع قراءاته كلها، فالدخول في العمق في أيِّ مجال، هو الذي يجعلنا نُلمُّ بأطراف الموضوع من جميع جوانبه، ونقف على ما تجدَّد من موضوعاته، وما تفرَّق من مسائله، كما قال (د. فهد الحمود)؛ وبذا تتغيَّر طريقة تفكيرنا إلى الأفضل.

أما البقاء في السطح ـ أي القراءة السطحية في كلِّ مجال ـ؛ فإنَّ التأثير لا بدَّ أن يكون سطحيًّا أو محدودًا جدًّا. وقد لاحظتُ ذلك في عددٍ من القُرَّاء، أعرف أحدهم لديه مكتبة بها قُرابة الأربعة آلاف كتاب كما قال لي هو بنفسه، ويقرأ منذ سنوات طويلة جدًّا، ولكن إلى اليوم لم ألحظ عليه أي تغيير، ولم يُنتج شيئًا من هذه القراءة الطويلة، والسبب هو أنهُ مُشتت نفسَه، يقرأ كلَّ يوم في مجال معين، ولم يُخصِّص له مجالًا يعشقهُ ويقرأ فيه بنهم.

لا بدَّ من التخصص

بدون التخصُّص في عصرنا الحالي يُصبح الإنسان لا قيمةَ له ولا يُعوَّل عليه، فالناس بطبعهم عندما يحتاجون إلى أمر معين، يلجئون للشخص المتخصص في هذا المجال ويسألونه، وأبسط مثال في ذلك، إذا شعر أحدنا بألم في عينه أو في أسنانه، فإنه لن يلجأ إلى الطبيب العام؛ لمعرفته بأنَّ

معلوماته محدودة، بل سيذهب مباشرة ودون نقاش إلى طبيب العيون أو طبيب الأسنان؛ لأنه هو الأقدر على كشف المرض وإعطاء العلاج المناسب له، وما هذا إلا بسبب تعمُّقه وتركيزه في دراسة هذا العضو، فأصبح خبيرًا به وبأنواع الأمراض التي تُصيبه وبطُرق علاجها.

وقِس على هذا المثال أمورًا كثيرة نمارسها في حياتنا، كمشاهدة القنوات المتخصصة في الأخبار عند الرغبة في معرفة مصداقية خبر ما، وعدم اللجوء لمشاهدة قناة عامة منوعة تنشر الأخبار بشكل عام دون الدخول في تفاصيلها، أو سؤال شيخ مُتخصص في الفقه عند الرغبة في معرفة حكم شرعي معين، وعدم اللجوء لقارئ مُثقف يقرأ في عشرات المجالات!

عصرُ الموسوعية ولَّى إلى غير رجعة، ولا بدَّ من التخصص، فالعلوم توسَّعت كثيرًا، ولا يستطيع شخص أيًّا كان ذكاؤه وعبقريته وأيًّا كان الوقت المُتاح له أن يُلمَّ بجميع العلوم ويكون موسوعيًّا. وقد قالوا: (التركيز سرُّ الإتقان)، وصدقوا فعلًا، فلن تجد شخصًا متميزًا في مجال معيَّن إلا لأنه ركَّز في مجاله هذا وأعطاهُ اهتمامه وجلَّ وقته، فأبدع فيه.

طريقة (بيتر دراكر) في القراءة

من لا يُحب أن يَثبت على مجال مُعين ويشعر بالملل ويحبُّ التنويع، فبإمكانه أن ينتهج منهج (بيتر دراكر) ـ مؤسس الإدارة الحديثة ـ في طريقة تطوير نفسه، حيث كان يختار كلَّ ثلاث أو أربع سنوات مجالًا معينًا، ويُشبعه قراءة وبحثًا، وربما أربع سنوات لا تكون مدَّة كافية ليصير خبيرًا في هذا المجال ـ كما قال (دراكر) بنفسه ـ إلا أنها كافية لفهمه ومعرفة أساسياته، فكان (دراكر) طوال 60 عامًا يفعل هكذا حتى صار مُلمًّا بمواضيع كثيرة.

طريقة (ياسر حارب) في القراءة

قام الكاتب والإعلامي (ياسر حارب) بتخصيص عام 2005م ليكون عامًا للفلسفة لديه، وعكف طوال عام كامل يقرأ فقط في كتب الفلسفة.

طريقة (د. طارق السويدان) في القراءة

أخبرني (د. طارق السويدان) في أحد لقاءاتي معه، أنَّ كلَّ قراءاته مرتبطة بما يؤلفه ويكتبه، فلا يقرأ قراءةً مبعثرة فوضوية، بل كلُّ قراءاته تصبُّ في الموضوع الذي يُريد أن يُؤلف ويكتب فيه، ثم يقدِّم دورةً تدريبية أيضًا عنه.

وبعد أن يُقدِّم الدورة ويُؤلِّف الكتاب عن الموضوع المختص، ينتقل للقراءة في موضوع آخر حسب خطَّته في التأليف، وهو على هذا الحال منذ أن أصدر أول كتاب له عندما كان عمره 21 عامًا.

تعقيب

ما انتهج (بيتر دراكر) و(ياسر حارب) و(د. السويدان) هذا النهجَ إلا ليقينهم بأنَّ التركيز في مجال معيَّن لفترة، يُؤتي نتيجة في الفهم والتركيز والعمق أفضل من القراءة المُبعثرة الفوضوية.

تنبيه مهم

لا أعني بوضع خطَّة للقراءة أن تكون خطةً تفصيلية تقوم بتحديد اسم الكتاب الذي ستقرؤه والوقت المُخصَّص للانتهاء منه بالضبط لمدة عام أو نصف عام. قصدي كإطار عام، تختار مجالًا معينًا تقرأ فيه، وتُركِّز عليه، وتُعطيه الكثير من قراءاتك، حتى تصير عميقًا فيه، وهذا لا يمنع بتاتًا أن تقرأ كتبًا في مجالات آخرى، المقصد أن يكون لك مجال معين تقرأ فيه بتركيز وشغف.

وقد ذكرتُ في كتابي (شُجون القُرَّاء)، أننا نرغب أن يكون لدينا قُرَّاء نهمون أولًا، يقرءون بعمق كبير في مجال معين، ويغوصون في أعماقه، ثم يُضيفون الجديدَ في هذا المجال بعد ذلك، ويُصبحون خُبراء ومرجعًا مهمًّا فيه، وبذا يُساهمون في تطوير أفكار المجتمع والرقيِّ به. وهذا بدَوره يتطلَّب صبرًا واستمرارية حتى يتشبَّع الإنسان من تخصص معين، ومن ثم يفيض بما احتواه من هذا العلم.

الخلاصة

أُؤكد ــ كما ذكرت في بداية المقال ــ أنه ليست هناك أيةُ مشكلة للقارئ المبتدئ أن يقرأ في مجالات مختلفة، بل هي مرحلة ضرورية لا بدَّ منها، فلا بدَّ لكلِّ قارئ أن يمرَّ بها، وقد حدث لي كما حدث لجميع القُرَّاء، قرأت في بداية قراءاتي في مجالات مختلفة كثيرة، وبعد ذلك بسنوات عرفتُ ذوقي وميولي في القراءة، والمجالات التي تميل لها نفسي أكثر من غيرها. فهي مرحلة مهمة ليتعرَّف القارئ على ذوقه، لكن الخطأ أن يستمر في هذه المرحلة لسنوات طويلة لا يتركها.

تبقى للقارئ الحرية في نوعية القراءة التي يُفضِّلها، فمن لا يرغب بأن يتخصَّص في مجال معيَّن يقرأ فيه، ويُفضِّل أن يقرأ كلَّ يوم مجالًا معينًا، له الحرية في ذلك وليس لأحد وصاية عليه، لكنِّي هنا أوضِّح كيف تكون قراءات الشخص مُجدية وفعَّالة له أولًا، ومن ثم لغيره بعد ذلك.

أخيرًا، المهمُّ أن نقرأ ولا نترك عادة القراءة، فالقراءة ــ غالبًا ــ لا تأتي لصاحبها إلا بكلِّ خير.

هل تتنازل عن كتبك؟

هناك صنف من القُرَّاء من الذين قطعوا شوطًا كبيرًا مع القراءة، وتمرَّسوا عليها منذ سنوات طويلة، لديهم عادة يواظبون عليها، حيثُ إنهم بين فترة وأخرى يقومون بعمل يشبه التشذيب لمكتباتهم الشخصية، حيثُ ينظرون إلى الكتب التي يشعرون أنهم لم يعودوا محتاجين إليها، إما لتجاوزهم مضامينَها، أو أنهم لم يجدوا أثناء قراءتها شيئًا ذا قيمة لهم، فيقومون بتوزيعها والتخلُّص منها، وأحيانًا بيعها.

وهناك أيضًا صنف آخر، يقوم بعدَ انتهائه من قراءة الكتاب مباشرة بالتخلي عنه، إما ببيعه لمكتبة تبيع الكتب المستعملة، وأحيانًا بإهدائه لأحد الأشخاص، ولا يحتفظ بكتبه التي يشتريها في كثيرٍ من الحالات.

أعرف شخصًا يفعل ذلك؛ يشتري الكتاب وبعد أن يقرأه، يضعهُ مع كتبٍ قرأها، ليبيعها بعد ذلك للمكتبات التي تشتري الكتب المستعملة أو في معارض الكتب. وعندما سألته: ألا تحتاج إلى أن ترجع للكتاب فيما بعدُ، لتذكُّر معلومة أو قصة معينة؟ فأجابني بأنه قرأ الكتاب واستفاد منه ودخل المهم منه في عقله، فلا حاجة إلى الاحتفاظ به، وأنهُ سيشتري كتبًا جديدة أخرى من بيعه لهذه الكتب.

نصيحة غريبة

زارني في بيتي أحد الزملاء، وعندما رأى مكتبتي، سألني: هل تحافظ على أي كتابٍ تشتريه؟ قلت له: نعم، ولا أتنازل عن أي كتاب إلا في حالات نادرة جدًّا. فقال لي: لماذا تحتفظ بكلِّ هذه الكتب؟ وماذا تُريد منها إذا قرأتها وانتهيت منها؟ لماذا لا تبيع بعضها ككتب مستعملة، فترجع لك مبلغًا جيدًا لشراء كتب جديدة، وكذلك تُفسح مكانًا في المكتبة لجديد الكتب! فقط احتفظ بالكتب المهمة التي ترى أنك ستحتاج إليها لاحقًا، أما باقي الكتب فخذ بنصيحتي ولا تخف!

(حاتم الشهري) و(د. عبد الكريم بكَّار)

ذكر الأديب (حاتم الشهري) أنهُ بدأ يتَّبع سياسة المفكر (د. عبد الكريم بكَّار) في التعامل مع مكتبته، حيث لا يضع فيها إلا أمهات الكتب والمراجع والقواميس التي يرجع لها باستمرار وبشكل دائم، وأمَّا الكتاب الذي يُستفاد منه مرَّة واحدة، فيكون مصيره الإهداء أو التبرع به للمكتبات العامة.

يقول (الشهري) إنَّ مكتبته كانت سمينة بطينة، وما إن اتَّبع هذه السياسة معها، حتى تهذَّبت وذهبت عنها الشوائب وأصبحت تَسرُّ الناظرين.

وبيَّن (الشهري) أنَّ المكتبة كالروح تحتاج إلى مراجعة دورية لتفقُّد سلامتها وصحتها، ومن الواجب على كلِّ مَن لديه مكتبة أن يُخلِّصها من الكتب الزائدة باستمرار، ولا يحرص على كمية الكتب بقدر ما يحرص على جودة الكتب.

ثم يقول (الشهري): إنَّ الأغلب يريد أن تكون له مكتبة هائلة، ربما تفوق مكتبة (إمبرتو إيكو)، البالغ عدد كتبها 500 ألف كتاب! ثم تساءل مُتعجبًا: هل بالفعل يكفي متوسط عمر الإنسان الذي يبلغ 70 سنة لقراءة كل هذه الكتب؟!

خليل صويلح يدعو إلى فكرة اللامكتبة

تساءل الروائي السوري (خليل صويلح) قائلًا: هل كلّ ما نقتنيه من كتب ينبغي الحفاظ عليه؟! أليست هناك شيخوخة للمكتبة؟! والشيخوخة ـ كما يقول (صويلح) ـ لا تعني الحكمة على الدوام. ثم بيَّن (صويلح) أنهُ يدعو إلى فكرة اللامكتبة، وهي التخلُّص من الكثير من الكتب والاكتفاء ببعض العناوين المؤسسة والمؤثرة والخلاقة؛ وذلك للإحساس بالخفة، واستطاعة الطيران على علو شاهق.

ثم يُبيِّن (صويلح) ما هي الكتب التي يقصد التخلُّص منها، وذكر على سبيل المثال: الكتب التي اقتنيناها أثناء تأثرنا بفكر معين، أو الكتب التي اقتنيناها بسبب هيمنة بعض الأسماء المرموقة، ولم يكن الدافع من اقتنائها رغبة معرفية أو روحية. أيضًا الكتب التي تُهدى إلينا من بعض الهواة، هؤلاء الذين أتوا للكتابة دون عدَّة حقيقية، أتوا بوَهم الموهبة، وشجاعة الجهل، لذلك كتبهم تعجُّ بالركاكة وبكثرة الأخطاء في النحو والصرف.

التخلص من بعض الكتب التي تحتوي على مقدمات نُقَّاد منافقين، تمتدح عبقرية شاعرات وروائيات كتبن خيباتِهنَّ في الحُبِّ بخيال مريض، ووقائع مضجرة. التخلص من كتب النقاد أصحاب المصطلحات الفاخرة والمستوردة، لنصوص مصنوعة من خردة بلاغية تالفة. التخلص من كتب هي تجميع لنصوص ركيكة كُتبت على شبكة الإنترنت، ورأى أصحابها ضرورة طباعتها ورقيًّا لتعميم البلاهة!

يعقب (خليل صويلح) بعد ذكره لهذه الأصناف من الكتب التي ينبغي التخلُّص منها قائلًا: ألا ينبغي تنظيف المكتبة من هذه الطحالب والبثور ووحيدات الخلية؟! ثم يختم (خليل صويلح) كلامه قائلًا بأن مقولة (بورخيس) التي يقول فيها إنَّ تخيُّل الجنة على شكل مكتبة، بأنها ستكون جحيمًا لا يُطاق بدون تنظيف هذه المكتبة من هذه الأعشاب الضارة!

ماذا فعل (أورهان باموق)؟

يقول الروائي التركي الشهير (أورهان باموق) إنه أثناء حدوث الزلزال الثاني في مدينة (بولو)، سمع أرفف مكتبته ـ مكتبته تحتوي على اثني عشر ألف كتاب ـ تُصدر صريرًا. وأرعبه أنَّ مكتبته تآمرت مع الزلزال ضدَّه، فقرَّر أن يُعاقبها، فقام بأخذ 250 كتابًا من رفوف مكتبته وتخلَّص منها، وهو يفعل ذلك بوعي تام كما ذكر. ثم بيَّن أنَّه لم يكن يُعاقب مكتبته، بل كان يُعاقب ماضيه الخاص، عندما اشترى هذه الكتب لأول مرَّة وأخذها معه إلى البيت وقرأها بحبٍّ بالغ، وغذَّت هذه الكتب أحلامه.

ثم سأل نفسه (باموق): لماذا فعل ذلك وتخلَّص من بعض كتبه؟ وأجاب: لكيلا يعرف أحد أنه في فترة طفولته ومراهقته كان يقرأ مثل هذه الكتب، التي أصبح يراها تافهة وغير ذات قيمة. وقال (باموق) بأنَّ هذا الهاجس يتملكنا عندما نعبر من الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب.

تخلَّى (باموق) عن كتب أنصاف الموهوبين وقليلي الجودة كما ذكر، من هذه الكتب: العديد من الروايات التركية والسوفيتية، ومجموعات الأشعار السيئة، والمذكرات التافهة مثل كيف استطاع

فلان الفلاني الوصول إلى النجاح، وغيرها من الكتب التي يخجل ـ على حدِّ تعبيره ـ أن يقول إنهُ بذل ماله ووقته معها، وأولاها الأهمية وقرأها بجدية، ومن ثمَّ احتفظ بها في مكتبته، وقد حان وقت التحرُّر والتخلص منها.

يُعقب (باموق) ويقول إنه ليس المهم كثرة الكتب، ولكن المهم هو قراءة الكتب قراءة جيدة، والقراءة الجيدة هي أن يُغرق المرءُ نفسَه تمامًا في روح النص. لذلك ـ يقول (باموق) ـ فإننا نقع في حب كتب قليلة طوال حياتنا. ثم ذكر (باموق) كلام الروائي الفرنسي (فلوبير) الذي يقول: إنه لو قرأ الشخص عشرة كتب فقط باهتمام كافٍ، فإنهُ سوف يُصبح حكيمًا.

يقول (باموق) بأنَّ هناك فقط عشرة أو خمسة عشر كتابًا يُحبُّها بالفعل من كلِّ الكتب التي في مكتبته الضخمة، أما باقي الكتب فلا يشعر بعاطفة قوية نحوها.

تعقيب على كلام (أورهان باموق)

يُفهم من كلام (باموق) أنَّ نصيحته للقارئ ألَّا يحتفظ بالكتب التي تجاوزها وأصبحت لا تصلح له، وألَّا يُركز على جمع الكتب بقدر ما يُركِّز على جودتها، والكتب الجيدة التي تستحق أن يُحتفظ بها هي قليلة.

هذا رأي (باموق) الذي قد يُخالفه قُرَّاء كثيرون، نعم في كلامه بعض الصحة، فليس الهدف فقط جمع الكتب والتباهي بها، الهدف هو القراءة والاستفادة ممَّا قرأناه، لكن تنازلي عن الكتب التي قرأتها في مرحلة الطفولة والمراهقة وبداية الشباب، من أجل أني نضجت وصرت أراها كتبًا رديئة، ومن ثم أخجل أن يعرف أحدهم أني بذلت مالي ووقتي في قراءتها، قد لا يتَّفق معه كثير من القُرَّاء على ذلك.

فما المشكلة أن يعرفوا أني قرأت هذه الكتب في مرحلة من مراحل حياتي، فهذا يؤكد ـ لي ولهم ـ أنَّ من يستمر في القراءة ينضج بمرور السنوات وتتغيَّر نوعية قراءاته. بل المفروض أن تجعلني رؤية هذه الكتب أشعر بالفرح وليس بالخجل.

كما أنَّ وجود هذه الكتب في المكتبة يُعيد للقارئ ـ كلما وقعت عيناه على واحدٍ منها ـ ذكريات قراءة الصبا وأيام المراهقة، حيث يتذكَّر وقت ومكان شراء الكتاب، وكيف كانت شخصيته، ونوع قراءاته في تلك المرحلة من عمره. وهذه الأمور تصبُّ في الجانب الإيجابي للقارئ وليس السلبي. فالكتاب أصبح جزءًا من ذاكرة الإنسان، عندما يراهُ في مكتبته فإنه يعيد له ذكريات تلك المرحلة العمرية، وعندما يتنازل القارئ عن واحد من هذه الكتب، فكأنه تنازل عن جزءٍ من ماضيه.

كيف يتعامل (علي الطنطاوي) مع كتبه؟

للأسباب التي ذكرتها فإنَّ كثيرًا من عُشّاق الكتب والقراءة، لا يتنازلون عن أيِّ كتاب من كتبهم بأيِّ حالٍ من الأحوال. وأحد أعظم هؤلاء العُشاق، هو الأديب الموسوعي (علي الطنطاوي)، الذي عاشر الكتب أكثر من معاشرته للناس، حيثُ قال: «كُتب العالِم هم أصدقاؤه، ولا تُطاوعني نفسي في التخلي عن أحد من أصدقائي». وصدق فعلًا، فعندما نتخلَّى عن كتاب عزيز علينا، كأننا تخلينا عن صديق، بل أعزَّ من صديق.

خذ من قصصهم عِبرة

في كتابه المهم (الكتاب في الحضارة الإسلامية) ذكر الدكتور (يحيى الجبوري) كلامًا مهمًّا جدًّا لبعض أهل العلم، يدور حول مَن يتخلّى عن كتبه بحجة أنهُ لم يعد بحاجة إليها، وفحوى الكلام أنهُ ينبغي للمرء أن يحتفظ بالعلوم ـ أي بالكتب ـ، بل عليه أن يستكثر منها ولا يستغني عنها، فإنه إن اعتقد أنهُ لا يحتاج إليها في فترة، فقد يحتاج إليها في فترة أخرى، وإن ملَّ منها في وقت فقد يرتاح لها في وقت لاحق، وإن اعتقد أنهُ مشغول عنها اليوم فقد يجد الوقت لقراءتها في قادم الأيام.

ومن الكلام المهم في هذه النصيحة: هي أن عليه ألا يتسرَّع في التخلص من كتبه، فقد يُعجِّل بإخراج كتاب من يده، ثم يحتاج إليه فيما بعدُ ولا يجده، ويندم حيثُ لا ينفع الندم، كما حُكي عن بعض العلماء أنهُ قال: بعتُ في بعض الأيام كتابًا ظننتُ أني لا أحتاج إليه، ثم احتجتُ إليه فيما بعدُ، فطلبته فلم أجده! فأصاب هذا العالم أرق وقلق بسبب عدم حصوله عليه مرة أخرى.

وحُكي عن آخر أنهُ باع كتابًا ظنَّ أنهُ لا يحتاج إليه، ثم احتاج إليه، فلم يجده لا شراءً ولا استعارة، وكان الذي اشترى منه الكتاب قد خرج إلى بلده، فذهب إليه هذا العالم وطالبه بالكتاب وأن يُرجع الثمن، فلم يوافق، فأخذ هذا العالم على نفسه ألا يبيع كتابًا أبدًا. لذلك قيل لأحدهم: هل تبيع كتبك التي قد لا تحتاج إليها؟ فقال: إن لم أحتج إليها اليوم احتجتُ إليها بعد اليوم.

الكتب اليوم متوفرة

قد يعترض أحدهم بأنَّ هذه القصص التي أوردناها قد حدثت في زمان لم تكن فيه مطابع ولم تكن الكتب متوفرة بكثرة كحالنا في هذه الأيام، فلو استغنيت عن كتابٍ واحتجت إليه فيما بعدُ، فقد أجده بسهولة، فلا حاجة لأن نتشدَّد هكذا. لكن ما حدث مع كثير من القُرَّاء ممَّن تخلَّوا عن بعض كتبهم يجعلنا نُشكك في صحة هذا الكلام.

خسر الكتاب!

يُخبرني أحد مُحبِّي القراءة أنَّ زميلًا له استعار منه كتابًا، وللأسف مرَّت السنوات ولم يُرجعه، ويبدو أنهُ ضيَّعهُ أو ضنَّ به أن يُرجعه لصاحبه! يقول لي هذا الزميل إنهُ احتاج إلى هذا الكتاب، فبحث عنه لسنوات في معارض الكتب والمكتبات فلم يجده، والسبب أنَّ المؤلف تُوفي ونفدت طبعات الكتاب،

ولم يقم أحد من الورثة بإعادة طبعه، وربما لن يفعلوا. يقول: فحاولت أن أجد نسخة إلكترونية فلم أجد، وندمتُ على تفريطي في هذا الكتاب حيثُ لا ينفعني الندم!

سأجد نسخة إلكترونية

الكتاب قد يصدر منه فقط طبعة واحدة، وقد لا يُلتفت إليه كثيرًا في حالة صدوره لأسباب كثيرة، منها عدم شهرة المؤلف، وإن كان كتابه جيدًا في بابه، أو عدم وجود الترويج الجيد الذي يُعْطي الكتاب حقَّه، أو أنَّ الدار ليست مشهورة كثيرًا، وقد يموت المؤلف أو تُقفل الدار، فإن تخلّيت عن هذا الكتاب واحتجت إليه فيما بعدُ، فقد لا تجد ولو نسخة إلكترونية منه.

وأحيانًا تجد نسخة إلكترونية من الكتاب، لكن تجدها رديئة التصوير وغير واضحة، حتى ولو طبعتها ورقيًّا. حدث لي ذلك عدة مرات، احتجت إلى قراءة كتاب لم أجده ورقيًّا للأسف، فقمت ـ بعد يأس ـ بطباعة النسخة الإلكترونية ورقيًّا، ولكن للأسف التصوير غير واضح وقراءته متعبة جدًّا.

تخلَّى عن الكتاب ولم يجده بعد ذلك!

يُخبرني أحدهم أنه ما زال متحسرًا على كتاب تخلَّى عنه ظنًّا منه أنه لن يحتاج إليه، ومرَّت الأيام واحتاج إليه، فبحث عنه ولم يجده، والآن كلَّما تذكَّر تفريطه في الكتاب يشعر بالضيق والقلق. يقول بأنه مستعد أن يدفع مبلغًا كبيرًا لمن يجد لهُ نسخه.

النصيحة والتوجيه

لا تتخلَّ عن كتاب بسهولة لظنِّك أنك لم تعد بحاجه إليه، فقد تحتاج إليه لاحقًا. حصل لي عدَّة مرات كما حصل لأغلب مُحبِّي القراءة. وكم بحثتُ عن كتاب تخليتُ عنه في مرحلة من مراحل حياتي، وبعد مرور السنوات احتجتُ إليه وعرفت قيمته فطلبته فلم أجده! وعندما أسأل الدار التي أصدرت الكتاب، تقول: طبعناه قديمًا والمؤلِّف متوفى، ولا نستطيع إعادة طبعه دون إذن.

ودار أخرى تقول: أنت فقط مَن يطلب هذا الكتاب مع أشخاص معدودين جدًّا، ماذا نفعل بالألف نسخة التي نطبعها؟! كتاب قديم لا يجد الإقبال عليه كثيرًا من قِبل القُرَّاء الجُدد إلا نادرًا، هذه الألف نسخة تحتاج إلى تخزين، ومع مرور الأيام إذا لم يتم طلبها وشراؤها، تتلف النسخ في المخزن ونخسر مبالغ طائلة! فغير مُجدٍ بتاتًا إعادة طبع كتاب لأن عدة أشخاص يبحثون عنه.

قصتي مع كتب د. يوسف العظم

أذكر أني بحثتُ عن كتب: (مذكرات ثلاثة أرباع قرن) و(الأعمال الشعرية الكاملة) و(شهد وعلقم) للمفكر الإسلامي (د. يوسف العظم)، التي صدرت من دار الضياء بالأردن لعدَّة سنوات، ولم أجدها.

بحثتُ عن الدار في معارض الكتب ولم أجدها تشارك فيها، فسألت الدُّور الأردنية عنها، فقال لي أحد الإخوة الأفاضل إنَّ هذه الدار أغلقت وصعب جدًّا أن تجد الكتاب، وكذلك صعب أن يُعاد طبعه؛ لأنَّ المؤلف مُتوفى ويحتاج إلى إذن من الورثة، ويبدو أنَّ الورثة مشغولون.

ثم وعدني بأن يحصل لي على نسخ من هذه الكتب الثلاثة؛ لأن لديه بعض المعارف من دار الضياء، وبالفعل وفَّى بوعده لي، جزاهُ اللّه كلَّ خير، وإن كان بسعر أعلى من سعره العادي لو كان متوفرًا. الأهم أني وجدت نسخة. لكن في أحيانٍ كثيرة قد لا نجد نسخًا، ككتاب (مع العقَّاد في سبحات الحب والجمال) لطاهر الجبلاوي، الذي صدر عام 1970م من مكتبة الأنجلو المصرية، وكتاب (فن القراءة) للدكتور (عز الدين فرَّاج) الذي صدر أيضًا من مكتبة الأنجلو المصرية عام 1982م[1]، حتى نسخة إلكترونية من الكتابين لم أجد! فمن يملك نسخًا من مثل هذه الكتب ويُفرِّط فيها، قد لا يجدها بعد ذلك.

أصناف من القُرَّاء

هناك صنف من القُرَّاء على عكس الصنف الذي بدأتُ به المقال، صنف لا يتنازل عن أي كتاب اشتراهُ مهما كانت الأسباب، حتى لو اشترى نسخًا جديدة من نفس الكتاب، سواءً كان السبب طبعةً أفضل أو دار نشر مختلفة أو تحقيقًا أفضل، أو غيرها من الأسباب! صادفت هذا الصنف كثيرًا، وسألت أحدهم: لماذا تحتفظ بعدَّة نسخ من نفس الكتاب، وبعضها طبعته رديئة جدًّا؟ لماذا لا تتبرع بها أو تُهديها لأحد قد يستفيد منها؟ فأجابني: كل كتاب أشتريه أعتبره جزءًا مني، فإذا تخلَّيت عنه فكأني تخليت عن جزء من نفسي.

أيضًا صادفت أحد القُرَّاء لديه عادة أعتبرها غريبة أو نادر من يفعلها، وهو أنهُ إذا شُغف بكتاب شغفًا شديدًا، يشتري ثلاث نسخ من الكتاب يحتفظ بها، وقد سألته: ألا تكفي نسخة واحدة؟ فقال: لا أفعل هذا الفعل إلا في كتب معدودة جدًّا، تستولي على قلبي وعقلي، وتحسُّبًا من فقدان نسخة الكتاب كما يحدث أحيانًا، وقد لا أجد الكتاب بعد ذلك متوفرًا، فإني أشتري ثلاث نسخ.

سؤال مهم

قد يسأل أحدهم: هل معنى ذلك أن أحتفظ بكل كتاب اشتريته ولا أستغني عنه بأي حالٍ من الأحوال؟ والجواب: طبعًا لا، وليس مقصد المقال أن يدفعك إلى ذلك، بل مغزاهُ أن تتأنى في حال شعرت أنك ترغب بالتخلص من بعض كتبك، وتُفكِّر كثيرًا قبل أن تُقدم على هذا الفعل، فإذا تيقَّنت بعد ذلك أنك فعلًا لن تستفيد من هذه الكتب، وليس لديك أولاد وربما أحفاد يستفيدون منها، وأنها قد تفيد غيرك، فلا مانع حينها أن تتخلَّى عنها، كأن تُهديها لمن يحتاج إليها، أو أن تجعلها وقْفًا في مكتبة عامة أو مكتبة مسجد الحي.

الخلاصة

لا تتنازل عن كتبك، ولو شعرت في فترة ما أنك تستطيع الاستغناء عنها، واحذر أن تغلبك العاطفة فتتخلَّى عنها بقرار سريع، ثم تبرد العاطفة بعد ذلك وتندم حيثُ لا ينفعك الندم، واستفدْ مِمَّن مَرُّوا بمثل هذه التجارب حتى لا يُصيبك ما أصابهم.

وقد قالوا إنهُ لا يُغني كتاب عن كتاب، ففي كل كتاب قد تجد فيه فائدة قد لا تجدها في غيره، حتى الكتب التي تعتقد أنها غير جيِّدة قد تفيدك لاحقًا، لا تدري قد تحتاج إليها لأسباب كثيرة في قادم الأيام.

احفظ كتبك وأموالك لكيلا تضطر لشراء كتب قد اشتريتها سابقًا، وهذا فيه هدر لأموال ينبغي أن تذهب لشراء كتب جديدة، وليس لشراء كتب اشتريتها سابقًا، هذا إن وجدتها متوفرة.

الخاتمة

إذن ــ كما مرَّ معنا ــ القُرّاء وعشاق الكتب مختلفون، بعضهم ليس لديه أي مشكلة أن يتنازل عن أي كتاب شعر أنه لن يحتاج إليه بسهولة فائقة. وبعضهم لا يتنازل عن كتابه إلا بشق الأنفس، ونادرًا جدًّا أن يفعل. وبعضهم بين هذا وذاك، يتأنَّى ويُرجع البصر مرتين، فإن تيقَّن أنهُ لم يعد بحاجة إلى الكتاب، استغنى عنه ليستفيد منه غيره.

هل تودُّ لقاء الكاتب الذي أحببت كتاباته؟

هناك فئة من القُرَّاء عندما يقرءون لمؤلفٍ ما، ويُعْجبون بكتاباته، فإنهم يحرصون ــ إذا كان المؤلف على قيد الحياة ــ على التواصل معه ومحاولة لقائه قدر الإمكان، ويرغبون أن يظلوا متواصلين معه ويودُّون التقرُّب منه أكثر وأكثر لو كان الأمر بيدهم، وهذا شيء جميل إذا كان في حدود المعقول وبدون إفراط.

لكني أرغب في هذا المقال أن أوضِّح نقطة قد يغفل عنها القُرَّاء من هذا الصنف. فبعضهم وبحُسن نية يرسمون صورة مثالية جدًّا لهذا الكاتب من خلال كتاباته، ويظنون أنَّ هذا الكاتب مثالي جدًّا في عالم الواقع، ولكنهم عندما يقتربون منه، ينصدمون من بعض تصرفاته!

فلم يكونوا يتوقعون من هذا الكاتب أن يكون حاسدًا أو مُخادعًا أو كاذبًا أو سريع الغضب، فيُصابون حينها بالدهشة والاستغراب عندما يرون هذه التصرفات منه؛ ومن ثمَّ تتغيَّر نظرتهم عنهُ وعن كتبه.

وما دروا أنَّ الخلل ليس دائمًا في الكاتب، فالكاتب إنسان كأي إنسان آخر، له طبائع جيدة وأخرى سيئة، وهو كحال جميع البشر يُصيب في أمور ويُخطئ في أخرى، فليس هناك أحد معصوم من الخطأ والزلل سوى الأنبياء ــ عليهم السلام ــ. فالخطأ في أحيانٍ كثيرة يكمن في اعتقادهم الذي رسموه في عقولهم عنه، والصورة المثالية التي كوَّنوها عنه.

نصيحة (رجاء النقاش)

في كتابه (مُطالعات وتأملات) حذَّر الناقد الكبير (رجاء النقاش) من هذه النقطة، ووضَّح أنَّ الاقتراب الشديد للأشياء التي نُحبُّها قد يُفسد علينا متعتها ويجعلنا نزهد فيها، ودعا إلى أن نكون في مرحلة وسط، فلا نبتعد كثيرًا ولا نقترب أيضًا كثيرًا، وشبَّه ذلك بالنار، فعندما نكون على مسافة مناسبة منها، تمنحنا الدفء الذي نُريده، ولكن الاقتراب الشديد منها يُحرقنا، كما أنَّ الابتعاد الشديد عنها يحرمنا دفئها.

ودعا (النقَّاش) إلى تطبيق هذا المبدأ بالذات في العلاقات الإنسانية، حيثُ من الأفضل لنا أن نترك مسافة بيننا وبين الأشخاص الذين نُحبُّهم، فلا نقترب منهم كثيرًا حتى لا نعرف عنهم الكثيرَ من الأمور التي لا ينبغي أن نعرفها، والتي ستجعلنا نُغيِّر نظرتنا عنهم، وبذا نُفسد على أنفسنا.

ماذا حدث مع (رجاء النقَّاش)؟

بيَّن (رجاء النقاش) أنهُ بنفسه قد وقع في هذا الوهم، فعندما كان عمره 17 عامًا، جاء إلى القاهرة وحرص على رؤية الكُتَّاب الذي كان يقرأ لهم منذ الصغر، وكان قد رسم ـ بسبب قلة خبرته في الحياة ـ صورًا مثالية عنهم، فتوقَّع أنهم ملائكة لا يُخطئون، وأنهم مُثلٌ عليا في كل شيء، وبعد أن اقترب منهم كثيرًا؛ أُصيب بالدهشة والصدمة والاستغراب، حيثُ وجد فيهم أشياء لم تكن تخطر على باله، فقد رأى عندهم الغيرة والتنافس والتخاصم على المصالح، ووجد أنَّ بعضهم لا يملك أن يُسيطر على نفسه، بل تُسيطر عليه مشاعره السيئة.

وأكد (النقَّاش) أنَّ الخلل ليس من جانبهم، بل من جانبه هو الذي رسم هذه الصورة المثالية عنهم في خياله، وبيَّن أنَّ الكاتب قد يكون مبدعًا في مجاله الفني الذي كرَّس له وقته وجهده، ولكنه في بقية الجوانب إنسان عادي يعيش حياته كأي إنسان آخر، لا يختلف عنهُ في شيء، فهو يبحث عن رزقه ومصالحه، ويغضب ويغار ويحسد أحيانًا كحال أغلب البشر، وهو كذلك يُحب أن يتفوق على غيره، وهذا شيء طبيعي تمامًا.

نصيحة (جورج برنارد شو)

أكد كلام (النقَّاش) الأديب الأيرلندي (جورج برنارد شو) حيثُ قال في بداية سيرته الذاتية إنهُ سُئل كثيرًا لماذا لم يكتب سيرته الذاتية؟ فأجاب أنهُ قام بتحويل أفكاره إلى كتب ومسرحيات، ومن أراد أن يعرف قصة حياته فعليه بقراءتها، أما باقي حياته فلا تختلف عن حياة أي فرد آخر منهم، فهو يفعل الروتين الذي يفعله الجميع من أكل وشرب ونوم واستيقاظ وغيره.

الخلل قد يكون منا

إذن، غير الطبيعي هو الصورة المثالية التي نرسمها عن الكاتب، حيث رسَّخنا في عقولنا اعتقادًا أننا عندما نُحب كاتبًا معينًا، فإنهُ ينبغي أن يكون مميزًا في كل شيء يفعله، وهذا بالتأكيد اعتقاد غير صحيح، ويكفي أن يكون الكاتب ناجحًا في مجاله الفني الذي اختاره، وهذا ما ينبغي أن نُحاسبه عليه؛ لأنَّ هذا هو عمله الأساسي، كما قال (رجاء النقاش)، أما بقية الجوانب فإننا لسنا موكلين بها، ولا مُجبرين أن نُقلِّد الكاتب الذي أحببناه فيها.

ماذا يقول (عبد الوهاب مطاوع)؟

ولعلَّ هذا هو ما دعا الأديب (عبد الوهاب مُطاوع) أن يقول بأنَّ لديه عادة متناقضة، وهي أنهُ يُحب كتابات الأدباء والمبدعين وغيرهم، لكنه في الوقت نفسه ليس لديه رغبة في الالتقاء بهم خارج كتبهم، فلم يحرص ـ كما ذكر ـ على لقاء (طه حسين) أو (العقاد) أو (نجيب محفوظ) أو غيرهم من عمالقة الأدب والفِكر، رغم سهولة ذلك عليه بحكم وظيفته الصحفية.

بل إن بعضهم كالأديب (توفيق الحكيم) قد عمل معه (مطاوع) في نفس المكان في جريدة (الأهرام) قرابة 25 عامًا، ومع ذلك لم يلتقِ به خلال هذه المدة الطويلة إلا مرة واحدة فقط عن طريق الأديب (أحمد بهجت)، على الرغم أنهُ كان يراه بشكل مستمر، وهو يدخل مبنى (الأهرام) أو يستخدم المصعد، ولكنه لم يسعَ للاقتراب منه والحديث معه.

وبيَّن (مطاوع) أنَّ السبب ربما يكون خوفهُ من أن تتغيَّر الصورة المثالية التي رسمها عنهم في خياله، فينصدم بالواقع الذي يعيش فيه البشر بقسوتهم وضعفهم، فآثر ـ على حد تعبيره ـ أن تبقى الصورة المثالية عنهم في عقله ولا تُشوهها مرارة الواقع.

كلام جميل من (محمود الشنواني)

يقول طبيب الأطفال والكاتب (محمود الشنواني) إنَّ هناك قدرًا من المخاطرة عندما تقترب بشكل شخصي من المبدعين الذين تهتم بإبداعهم الفني أو الأدبي، حيث قد تجد أحيانًا ما لا يسرُّك وما لا يريحك من نرجسية ونظرة طاوسية، وقد تجد زيفًا وقد تجد سطحيةً، ممَّا يُؤثر هذا بشدة في تلقِّيك لإنتاجهم، وتتمنَّى لو كنت قد بقيت بعيدًا عنهم.

وبيَّن (الشنواني) أنَّ اقترابك من أديب تُحبُّه لا بدَّ أن يجعلك تواجه إشكالية لا حلَّ لها، وهي أن حالة الأديب وهو يبدع لا يمكن أن تتطابق مع حالته وهو يتعامل مع الناس في حياته اليومية، فقد تتقارب الحالتان حتى تقتربا من التطابق، وقد تتنافران حتى إنك تعجب أن هذا الفنان هو ذلك الإنسان.

ماذا قال د. طارق السويدان؟

أذكر قبل سنوات طويلة أنني تابعتُ لقاءً مع الدكتور (طارق السويدان) وأظنهُ ـ إن لم تخنِّي الذاكرة ـ كان في قناة (الرسالة)، حيث حكى ـ بمعنى كلامه ـ أنهُ عندما عُيِّن مديرًا لقناة (الرسالة)

الفضائية وبدأ بالتعامل مع كثيرٍ من الدعاة والمشايخ عن قرب، قال إنهُ في السابق كان يسمع الثناء على هؤلاء الدعاة والمشايخ كثيرًا، فرسم صورة إيجابية عنهم، لكنه بعد أن اقترب منهم وتعامل معهم بشكل مستمر، انصدم في كثيرٍ منهم، حيثُ وجد لديهم الغيرة والتحاسد والتنافس، وغيرها من الصفات. وهذه القصة، وغيرها الكثير يُؤكِّد لنا أنَّ الاقتراب بشدة من الأشخاص، قد يجعلنا نُصدم بواقع لم نتوقعه.

مررتُ بنفس الموقف

وقد وقع لي ما وقع لرجاء النقاش، حيثُ كنتُ متشوقًا للقاء الكثير من الكُتَّاب الذين أحببت كتاباتهم وغيَّرت فيَّ الكثير، ورسمتُ في خيالي صورة مثالية عنهم، وبالفعل استطعتُ التواصل ثم اللقاء مع بعضهم، وصار التواصل مع بعضهم بشكل مستمر، وانصدمت في الواقع من بعض هؤلاء الكُتَّاب، فلم أتوقَّع حينها أن مثل هذه التصرفات تحدث من بعض أفراد هذه الفئة التي اتَّخذتُ بعضهم قدوة لي، لكن الخطأ كان خطئي، وبحثي عن المثالية في عالم البشر، ومُحاولتي التقرب الشديد جدًّا منهم.

لذلك أصبحتُ كالأديب (عبد الوهاب مطاوع) لا أرغب ـ في الغالب ـ في لقاء الكاتب خارج كتبه إلا في حالات نادرة، فصرتُ لا أهتم بحضور جلسة توقيع الكاتب الذي أحببت كتاباته، فقط يكفي عندي أن أقتني كتابه وأقرأه. وصرتُ كذلك كلما دُعيت للمشاركة في جلسة أو ندوة مع بعض الكُتَّاب ثم العشاء معهم بعد ذلك والتقرُّب منهم أكثر، أعتذر عن الحضور بأدب.

أيضًا أصبحتُ أرفض أي دعوة أتلقَّاها في الانضمام إلى نادٍ أو جمعية أو رابطة تجمع الأدباء والكُتاب؛ وما ذلك إلا كما قال (مطاوع) لكيلا تتغيَّر الصورة الخيالية التي رسمتها عن هؤلاء الكُتَّاب، بقربي الشديد منهم والتعامل معهم بشكل مستمر، وليس تكبرًا أو ترفعًا، معاذ اللّه، بل أُكنُّ لهم كل احترامٍ وتقدير، لذلك حرصتُ على إبقاء هذه المسافة بيني وبين أغلبهم.

الخلاصة

يقول (د. غازي القصيبي): «إذا تعرفت على شاعر خارج ديوانه، فلا تلومنَّ إلا نفسك»، وهذا الكلام ينطبق ليس فقط على الشاعر، بل على كل كاتب ومبدع في أي مجال.

والخلاصة في أمرين؛ الأول: كن واقعيًّا في توقُّعاتك ولا ترسم صورة مثالية خيالية تتحطم بعد ذلك على أرض الواقع، واجعل في اعتبارك أنَّ الكاتب بشر له حسناتٌ كثيرة وله كذلك زلَّات، وهذا ليس بعيب، بل هذا جُزء من تكويننا وطبيعتنا البشرية، وإنهُ وإن كان متميزًا في مجاله الذي يكتب فيه، فقد يكون شخصًا عاديًّا في باقي الأمور.

الأمر الثاني: لا تقترب من كاتبك الذي أحببت كتاباته قربًا شديدًا يجعلك تعرف عيوبه، ومن ثم تزهد فيما يكتبه، وبذا تحرم نفسك الاستفادة من كتاباته، كن وسطًا في القرب بلا إفراط ولا تفريط.

الفصل الثاني:

قالوا لي عن القراءة والكتب

تمهيد

في أحد الصباحات الباكرة لأحد أيام الإجازات، جلستُ كعادتي في غرفة القراءة والكتب تُحيط بي من كل جانب ـ أكثر من 4 آلاف كتاب حولي ـ، وقد شُغلتُ حينها عن وِرد القراءة الصباحي وأخذتُ أتأمل في حال القراءة ووضعها[2]، وأتساءل فأقول: هل كان القُراء الجادُّون قبل عقدين من الزمان أكثر منهم اليوم؟ هل لوسائل التواصل الاجتماعي تأثير كبير حول صرف كثير من القُرَّاء ـ حتى الجادِّين منهم ـ عن القراءة الجادَّة؟

هل عدد القُراء الحقيقيون يزيد أم ينقص؟ وإذا كان العدد يزيد إذن لماذا قلَّ التفاعل كثيرًا حول الكتب الجادَّة، ولماذا بعض المكتبات تُخطِّط أن تقفل نهائيًّا لقلة الزوَّار؟ ولماذا أصبحت كثير من المكتبات تقوم بين فترة وأخرى بعمل حسم كبير جدًّا يجعل الربح هامشيًّا أو لا ربح، فقط لتغطية نفقات التكاليف؟!

ولماذا صار زوَّار معارض الكتب أقلَّ عمَّا كانوا عليه قبل عدَّة سنوات؟! حيثُ كثيرًا ما اشتكت لي بعض دُور النشر من قلَّة الزوَّار والمبيعات التي لا تكاد تُغطِّي التكاليف! لماذا صار من الصعب جدًّا أن تجد شخصًا يتفاعل مع كتاب جادٍّ قرأته ويُناقشك فيه؟! ولماذا الكتب التجارية هي الأكثر انتشارًا وتفاعلًا، بينما الكتب الجادَّة قليل مَن يلتفت لها؟!

هل نسبة القُرَّاء الجادِّين ثابتة ولم تتغيَّر عبر الأزمان؟ وإذا كان هذا صحيحًا، فلماذا يشتكي الناشرون من قلَّة شراء الكتب بالمجمل وليس في معارض الكتب فقط؟ ولماذا صاروا لا يُعيدون طباعة كتب كثيرة، ويعتذرون بأنَّه لم يعد أحد يقرأ هذه الكتب الجادَّة، ويقولون الجيل اختلف؟! ولماذا صاروا لا يطبعون في مجالات كثيرة من الكتب إلا بشروط كثيرة وبعدد نسخ لا يتجاوز 500 نسخة؟

وقد لاحظتُ أيضًا كثيرًا ممَّن كانوا مهتمِّين بالكتب وقراءتها، أن شغفهم حولها صار ضعيفًا جدًّا، فعندما أخبر أحدهم عن كتاب جديد قرأته، لا أجد الحماس السابق الذي كان لديه لشراء الكتاب؟ كما أنَّ زيارتهم للمكتبات أصبحت نادرة جدًّا وعلى فترات متباعدة طويلة، وقد قلَّ حماسهم أو انعدم لمعارض الكتب، ففي السابق يعدون الأيام والليالي في انتظار هذه المناسبة البهيجة، والآن صار الأمر عاديًّا جدًّا وربما لا يُخطِّطون لزيارته!

وقبل أن أغرق في اليأس من انصراف الناس عن القراءة وعدم اهتمامهم بالكتب إلَّا القليل منهم، خاطبتني نفسي وقالت: العظماء من عصر (سقراط) وحتى عصرنا ـ الأحياء منهم والأموات ـ

مُحيطون بك، جالستهم كثيرًا واستغنيت بهم عن الأصدقاء الحقيقيين إلا قلّة، وشغلت وقت فراغك بالحديث معهم ـ عبر كتبهم ـ ولم يبقَ لك وقت لممارسة شيء آخر سوى الجلوس معهم. أخذوا من وقتك أكثر من عقدين من الزمان. اسألهم عمَّا يجول بخاطرك واستنطقهم، لعلك تجد جوابًا لديهم حول ما شغلك. فاستحسنتُ الفكرة وأُعجبتُ بها، فقلت: هيا إذن لمحاورتهم لعلِّي أجد ما يشفي غليلي معهم.

فكانت هذه المحاورات المُتخيلة بيني وبينهم، التي رأيت من الفائدة بمكانٍ أن أضع تجاربهم ونصائحهم حول القراءة والكتب في فصل خاص. ولقد آثرتُ هنا ألَّا أعلِّق على نصائحهم سلبًا أو إيجابًا. أردتُ للقارئ أن يقرأ بنفسه ويتعرَّف على آراء هؤلاء المفكرين والفلاسفة والأدباء حول القراءة، وكيف ينظرون إليها.

وستجد ـ أخي القارئ ـ عند قراءتك لهذا الفصل، أنَّ هناك نصائح متشابهة بين أكثر من أديب أو مفكِّر أو فيلسوف، كما ستجد اختلافًا بين نصائحهم، أو تناقضًا أحيانًا بين نصيحتين، وهذا أمر طبيعي جدًّا، فالنصيحة تختلف من شخص لآخر حسب ميول الشخص واهتماماته وتكوينه الثقافي وتأثير بيئته عليه، وعصره الذي عاش فيه. فالنصيحة قد تختلف من زمان إلى زمان آخر كما هو معلوم. لذلك ضعْ في اعتبارك كلَّ هذه الأمور وأنت تتجوَّل في هذا الفصل، الذي قصدتُ به إفادتك وإمتاعك، فخذ ما تراه ملائمًا لشخصيتك وميولك وتفكيرك، واترك ما عدا ذلك.

والآن هيا لمعرفة أخبارهم ونصائحهم وتجاربهم في القراءة[3]..

د. عبد الله الغذامي

تلفَّتُّ أنظر في أرفف مكتبتي، فرأيتُ (د. عبد اللّه الغذامي) حاملًا في يده كتابه (اليد واللسان)، فتوجَّهتُ إليه وسلَّمتُ عليه. فرد السلام عليَّ. فسألته إن كان لديه وقت ليُجيب عن بعض الأسئلة التي تدور في عقلي. فأجابني على الرَّحب والسَّعة وأنه يسعد بذلك كثيرًا. فقلت: إذن، فلنبدأ على بركة اللّه.

س: هل قراءة الكتب مهمة لتكوين ثقافة جادة؟

جـ:[4] ينبغي أولًا أن نُوضِّح هل القراءة وسيلة أم غاية؟ القراءة هي وسيلة لإرسال واستقبال الكلمات، والكلمة المكتوبة هي تصوير للمنطوق، وأيُّ وسيلة في الدُّنيا لا تكون غاية في ذاتها، وقد يحلُّ غيرها محلَّها لأداء المهمة، وقبل القراءة كانت الوسيلة هي الثقافة الشفاهية، فالآداب العظمى في التاريخ كلها تحدَّرت وتناسلت عبر الرواية والمشافهة والحفظ.

وفي زمننا الحالي زاحمت الثقافة المكتوبة الثقافة البصرية، أعني التلفاز وما تلاه من تطور كالفضائيات والإنترنت وغيرها، فنحن في مرحلة زمن الصورة، وقد يقول بعضهم إن زمن الكتاب قد شارف على الاضمحلال. ولكنِّي لا أقول ذلك ولا أراه سيقع حقيقة، ولكني أرى أن القراءة ليست

سوى صيغة واحدة من صيغ ثلاث تمثّل وسائل التثقيف والاستقبال، وكلها وسائل كبرى ومتساوية المفعول وهي: (يسمع/يقرأ/يبصر)، فطه حسين مثلًا مثقّف عالي الثقافة اكتسب ثقافته عن طريق السمع لا عن طريق القراءة.

س: إذن قراءة الكتب ليست هدفًا بحدِّ ذاته، الهدف هو اكتساب ثقافة بأي وسيلة كانت؟!

جـ: نعم، والربط بين الثقافة والقراءة جاء لعدَّة أمور لا لمجال لتفصيلها هنا، فالثقافة ليست محصورة في الكتب فقط. نعم، البشرية تحولت تحولًا كبيرًا حينما اعتمدت الكتابة وسيلة للثقافة، بعد أن كانت الشفاهية هي الوسيلة المطلقة، فجاءت الكتابة لتحتلّ المركز الأول ثقافيًّا وتزيح الشفاهية إلى الهامش.

ثم جاء بعد ذلك زمن الفضائيات بثقافة الصورة لتعلن تحوُّلًا كبيرًا في تاريخ حياة البشر، وثقافة الصورة أعادت الكثير من خصائص الشفاهية، فالكتاب صامت[5]، بينما الثقافة الشفهية حية وقابلة للتبدُّل والتغيُّر والتفاعل، مع اشتراك لغة الجسد في توصيل الرسالة.

وبظهور الإنترنت والجوَّال، صارت هذه الأدوات كلها صيغًا ثقافية جديدة تتيح فرصًا خيالية للناس لكي يُمارسوا أنواعًا متجددة من الوسائل المعرفية الرخيصة أو حتى المجانية، مع ما فيها من حرية مطلقة وسرعة في الاستقبال واختصار للوقت والجهد وتوفير للمال. ومن الملاحظ أن الناس قد تجاوبوا ثقافيًّا مع ثقافة الصورة بصيغة عريضة وسريعة ومُغرية، وهذا تطور يجري ضد مصلحة الكتاب.

س: تعني أنهُ بسبب الوسائل الحديثة قلَّ الإقبال على القراءة ـ خصوصًا الكتاب الورقي ـ كوسيلة ثقافية واتّجه الناس للبدائل الجديدة؟

كنتُ أتساءل دومًا: هل القراءة فعل عمومي أم أنها عمل نخبوي وتخصصي ضيق ومحدود؟ ومن خلال بحثي للمخطوطات كان ما يشغل بالي هو عدد النسخ لأي مخطوطة، وكنتُ ألاحظ دومًا أن أعداد المخطوطات قليلة، ولا تجد من مخطوطة سوى بضع نسخ إلا فيما ندر جدًّا، وأكَّد لي ذلك أيضًا الصديق (د. عبد العزيز المانع).

وكان سؤالي: ما الذي يجعل المخطوطات محدودة النسخ مع ما يتواتر في قولنا عن مجد عريق في بغداد وغيرها وأن الكتب كانت تعمر عالمنا القديم؟! حتى لو قلنا بالضياع والتلاشي لبعض المخطوطات كما فعل المغول في بغداد، لكن كم عدد النسخ التي ضاعت من كل كتاب وتلفت؟!

أعداد المخطوطات تؤكد محدودية القُرَّاء وأن عالم الكتاب بسيط من حيث الأرقام، وأن القراءة كانت فعلًا محصورًا ومحدودًا، والفئة القارئة تاريخيًّا هي فئة قليلة جدًّا، وهذا حكم يشمل الأمم كلها، مع التوضيح أن الذي يُقرر مصير التقدم في أمة من الأمم ليس هو وجود ملايين البشر يقرءون ويكتبون، ولكنها فئة قليلة تُجيد هذا الدَّور وتتمكّن منه إبداعيًّا وعلميًّا، فهي التي تقود الأمة للتقدم،

وهذا ما تدل عليه وقائع التاريخ كلها، فشكسبير كان واحدًا بين الملايين، والعلماء اليوم من المخترعين هم فئة محدودة.

س: لكننا نرى أن هناك كتبًا هي الأكثر بيعًا، وتُباع منها مئات بل آلاف النسخ؟ ألا يدل هذا على أن الناس تقرأ كثيرًا؟!

هناك تحولات ثقافية كبرى حدثت، تحولات في الاهتمام ونوعية المتابعة، ومن هذه التحولات رأسمالية الثقافة، وأعني بها الكتب الأكثر بيعًا، التي صارت لها مكانة كبيرة في أمريكا أولًا ثم في أوربا تأثرًا ومتابعة بعد ذلك.

ومصطلح الأكثر بيعًا يُشير عادة إلى نوع من الكتب تلامس الهمَّ الاجتماعي العام، وهي عادة من الكتب السهلة في موضوعاتها وفي أسلوبها، ويغلب عليها أن تكون لمؤلفين لهم صيت اجتماعي كبير، وفي الغرب يكون هؤلاء من الإعلاميين المقربين من دوائر القرار، أو من الفنانين أو الساسة السابقين، وغيرهم.

وتأتي نوعية الكتب في هذه الحالات لتكون كتب كشف أسرار أو كتب فضائح أحيانًا، فأنت لن تجد مثلًا كتب (برتراند راسل) تحصل على أي نسبة من المبيعات تؤهلها للمقارنة مع هذا النوع من الكتب، فالعلوم الجادة والصعبة لا مكان لها بين هذه الكتب الرائجة.

والكتب الأكثر بيعًا هي كتب عادة لا تعيش طويلًا ويحل غيرها محلها في دوامة تجارية لا نهائية، فلو استعرضنا ملحق الكتب في صحيفة (نيويورك تايمز) لرأينا كم هي كريمة المرور، فالكتب التي كانت حديث الصحافة قبل أشهر لم تعد كذلك اليوم، وحل محلها كتب أخرى تكتسب الصفة نفسها، بل إن بعضها لا يبلغ الشهر ويتراجع في أسابيع، وسوف ننبهر فعلًا لو أحصينا الكتب التي تم وصفها بأنها رقم واحد في الأفضل بيعًا خلال عام، فما بالك بعشرة أعوام؟!

فالأكثر بيعًا مظهر ثقافي عصري، وكما نتساهل مع أنفسنا فنسمح لها بأن تنخدع بالإعلانات مثلًا، أو تستجيب لإغراءات الموضة، فإننا ننساق وراء الكتب المسماة بالأكثر بيعًا ونسمح لأنفسنا بأن نصرف مالنا وبعض وقتنا للتمتع بالوشاية والإشاعة والتزجية السريعة والكتب السهلة والروايات الفضائحية.

س: ذكَّرتني بما قاله الروائي (خليل صويلح) بأن الكتب الأكثر بيعًا أغلبها كالمحارم الورقية، تصلح للاستعمال مرة واحدة، وأفهم من جوابك السابق أنَّ هناك أسبابًا كثيرة تجعل بعض الكتب تكون الأكثر بيعًا، وليس كل كتاب أكثر بيعًا يكون أكثر إفادة؟!

ثقافة الكتب الأكثر بيعًا صارت في الواجهة اليوم، وقوائم الكتب الأكثر بيعًا هي في الصدارة، والكتب الأكثر بيعًا تتغيَّر بمؤلفيها وعناوينها، غير أن الموضوعات تظل متشابهة، وقد نقول إنها واحدة لا تتغير، وهي في الغالب مسائل في النفسيات وفي الجرأة وكسر حدود المحذور من جهة.

وهناك مؤشرات أخرى كاسم المؤلف، خذّ مثالًا على ذلك: كتاب (لا تحزن) لعائض القرني، فالدكتور عائض داعية بارز له جمهوره العريض، بالإضافة لموضوع الكتاب حيث لامس حالة اجتماعية منتشرة بين البشر، فالكل يريد أن يُبعد الحزن، كما أن اسم الكتاب له دَور، حيث إنهُ جزء من آية قُرآنية تحكي قصة نبينا ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ في الغار مع الصدِّيق أبي بكر ـ رضي اللّه عنه.

أيضًا لغة الكتاب لها دَور كبير في رواجه وجعله الأكثر بيعًا، فمن خصائص الكتب الأكثر بيعًا البساطة اللغوية والأسلوب السواليفي الذي يعتمد على القصص والحكايات وضرب الأمثال، وفي كثير من الأحيان تجد زبائن الكتب الأكثر بيعًا هم أنفسهم لا يتغيرون.

سبب آخر لجعل الكتاب أكثر بيعًا، هو الاستجابة القرَّائية، فأغلب زبائن هذه الكتب هم فئة غير متخصصة في موضوع الكتاب، ومعظمهم ليسوا من قُرَّاء الكتب بالمعنى العلمي والثقافي، فالكتاب الشعبي يقرؤه غير المختصين ممَّن يعانون من مشاكل لم يجدوا لها حلًّا مهنيًّا، ففي كتاب (لا تحزن) مثلًا، حيث وجد الكثيرون ممَّن قرءوه فيه سلوة عن أحزانهم وآلامهم، فهذه ليست مسألة ثقافية، والذين قرءوه لم يقرءوه لطلب الثقافة، بل من باب طلب الاستشفاء والتطبب.

أما بالنسبة لرواج كتب الفضائح وكشف الأسرار، فهذا يخصُّ مَيْلًا بشريًّا فطريًّا نحو الفضول النفسي في التلذُّذ بالإشاعات وإذاعة الأسرار، ويأتي هذا النوع من الكتب ليُجيب على هذه الرغبات، ولذا تشيع هذه الكتب وتدخل في قوائم الأكثر بيعًا، ومثلها كتب التنجيم والأوهام أيضًا.

س: تقصد أن الكتب الأكثر بيعًا في الغالب لا تدلُّ على ثقافة قُرائها، بل على حاجات نفسية وتلبية لرغبات يجدونها في مثل هذه الكتب؟

نعم، مصطلح (الأكثر بيعًا) هو مصطلح في التسويق وفي نسق الاستجابات، وليس مصطلحًا في القراءة والثقافة والفِكر، ولكلٍّ من هذين مجاله وعالمه واختصاصه، ولا يصح علميًّا ولا منهجيًّا أن نضع هذا بجوار ذاك.

وهنا رأيت أني أطلتُ على (د. الغذامي) فشكرته على هذا الشرح الوافي، واستأذنته في أن أنصرف لشئوني، فأذن لي وودَّعته، على أمل أن ألتقي بكاتب ومفكر آخر، يشرح لي أمورًا أخرى.

أندريه موروا

في المساء عندما رجعتُ إلى مكتبتي، تفكَّرت في كلام (د. عبد اللّه الغذامي) الجميل، وتوضيحه عن القراءة وكيف أن أصحابها قليلون عبر التاريخ، واقتنعتُ برأيه حول الكتب الأكثر بيعًا، لكني شعرت أني محتاج إلى توضيح أكثر حول القراءة. فتلفَّتُّ يمينًا وشمالًا لأجد من يُشفي غليلي أكثر.

فجأةً رأيتُ الأديب والمؤرخ والفيلسوف الفرنسي الشهير (أندريه موروا) (1885 – 1967م) يقرأ في كتابه (فن الحياة).

فقلتُ: لماذا لا أسأل هذا الفيلسوف عن القراءة وكيف كان يراها؟! فقد عاش هذا الفيلسوف في زمان لم تصل فيه التكنولوجيا إلى هذا التطور الهائل الذي نعيشه في أيامنا، فلم يكن في عصره هواتف ذكية ولا إنترنت ولا غيرها. لعلِّي أجد عند هذا الفيلسوف توضيحًا أكثر حول هذا الموضوع الذي شغلني وأرَّقني.

فتوجَّهت إلى الفيلسوف لأسأله، وقد رأيته فَرِحًا بقدومي نحوه وهشَّ وبشَّ، وقلت له بعد التحية: أيها الفيلسوف الكبير، سعيد بأن أراك هنا، هل يسمح وقتك الثمين لبعض الأسئلة؟ فأجابني بأنهُ سيشعر بالفرح إذا استطاع أن يُجيبني عن أسئلتي. ففرحت وقلت: فلنبدأ إذن.

س: كيف تنظر إلى القراءة؟

جـ: كان الكاتب الفرنسي (فاليري لاربو) يعتبر القراءة رذيلة لا عقاب لها، أما الفيلسوف الشهير (رينيه ديكارت) فكان على عكسه، حيث يراها التحدث إلى أشرف القرون الماضية.

س: وأنت تميل لرأي مَن منهما؟

جـ: أرى كليهما على الحق.

س: هل يمكن أن توضِّح لي كيف يكون كلاهما على حق؟!

جـ: بالتأكيد. القراءة تكون رذيلة في حالة أولئك الذين يجدون فيها نوعًا من التخدير والتحرر من عالم الحقيقة والغرق في دنيا الخيال. فهم لا يستطيعون البقاء دقيقة واحدة بغير قراءة، ويطيب لهم قراءة أي شيء، فهم يقرءون في موسوعة فصلًا عن الرسم بالألوان المائية بنفس النهم الذين يقرءون به فصلًا آخر عن آلات الاحتراق.

وهؤلاء إذا تُركوا وحدهم في غرفة، اتَّجهوا إلى المنضدة التي عليها الجرائد والمجلات(6)، وقرءوا على أي صفحة تقع عيونهم عليها، حتى إنهم يقرءون من المنتصف أحيانًا!

س: هل هذا النوع من القراءة يعتبر غير نافع؟!

جـ: هذا النوع من القُرَّاء لا يبتغون من المُطالعة أفكارًا جديدة أو حقائق، إنما غرضهم الاسترسال مع ذلك السيل المستمر من الألفاظ الذي يحجب عنهم العالم ويحجب عنهم نفوسهم، فلا يستسلمون لحظة إلى أفكارهم الخاصة. وهم لا يتعقَّلون إلا القليل من الخلاصات النافعة، ولا يُحسنون الحكم على ما يطَّلعون عليه من مصادر المعرفة.

ومطالعاتهم كلها سلبية، يستسلمون للنصوص ولا يُفسرونها، ولا يفسحون لها محلّا في عقولهم ولا يتمثلونها.

س: وما هو النوع الذي يستفيد من القراءة فعلًا؟!

جـ: هما نوعان؛ النوع الأول: مَن يقرأ للاستمتاع، فيقرأ مثلًا قصصًا توقظ شعور الجمال في نفسه، أو توقظ عواطفه، أو يقرأ مغامرات لا يجدها في الحياة، أو يقرأ أقوال الشعراء والأخلاقيين، التي تُعبر عن أحاسيسه ومشاعره بأدق وأوفى العبارات. وهذا النوع من القراءة سليم.

س: وما هو النوع الثاني؟

جـ: القراءة للدراسة، وهي التي يقصد الإنسان من ورائها البحث عن معلومات معينة، ومواد يجد عقله في حاجة إليها.

س: هل بإمكانك أن تُخبرني كيف يمكن للشخص أن يستفيد من قراءاته؟

جـ: ينبغي للقارئ ألا يقرأ إلا والقلم في يده، إلا إذا كان صاحب ذاكرة جبارة، لأنه لا فائدة من القراءة إذا اضطرَّ الإنسان إلى إعادة الاطلاع كلَّما أحب الرجوع إلى الموضوع.

ودعني أخبرك عن طريقتي في المُطالعة، إذا كنتُ أقرأ كتابًا في التاريخ أو في أي موضوع، كتبتُ على الصفحة الأولى أو الأخيرة بضع عبارات تُشير إلى الموضوعات الأساسيات التي يُعالجها الكتاب، وكتبت تحت كل عبارة أرقام الصفحات التي أرغب في الرجوع إليها وقت الحاجة، من غير أن أضطرَّ لقراءة الكتاب من جديد.

س: أيهما ترى أفضل من وجهة نظرك: التركيز على مؤلف واحد وقراءة جميع كتبه أم القراءة لمؤلفين مختلفين وقراءة كتب كثيرة؟

جـ: أرى أن يُجيد الإنسان دراسة بعض الكُتَّاب خيرًا من أن يقرأ للكثيرين قراءة سطحية، فإنَّ محاسن المؤلِّف لا تتضح عند القراءة الأولى. فينبغي أن يسير الإنسان بين الكتب كما يسير في الدنيا يبحث عن أصدقاء، ولكنه متى وجد هؤلاء الأصدقاء واصطفاهم، اعتكف معهم.

س: هناك فئة ذوقها من ذوق السواد الأعظم من القُراء، لا تقرأ إلا كتابًا تم التحدث عنه كثيرًا، ما هو تعليقك في ذلك؟

جـ: لكل عقل أغذية توافقه، وعلينا أن نتعلَّم كيف نُحسن اختيار غذائنا الروحي، وكيف نتعرف على مؤلفينا، فإنهم يختلفون عن مؤلِّفي أصدقائنا، لأن الذوق يختلف من شخص لآخر، وإن الإنسان ليدهش من أذواق الآخرين كما في الحُب، فلنعتمد على ذوقنا لأنه أفضل لنا في الحكم.

س: هل من نصيحة لجعل قراءتنا مُثمرة مُجدية؟

جـ: لدي نصيحتان؛ الأولى: عليكم أن تُحيطوا مطالعاتكم بجوٍّ من التفرُّغ والخشوع، فليس من المُطالعة في شيء أن ننظر في صفحة ثم نقطع القراءة لنردَّ على التليفون[7]، ثم نعود فنتناول الكتاب وذهننا شارد، ثم ينتهي بنا الأمر بأن نودِّع الكتاب إلى الغد. على القارئ أن يُخصص أمسيات طويلة هادئة منعزلة ليقرأ.

س: وما هي نصيحتُك الثانية؟

جـ: أن تجعل المكانة الأولى في مُطالعاتك للنصوص الجيدة، وأن تكون جديرًا بقراءة أفضل الكتب.

س: كلمة أخيرة تختم بها؟

جـ: إنَّ فنَّ القراءة هو في الغالب فنُّ تعرُّف الحياة وإجادة فهمها بفضل الكتب.

وهنا شكرتُ الفيلسوف الكبير (أندريه موروا) على أن سمح لي بمناقشته، وودعته، فتبسَّم لي وقال لي: وداعًا!

سينيكا

في صباح الغد الباكر، كعادتي جلست في مكتبتي، وتفكَّرتُ كثيرًا فيما قاله لي بالأمس الفيلسوف (أندريه موروا) ونصائحه التي قدَّمها بعد خبرة طويلة مع القراءة والكتب. وقلت: لو وعاها وقام بتطبيقها القُرَّاء؛ لأصبحت قراءاتهم أكثر نفعًا لهم ولغيرهم.

والْتفتُّ فوجدتُ الفيلسوف الروماني الشهير (سينيكا) ينظر إليَّ وقد حمل في يده كتابهُ (رسائل من المنفى)، فقلتُ: جميل أن أحاور هذا الفيلسوف العظيم وأفيد منه، والذي اختلفوا في تاريخ ولادته، فبعضهم قال: وُلِدَ في سنة 4 أو 5 قبل الميلاد، وبعضهم قدره 4 بعد الميلاد، وآخرون أوصلوه لسنة 8 قبل الميلاد. لكن لا يهمُّ تحديد تاريخ مولده، الذي يهمُّ أنه صار فيلسوفًا شهيرًا مؤثرًا، وما زالت أفكاره منتشرة حتى يومنا هذا.

توجهت إلى الفيلسوف ـ وكلِّي خجل أن يردَّني ـ فحيَّيْتُهُ، فردَّ التحية عليَّ. قلتُ له: هل بإمكانك أن تفيدني؟ لديَّ بعض الأسئلة المتعلِّقة بالقراءة؟ فأجابني بأنه ليس لديه مانع في ذلك، لكن وقته ضيق جدًّا، وطلب مني أن أسأل ما لديَّ حالًا وألَّا أُكثر من الأسئلة. فسعدتُ بذلك واغتنمتُ الفرصة.

س: دعني أسألك نفس السؤال الذي سألته للفيلسوف (موروا): أيهما ترى أفضل من وجهة نظرك: التركيز على مؤلِّف واحد وقراءة جميع كتبه أم القراءة لمؤلِّفين مختلفين وقراءة كتب كثيرة؟

جـ: إني أحذر من القراءة لعدد كبير من المؤلفين المتنوعين والكتب من كل صنف.

س: لماذا؟

جـ: يجب أن تُقيم طويلًا في صُحبة الكُتَّاب ذوي العبقرية غير المشكوك فيها، وأن تستقي منهم التغذية إن كنت تريد فائدة تدوم في عقلك.

س: هل يمكن أن تُوضِّح كلامك السابق أكثر، لماذا تنصح بالتركيز على القراءة لمؤلف واحد بدلًا من القراءة لمؤلفين كثيرين؟

جـ: بالتأكيد، أن تكون في كل مكان يعني ألا تكون في أي مكان. إنَّ الذين يُمضون حياتهم مسافرين في الخارج ينتهي بهم الحال بأن يجدوا الضيافة في الكثير من الأماكن، ولكن لا يجدون فيها الصداقة الحقيقية!

والشيء نفسه صحيح في حالة الذين لا يقدمون على التعرف الوثيق إلى كاتب عظيم واحد، بل ينتقلون من واحد إلى آخر في زيارات عابرة للجميع.

كثرة الكتب تُعرقل طريق المرء، ولا شيء يُعيق التعافي مثل تغيير العلاج باستمرار، فالجرح الذي يُصبح عيِّنة لتجربة أنواع المراهم لا يندمل أبدًا، والنبتة التي تُنقل باستمرار لا تستوثق جذورها. وليس ثمَّة ما هو مفيد إلى حدِّ أنهُ يخدمك بمجرد المرور فيه.

س: شرح واضح لفكرتك، لكن قد يقول أحدهم: «لكنني أرغب في تصفُّح كتب مختلفة في أوقات مختلفة»؟ بماذا تُجيبه؟!

جـ: أُجيبه بأنَّ تذوُّق طبق تلو الآخر دلالة على معدة مفذلكة(8)، وحيثُ يكون الطعام متعددًا ومختلفًا في أصنافه، يؤدي إلى فساد النظام، لا إلى تغذيته.

س: يعني أنك تدعو بشدة لقراءة كاتب عبقري واحد والانهماك في كتبه إلى حين فهمها بعمق شديد، بدلًا من القراءة لمؤلفين كُثر؟!

جـ: نعم. اقرأ على الدوام للكُتَّاب المُجرَّبين، وإذا شعرت في أي لحظة بأنك تحتاج إلى أن تُغيِّر كاتبًا ما، فارجع إلى الكُتَّاب الذين قرأتهم من قبل.

وهنا رأيت الفيلسوف يعتذر بشدة لي ويقول: لقد أخبرتك أنَّ وقتي ضيق، ولا بدَّ أن أرحل الآن. فأردتُ أن أشكره على إتاحة الفرصة لي للحديث معه، ولكنِّي لم أجده! لقد اختفى سريعًا!

مات هيغ

كالعادة عندما تهدأ الأمور في المساء، ويعمُّ السكون في المنزل، أذهب للجلوس في مكتبتي للقراءة أو البحث أو حتى عدم فعل شيء، فقط أجلس مع نفسي قليلًا. في ذلك المساء جلستُ أتأمل ما دار بيني وبين الفيلسوف (سينيكا) من حوار، وأتفكَّر في كلامه، ونصيحته الثمينة رغم قصرها.

ولم يقطع عليَّ تأملاتي الجميلة سوى أنِّي رأيت الكاتب والصحفي البريطاني (مات هيغ) (من مواليد 1975م)، وهو يحمل كتبه الأربعة: (ملاحظات حول كوكب متوتِّر)، (أسباب للبقاء حيًّا)، (كتاب الراحة)، و(مكتبة في منتصف الليل) بين يديه.

توجَّهت إليه وقد رأيته مشغولًا بكتبه يقرأ فيها ولم ينتبه لقدومي. قلت له: مساء الخير، فانتبه إليَّ، وردَّ التحية مع ابتسامة. سألته إن كان لا يُمانع بالحوار معه لبعض الوقت؟ فأجابني بأنه موافق. فقلت: هيَّا إذن.

س: أعلم أنك أُصبت بمرض الاكتئاب كما ذكرت في كتبك. كيف شُفيت منه؟

جـ: نعم، ومن الصعب وصف الاكتئاب لمن لم يسبق له أن مرَّ به. لقد عانيت من الاكتئاب كثيرًا، لكن في عام 2000م بدأت الأشياء الجيدة بالظهور لي، ففي يونيو من نفس العام انتقلنا للعيش في شقة في مركز مدينة (يوركشاير) في إنجلترا. وهناك بدأتُ بالتعافي، ومن بين أسباب التعافي الكتب.

فبدأتُ أقرأ وأقرأ وأقرأ بشدَّة لم أعرفها من قبلُ. أظنُّ أني قرأتُ في تلك الأشهر الستة كتبًا أكثر ممَّا قرأته خلال سنوات الجامعة الخمس.

س: ما الذي دفعك إلى القراءة بنهمٍ هكذا؟

لأنني كنت قبل أشهر قليلة من تلك الفترة قد خسرت الكلمات، القصص، وحتى اللغة، كنتُ مُصِرًّا ألَّا أخسرها مرة أخرى[2]. وهكذا كنتُ ألتهم كلَّ ما أجده من كتب. كنتُ كلَّ ليلة أقرأ لمدة ساعتين، لدرجة أن عينيَّ كانتا تجفَّان من شدَّة الإرهاق!

س: يعني أنت ترى في القراءة علاجًا؟

جـ: نعم، لطالما اعتبرتُ نفسي ذلك الشخص الذي يُحب الكتب. ولكن هناك فرق بين حب الكتب والحاجة إلى الكتب.

س: هل توضح ذلك؟

جـ: لقد كنتُ بحاجة إلى الكتب. لم تكن قراءتها مجرَّد رفاهية بالنسبة لي في تلك الفترة. لقد كانت الكتب مادة شديدة الإدمان. هناك فكرة تقول إن الإنسان إمَّا يقرأ ليهرب من شيء ما، أو ليجد شيئًا. وقد تساءلت الشاعرة والروائية الأمريكية (سيلفيا بلاث) ـ التي أُصيبت بالاكتئاب وانتحرت بسببه ـ

من قبل: «ألا يوجد مخرج من العقل؟» منذ قرأت هذا السؤال في مراهقتي وأنا أبحث عن إجابة عنه.

س: هل وجدت الإجابة؟!

جـ: إن كان هناك مخرج لا يمرُّ بالموت، فإنَّه بالتأكيد سيمرُّ بالكلمات. وبدلًا من الخروج من العقل تمامًا، تسمح لنا الكلمات بالخروج من عقل لتمنحنا لَبِناتِ بناءٍ عقلٍ جديد، مشابهٍ لسابقه ولكن أفضل، بأسس أكثر متانة.

س: أفهم من كلامك أن الكتب هي من أنقذتك من مرضك الاكتئابي؟!

جـ: يقول (شكسبير): «هدف الفن هو منح الحياة شكلها»، وحياتي وعقلي الفوضوي كانا بحاجة إلى شكل. لقد فقدتُ الحبكة. لم يعد هناك سرد خطي لقصة حياتي. لم أملك سوى الفوضى والضياع. ولهذا نعم، أحببتُ الانغماس في قصص الآخرين لأنها كانت بمثابة الأمل بالنسبة لي. الأفلام، المسلسلات التلفزيونية، وأهم من هذا كله: الكتب.

س: لماذا الكتب بالذات أكثر عن الأفلام والمسلسلات؟

جـ: لقد كانت الكتب بحدِّ ذاتها أسبابًا للبقاء على قيد الحياة. كل كتاب قد تمَّت كتابته ليكون منتج العقل البشري في حالة معينة من حالاته. ضع كل هذه الكتب معًا وستحصل على المجموع النهائي للعقل البشري.

س: كيف إذن أنقذتك الكتب؟

جـ: في كل مرة كنتُ أقرأ فيها كتابًا عظيمًا، كنتُ أشعر أنني أنظر إلى خريطة، خريطة للعثور على كنز، وهذا الكنز الذي كنت أتتبعه هو ذاتي. ولكن كل خريطة كانت ناقصة، ولن أستطيع تحديد مكان ذلك الكنز إلا بقراءة جميع الكتب التي كُتبت في التاريخ! وهكذا كانت عملية عثوري على ذاتي عبارة عن فتح لا نهاية له.

س: ألا تعتقد أنَّ جلوسك مع الكتب يزيد من الاكتئاب لديك لأنها تجعلك في عزلة؟!

جـ: إحدى الصور النمطية المنتشرة عن محبِّي الكتب، هو أنهم وحيدون. في أعمق لحظات اكتئابي، شعرتُ بأنني محاصر، شعرتُ بأنني عالق في رمال متحركة. ولكن بالنسبة لي كانت الكتب هي مخرجي من الوحدة. لقد كانت الكتب تتحدث عن الرحلات والمغامرات، عن البدايات والنهايات، عن الفصول الجديدة، عن ترك المراحل القديمة وراءنا والبدء من جديد.

س: هل تذكر لنا أسماء بعض هذه الكتب؟

جـ: بالتأكيد. كتاب (الطاقة والمجد) لـ (غراهام غرين)، لقد ساعدني هذا الكتاب على تخفيف العزلة التي جلبها لي الاكتئاب. كتاب (مدن خفية) لـ (إيتالو كالفينو)، أحد أجمل الكتب على الإطلاق، لقد استطاع هذا الكتاب اقتلاع رؤى عقلي الغريبة من مكانها.

كذلك كتاب (الغرباء) لـ (س. ي. هينتون)، لقد كان هذا الكتاب أفضل مهرب أتجه إليه للقراءة. رواية (الغريب) لألبير كامو، لطالما كان (كامو) شديد التأثير عليَّ. مذكرات (صامويل بيبيس)، هذا الكتاب يحكي عن أحداث نهاية العالم التي حدثت في القرن السابع عشر. لقد كنتُ أشعر بالارتياح وأنا أقرأ هذا الكتاب.

كتاب (البرتقال ليس الفاكهة الوحيدة) لـ (جينيت وينترسون)، كل كلمة من كلمات الكتاب تحتوي على قوة أو حكمة. كتاب (تاريخ العالم في عشرة فصول ونصف) لـ (جوليان بارنز)، هذا كتاب غريب وطريف، لقد أحببته لفترة طويلة. وغيرها الكثير من الكتب ولا أرغب في الإطالة عليك.

س: يتَّضح لي من كلامك أنك كنت قارئًا نهمًا منذ الصغر؟

جـ: نعم. الكتب طريقة للحصول على بعض المساحات، القصص، الخيال. عندما كنتُ في الحادية عشرة من عُمري، كنتُ دون أصدقاء، وغير قادر على الاندماج مع زملائي في المدرسة. كنت حينها أقرأ كتب (إس. إي. هينتون)، كانت كتبها بمثابة الأصدقاء لي.

لقد صادقت شخصيات قصصها. لقد كانت تلك الشخصيات مفيدة جدًّا لي في تلك السن. وقد كنتُ أجد لنفسي مخبَّأً في قصصها، وأشعر بالأمان فيها.

س: يعني أنك وجدت الأمان مع الكتب أكثر من الأصدقاء الحقيقيين؟

جـ: في عالم بإمكانه أن يكون مريعًا ومقلقًا، عالم لا نعثر فيه على المساحات الذهنية، يُصبح وجود عوالم الخيال مهمًّا وأساسيًّا. بإمكان هذه العوالم أن تتحوَّل إلى ملجأ من الواقع، نعم، من الواقع وليس من الحقيقة.

س: هل تشرح لي أكثر؟

جـ: بالطبع، لقد كنتُ أعاني في العالم الواقعي، كان عليَّ أن أتبع بروتوكولات معينة للتعامل مع الآخرين، كان عليَّ الكذب في بعض الأحيان، كان عليَّ أن أزيف الضحكات.

ولهذا، فإنني وجدتُ في عالم الخيال حقيقة أكبر من حقيقة الواقع، حتى لو كانت هذه الحقيقة تحكي عن الوحوش والدببة الناطقة، هناك دائمًا حقيقة كامنة في حديث هذه الشخوص. إنها حقيقة بإمكانها أن تحمي عقلك، أو على الأقل بإمكانها أن تحميك.

س: ماذا تعدّ القراءة بالنسبة لك؟

جـ: القراءة هي الحُبُّ. بالنسبة لي، لم تكن القراءة أبدًا نشاطًا فرديًّا، بل كانت نشاطًا اجتماعيًّا بشكل عميق. لقد كانت أحد أغنى أنواع الاختلاط بالآخرين. إنها علاقة تُبنى بينك وبين خيال إنسان آخر. القراءة طريقة للتواصل دون أقنعة المجتمع التي يُطالبنا بارتدائها.

س: أين تكمن أهمية القراءة في رأيك؟

جـ: غالبًا ما يتم اعتبار القراءة مهمة لأنَّ لها قيمة اجتماعية؛ لارتباطها بالتعليم والاقتصاد وما إلى ذلك. ولكن هذه الطريقة تُغفل جانبًا مهمًّا من جوانب القراءة.

لا تكمن قيمة القراءة في مساعدتك على الحصول على وظيفة، بل تكمن في قدرتها على منحك المساحة الموجودة فيما وراء واقعك. إنها الطريقة التي يتواصل بها البشر. الوسيلة التي يحلمون بها، يتعاطفون بها، يتفاهمون بها، ويهربون بها.

س: من خلال سرد قصتك مع القراءة، نفهم أنك تُشجع على القراءة وبشدة؟

جـ: نعم، لقد كان (كيرت فونيغوت) محقًّا حين قال: «القراءة والكتابة أفضل وسيلتين لتغذية الروح». القراءة والكتابة هي التي أنجتني من الظلمة.

س: ما هي أهم نصيحة تُقدمها؟

جـ: أن تقرأ. اقرأ ما تُريد، فقط اقرأ! الكتب احتمالات عديدة، إنها طرق ومخارج للعالم، تمنحك الخيارات عندما تعتقد أنك لا تملكها، بإمكانها أن تتحول إلى أوطان أيضًا.

س: نصيحة أخرى؟

جـ: اقرأ كتابًا دون التفكير في إنهائه. اقرأ وحسب. استمتع بكل كلمة، جملة، ومقطع. لا تتمنَّ نهايته، ولا تتمنَّ استمراره للأبد!

س: كيف نُسافر في الزمن؟

جـ: عن طريق كتاب.

س: هل من كلمة أخيرة؟

اعثرْ على كتاب جيِّد. اجلس واقرأ الكتاب. ستمرُّ بك أوقات في حياتك تشعر فيها أنك ضائع وحائر. طريق العودة إلى ذاتك يمرُّ بالقراءة. أريدك أن تتذكَّر هذا. وكلَّما قرأت أكثر تعرَّفت على طريقك

في أحلك الظروف.

وهنا رأيت أني أطلتُ كثيرًا مع الكاتب (مات هيغ) مثلما أطلتُ سابقًا مع (د. عبد اللّه الغذامي). فاعتذرتُ له عن الإطالة، ووضحتُ لهُ أنَّ حديثه الشائق هو الذي جعلني أُطيل ولم أشعر بمرور هذا الوقت الطويل. ابتسم لي (مات هيغ) وقال لي: لا عليك، أنا كذلك استمتعت ولم أشعر بالوقت. ثم ودَّعني وانصرف لشئونه.

أيمن العتوم

أخذتني الالتزامات طوال أيام العمل، كان جدولي مزدحمًا جدًا في ذلك الأسبوع، متوزعًا بين العمل والحياة الأسرية والاجتماعية، فلم أشعر بمرور الأيام من الأحد إلى الخميس بهذه السرعة، ولم أجد الفرصة للانهماك لعدَّة ساعات متواصلة في قراءة كتاب ما والجلوس وحدي في غرفة القراءة.

كنت خلال هذه الأيام أختلس وقت القراءة اختلاسًا من جدولي المزدحم، كان الوقت المختلس متفرقًا في اليوم وليس متَّصلًا، فلم يتجاوز النصف ساعة متصلًا للأسف. اشتقتُ بعد هذا الأسبوع المزدحم أن أجلس بين كتبي لساعات متواصلة دون أن يقطع عليَّ أحدهم خلوتي.

دخلت مساء الخميس غرفة القراءة لآخذ كتابًا يُدخلني في عالم سحري رائع، ويُبعدني عن العالم الواقعي قليلًا بأشغاله التي لا تنتهي وإزعاجاته الكثيرة. عالم محموم لا يتوقَّف ولا يُعطي استراحة، ولو كانت قليلة، ليُعيد الواحد منا شحن نفسه من جديد.

تلفَّتُ أنظر في أرفف الكتب في مكتبتي لأختار الكتاب الذي سيكون رفيقي لهذه الليلة، فإذا بي أجد الروائي والشاعر الأردني (أيمن العتوم) جالسًا ينظر إليَّ، وفي يده سيرته (هذه سبيلي). لم أستوعب وجوده بعدُ، توقَّعت أني في حلم.

لكنهُ قطع تفكيري وسلَّم عليَّ. فرددتُ السلام عليه مباشرة، وقلتُ له: كم أنا فخور جدًّا بوجودك هنا! هل تسمح لي بأن أغتنم هذه الفرصة وألقي عليك بعض الأسئلة؟ قال: نعم، أرجو أن تجد عندي جوابًا عمَّا تسأله! قلت له: بعون اللّه سأجد ذلك، فلنبدأ حوارنا.

س: يبدو أنَّ القراءة لديك شيء أساسي جدًّا لا تتخلَّى عنها بأيِّ حالٍ من الأحوال؟

جـ: صحيح. القراءة سياحة في عقول الآخرين، تفتح لك النوافذ على المُطلق، وترتقي بك في آفاق لا يحدها حد؛ لذلك لم تخلُ رواية من رواياتي الخمسة عشرة حتى الآن[10]، من فكرة القراءة والحديث عن الكتاب.

س: كيف ولجت في عالم القراءة؟

جـ: كان أبواي قارئين، أبي لم يكفّ عن القراءة إلى اليوم، وقد شارف على الثمانين. أمي كانت مُلهمتي في هذا السبيل. كانت تقرأ لي عندما كنتُ صغيرًا، وبعد أن كبرت صرنا نقرأ معًا. حين صرنا نتبادل ما نقرأ ونتناقش فيه، كانت تُناقشني وتضحك معي كصديق، زاد ذلك من حُبي للقراءة.

أسرني الكتاب منذ العهد الأول، وأخذتني القراءة إلى عالمها المسحور منذ الطفولة المُبكرة. حين عدنا مع أبي من مصر عام 1980م (كنتُ في سن الثامنة من عمري)، بدأتُ آكل ما أقرأ على الحقيقة، التهام مع شغف مع احتراق داخلي، صار الهروب إلى الكتاب مُتعتي السرية، لم يكن هناك ما يُلهيني عنه سوى درَّاجتي واللعب مع أطفال القرية.

قرأتُ قبل العاشرة ما كتب (كامل كيلاني) و(أحمد عطية الإبراشي) للأطفال. قرأتُ سلسلة قصص الأنبياء لعبد الحميد جودة السحار. كنتُ أقرأ كلَّ شيء. أبي كان أستاذي في هذا، كان يقول: «اقرأ دون قيود». كان لأبي طرق ذكية في تحبيبي بالقراءة، وبناء علاقة رومانسية مع الكتاب.

عندما كنتُ أعود من المدرسة، وقبل أن أتناول طعام الغداء، كنت أقصد مكتبة أبي. سنوات المدرسة قضيتها في قراءة كل ما أستطيع الوصول إليه، وكان كثيرًا جدًّا. فيكفي أنهُ كانت تحت يدي مكتبة أبي، وكان تعداد كتبها أكثر من ثلاثة آلاف كتاب!

لقد شكَّلت مكتبة أبي الضخمة الأساس الأول لثقافتي. كانت القراءة توسِّع الفارق الذهني والشعوري بيني وبين أقراني، وتجعلني أشعر بالتفرُّد. القراءة زادت من وعيي.

س: بما أن القراءة مهمة، لماذا إذن يشكو الكثيرون من القراءة، وأنهم إذا أمسكوا كتابًا ليقرءوه شعروا بالملل؟!

جـ: القراءة فن، فن مُكتسب. القراءة حرفة يُمكن اكتسابها، وتغذيتها. القراءة كالرياضة تحتاج إلى لياقة حتى تُثمر وتُؤتي أُكُلَها.

س: كيف القراءة مثل الرياضة؟!

حين تركض مائة متر ربما تلهث في البداية، تُفكِّر بألا تعود إلى الركض مرة أخرى، تقسم أن المسافة طويلة، وأنَّ طاقتك لا تتحمل! والقراءة حالة مُشابهة، تُمسك بالكتاب بين يديك، ربما ترميه خلف ظهرك بعد ربع ساعة، تقول: أشعر بالنعاس كلَّما قرأت، لا أفهم شيئًا! هذا شعور مَن لا يملك اللياقة في القراءة.

س: وما الحلُّ في مثل هذه الحالة التي يشتكي منها الكثيرون؟

جـ: الصبر حلٌّ لأولئك الذين يستعجلون النتائج. لا يُمكن أن تقطف الثمرة حال غرس البذرة. الذين يشعرون بالملل من أول كتاب قرءوه عليهم أن يُقاوموا هذا الملل بالتصميم على المتابعة، فحين يُكْرِه

الإنسانُ نفسَه على ما لا تشتهي في البداية، ستأتيه هذه النفس ـ في النهاية ـ بما يشتهي.

س: ماذا تعني لك القراءة؟

جـ: القراءة إجابة سؤال الوجود. إن في الوجود أسئلة كبرى تظلُّ معلَّقة لا يُنزلها من علیائها غير القراءة. القراءة إجابة ما لا يستطيع العقل الإجابة عنه، فللروح إجاباتها وأسئلتها كذلك.

س: هل كل القُراء يقرءون لنفس الغاية؟

جـ: بالتأكيد لا، هناك من يقرأ من أجل المتعة، وهناك من يقرأ من أجل أن يُنمِّي عقله وفكره وقدراته، ويرتقي بها.

س: أيهما أفضل برأيك؟

جـ: من يقرأ لأجل المتعة، تكون القراءة عنده وسيلة للاستمتاع. برأيي أن النوعين مطلوبان معًا؛ نقرأ لنستمتع، ولكي نصل إلى ما نُريد.

س: هل تعتقد أن جيلك الذي نشأت فيه يقرأ أكثر من جيل اليوم؟

جـ: جيلي ـ جيلي التسعينيات ـ لم يكن أغلبه قارئًا، بل كان من اللافت للنظر أن ترى أحدهم يصعد الباص وفي يديه كتابٌ يقرؤه. كان ذلك الأمر مستهجنًا إلى حدٍّ ما. بالنسبة لجيل اليوم، أعتقد أن ملهياته عن القراءة أكثر من جيلي، ولكنه ـ للحقيقة ـ يقرأ أكثر من جيلي.

س: ما الأسباب التي جعلتك تعتقد بصحة هذا الرأي؟!

جـ: ربما أعزو السبب إلى وجود وسائل التواصل الحديثة وشبكات التواصل الاجتماعي، التي عرَّفت هذا الجيل بتجارب القُرَّاء في الغرب وأمريكا، فنوادي القراءة هي موضة انتقلت من الغرب إلينا، بسبب الانفتاح على الآخر الذي وفَّرته وسائل التكنولوجيا الحديثة.

س: برأيك ما هو السبب في عزوف كثير من الشباب عن القراءة لدى الجيل الحالي وجيلك (جيل التسعينيات)؟

جـ: أهم الأسباب هو الثقافة الاجتماعية التي ليس في قاموسها فكرة أنَّ القراءة مثل الخبز والماء لا يُمكن الاستغناء عنها؛ هذه الفكرة أشد وضوحًا وتطبيقًا في الغرب، إنها إذن ثقافة مجتمع. نحن نحمل ـ بالأعم الأغلب ـ ثقافة مُغايرة، ثقافة فحواها: وماذا سأستفيد لو فتحتُ كتابًا؟!

س: ماذا سنجني لو استطعنا جعل الجيل قارئًا شغوفًا بالكتب؟!

جـ: حين تصبح ثقافة تنشئة النشء والجيل على القراءة مثل تنشئتهم على الطعام والشراب؛ عندها سنصبح قادة. وممَّا لا شك فيه، أنَّ القادة هم القُرَّاء؛ اقرأ تكنْ قائدًا، فالقراءة مصباح الدجى، ومنارة الطريق، وهادية الظلمات.

س: هل للمدارس دَور في تحبيب القراءة؟!

إنني أقول: إن نجاح المدارس في أوطاننا العربية كلها إنما يكون بمكتباتها وتحبيب طلبتها في القراءة. إن سلوك سبيل القراءة لجيل يتربَّى على ذلك، لا يُمكن أن يُفضي بأوطان هذا الجيل إلَّا إلى النهضة والرقيِّ.

س: لو سألك أحدهم وقال: الحياة طبيعية بدون قراءة، ها نحن نعيش، نعمل، نأكل، نموت، ما حاجتنا إلى القراءة؟! ما الذي سينقصنا إن لم نقرأ؟! وما الذي ستُضيفه القراءة إلينا؟ بماذا تُجيبهُ؟!

جـ: طرحتُ هذا السؤال على نفسي منذ ولجتُ عالم القراءة. لكن السؤال الذي يبدو لي منطقيًّا أكثر: لماذا لا نُدمن القراءة؟! لأن بالقراءة يعيش الإنسان أكثر من حياة كما قال (العقاد).

س: لماذا أنت شغوف هكذا بالقراءة؟!

أنا أقرأ لأنَّ العالم الذي أعيش فيه يعجُّ بالفوضى واللامنطق. الكتاب يجعلني أعيش عالمه، حتى لو كان خياليًّا، يبدو أكثر منطقية من واقعنا المريض.

أنا أقرأ لأنَّ لديَّ في اليوم أربعًا وعشرين ساعة فحسب، وإن لم أقرأ، فستستمر الحياة بالضياع، وستتدفق باتِّجاه الخواء.

أنا أقرأ لأن التجربة علَّمتني أنَّ وقت القراءة هو الوقت المكتسب وما سواه ضائعٌ أو أكثرهُ يذهب سدى وبلا طائل.

أنا أقرأ لأنَّ التجربة علَّمتني أن أرقى المتع الحسية هي تلك التي تخلو فيها إلى كتاب يتجاوز حدود الزمان والمكان.

أنا أقرأ لأنَّ لي عينين أرى بهما عالمي المحسوس الذي يبدو مُتناهيًا في الصغر، والكتاب له آلاف العيون التي تفتح النوافذ على عوالم متناهية.

أنا أقرأ لأنني أريد أن أتخلَّص من بعض الحماقات التي أرتكبها أحيانًا، أريد أن أتخلى عن بعض السذاجات التي توقعنا فيها الحياة.

أنا أقرأ لأن الكتاب أفضل من كثير من البشر، أكثر حكمةً منهم، أشد وفاءً، وأصدق لهجة.

أنا أقرأ لكي أكون حُرًّا في زمن العبودية المعرفية والتبعية الفكرية.

أنا أقرأ لأنني أحببتُ أن أحرِّك الماء الراكد في بُحيرة عقلي.

أنا أقرأ لكي أُشفى من الجمود والفجاجة والتقديس والعزلة البائسة واليأس والتعصُّب والعمى والكبت والجموع.

أنا أقرأ....

س: وهنا قاطعته وقلت: يبدو أننا لن ننتهي من كلامك الجميل حول القراءة، فنحن نتحدث مع عاشق من عُشاق القراءة. يقولون إن لديك مكتبة ضخمة، صحيح؟

جـ: نعم، فموضوع القراءة يستهويني كثيرًا ولا أشبع من الحديث عنه. إنني واحد من الذين عاشوا في الكتب وبين الكتب ومن أجل الكتب لأكثر من أربعين عامًا. ولو أردتُ أن أُعرف نفسي باختصار، فسأقول: «أنا كتب تمشي». مكتبتي اليوم[11] تحوي أكثر من خمسين ألف كتاب موزعة على العلوم والمعارف الإنسانية كلها!

س: ما شاء اللّه، عدد ضخم جدًّا! ألم تجد معارضة من زوجتك على إنفاقك هذه الأموال في شراء كل هذه الكتب؟!

جـ: لم تكن زوجتي تعترض على المال الذي أُنفقه على الكتب أكثر مما أُنفقه على البيت، إنها تعرف أنني مريضٌ جيد، وأن المرض بالكتب من أجمل الأمراض التي يُمكن أن يكون غَض المرأة الطرف عنها إذا وجدتهُ في زوجها يزيدهُ جمالًا.

س: ماذا تُجيب على مَن يسألك: هل لديك الوقت لقراءة كل هذه الكتب؟! وإذا لم تستطع، فلماذا اشتريت كلَّ هذه الأعداد الكثيرة والعُمر قصير؟!

جـ: حين يزورني بعضهم يقف مندهشًا: «هل قرأت هذه الكتب كلها؟!» بِمَ يمكنني أن أُجيب؟ لا أدري، كثير من هذه الكتب مراجع، لكن ليس بالضرورة أن أكون قرأتها من ألفها إلى يائها.

كتب أخرى لا أنوي قراءتها وليست في المجال الذي أُفضله، ولكنني جمعتها بهوس لا يُفسَّر؛ على أمل أن تتحول مكتبتي إلى مكتبة عامة ويستفيد منها الآخرون الذين فكرتُ أن مزاجهم ليسَ شرطًا أن يكون على قِياس مزاجي.

نوع ثالث جمعته على أمل أن أقرأه ولم أفعل. نوع رابع جمعته في موضوع معيَّن لأنني أُريد أن أكتب فيه، ولم أقرأها حتى الآن، لأنني لم أبدأ الكتابة في الموضوع بعدُ. ونوع خامس هو الكتب القديمة التي جمعتها في فنون أعرف أنني لن أقرأ فيها، لكن قِدَمها هو الطعم الذي ابتلعتهُ لشرائها.

س: هل وضعت خطة لمصير مكتبتك بعد موتك ـ بعد عمر طويل ـ إن شاء الله؟

جـ: أرجو أن تُصبح وَقْفًا، وعِلمًا يُنتفع به، وصدقة جاريةً عن روحي بعد أن أُوارى الثرى بإذن اللّه تعالى. ولا أريد أن تئول مكتبتي إلى ما آلت إليه مكتبة الإمام (ابن القيم) الذي قال عنه الإمام (ابن حجر) أنه كان مُغرًى بجمع الكتب فحصَّل منها ما لا يُحصى، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرًا طويلًا سوى ما اصطفَوه منها لأنفسهم.

س: ما هو الوقت المُفضَّل لديك للقراءة؟

جـ: أنا أميل للقراءة في الليل، والكتابة في الصباح.

س: هل تُخبرنا من هم كُتَّابك المفضلون أو أفضل كتاب قرأته؟!

جـ: حين يسألني أحدهم: «ما هو أهم كتاب قرأته؟ أو ما هو أكثر كتاب أثَّر في نفسك؟» أجد السؤال صعبًا وساذجًا في الوقت نفسه.

س: لماذا؟

جـ: لأنه لا يحمل إجابة واحدة أو محددة. الطبيعي أن أقول إنهُ في كل مرحلة عمرية من حياتي كانت هناك كتبٌ مفضلة لديَّ وكان تأثيرها طاغيًا، لكن بأفول تلك المرحلة أفلت معها شمسها. الحقيقة أنهُ لديَّ في كل مرحلة شمس مختلفة.

س: لو سألك أحدهم: تنصحني أن أقرأ لمن؟ بماذا تُجيبه؟

جـ: اقرأ لمن شئت. الذين يُحذرونك من كاتب أو كتاب يُبالغون في ذلك. الطريقة الصحيحة: اقرأ لهذا الكاتب واحكم بنفسك. والقاعدة: لا تُعِرْ عقلك لألسنة الناس، فإن هذه الإعارة أسوأ أنواع الجهل، وأفدح الخسارات التي يُمكن أن يُمنى بها الإنسان في حياته.

س: بماذا تُجيب مَن يقول إن قراءة الروايات مضيعة للوقت؟!

جـ: هذا وهم انطلى على الكثيرين. القصص أقدم الفنون الإنسانية، وأقربها إلى النفس البشرية، والكتب السماوية الثلاثة ذهبت إلى استخدام القصة استخدامًا طاغيًا، إلى الحد الذي يُمكن أن يُشكِّل أكثر من ثلث القرآن، وأكثر من ثلاثة أرباع التوراة، والإنجيل كله!

فهي تروي جميعًا قصص الأنبياء، وقصص الطغاة، وأناس صالحين، وآخرين أشرار.. فمن أين جاءت إذن هذه النظرة السلبية في قراءة الروايات؟!

ثم لا شك أنَّ أي عمل تقرؤه يمكن أن يكون مضيعة للوقت، سواء أكان هذا العمل كتابًا في الفكر أو الاقتصاد أو السياسة أو الشعر، هذا ليس متعلقًا بفنِّ الرواية فقط. المعول عليه هو: ما الذي خرجت به من قراءة هذا الكتاب؟ وكم من كتاب كُتب في الفلسفة ليس له من الفلسفة إلا اسمه، وقِس على ذلك الكثير.

س: جميل، هل تذكر لنا فوائد قراءة الروايات؟

جـ: الرواية التي تُغيِّرك خيرٌ من الكتاب الذي يختبئ خلف ظلال الفِكر أو العقيدة، ويستظل بمظلة الدين ولا يُغير فيك شيئًا لسطحيته وسذاجته. الرواية تتميز بقدرتها على إشباع الفضول الغريزي عند الإنسان في الاستماع إلى الحكايات والأساطير، بكل ما فيها من غموض وتشويق.

الرواية تستطيع أن تلعب بمشاعر القارئ، بل وتستحوذ عليها. الرواية قادرة على أن تهرب بك بعيدًا عن الحروب والكوارث والآلام والأوجاع. لن تجد أفضل من الرواية تجعلك تعيش التفاصيل في قضايا الفرد والمجتمع.

الرواية أفضل جنس أدبي يُدخلك في عالمه المسحور. الرواية تُخفِّف من هموم الحياة المُهلكة، التي تأتي من اللهاث وراء لقمة الخبز، وتُراكم ــ هذه الهموم ــ الضيق النفسي والخبث الروحي.

س: لكن ألا تلاحظ أنَّ الأغلب صار يكتب في فن الرواية، حتى لو لم يكن يملك أدواتها الفنية التي تؤهله لكتابتها؟!

جـ: إنني لا أُنكر أنَّ هذه الموجة الطاغية، ركبها الهواة، واستغلَّها المغامرون وقليلو الباع في كل شيء، فخرجوا لنا بأعمال رديئة فِجَّة، وُلدت ميتة؛ فأنى لها أن تعيش؟! لغتها ركيكة خاليةٍ من المعنى، تزيد خبالًا على خبال. سرد بارد. أنا لا أتحدث عن هذه الأعمال، فضلًا عن أن أقيم لها وزنًا من الأساس؟!

إني أتحدث عن الرواية الناضجة، الرواية التي أتمَّت شهورها كاملة في رحم المعاناة وخرجت لنا شهية، طافحة بالحياة، مكتنزة بالمعرفة. هذا النوع من الروايات قراءته ليس مضيعة للوقت.

س: ما هو تعريفك للكتاب الجيد؟

جـ: الكتاب الجيد ذلك الذي يجعلك تخرج منه إنسانًا آخر، يُحوِّل مجرى النهر الذي كان يسير برتابة في أعماقك! وكل كتاب جيِّد تقرؤه هو منديل يمسح جزءًا من الغشاوة على المرآة التي تقف أمامها لترى نفسك.

س: ما هي أبشع جريمة من وجهة نظرك؟!

جـ: أبشع جريمة يُمكن أن يرتكبها الإنسان هي حرق كتاب، إن قتل نفس بشرية أهون عندي من حرق كتاب؛ لأنَّ قتل النفس يمكن إحياؤها بقتل القاتل، أما حرق الكتاب، فهو حرق لكلِّ الأرواح التي أسهمت في إخراجه إلى حيِّز الوجود، وهو إعدام للمعرفة التي تقتل من ورائها جيلًا بأتمه أو بأكمله بالجهل[12].

س: ما رأيك في مستقبل الكتاب الورقي؟ وكيف ترى الأمر؟!

جـ: في الحقيقة إن أكثر نظرة متفائلة إلى الكتاب الورقي تقول إنهُ لن يصمد أكثر من بضعة عقود، وإن النسخة الضوئية أو المرئية أو الإلكترونية ستحل محله، كما حلَّ كل جيل من الهواتف محلَّ الجيل الذي سبقه.

س: وهل ترى هذا التحول أمرًا سلبيًّا؟!

إنَّ أهم نقطة هي تقبُّل التغيير والإفادة منه، والمعول عليه القراءة لا الوسيلة، والمعول عليه الكتاب، لا الصورة التي ظهر عليها الكتاب. وإذن فالأمر لم يتغيَّر البتة، فالإنسان عليه في النهاية أن يقرأ، والقراءة لا تكون إلَّا من كتاب، لكن وسيلة القراءة تختلف، وصورة الكتاب كذلك تختلف.

أما الشيء الذي لن يختلف أبدًا، فهو أن حضارته وتقدمه وتطوره ووسائله لن تكون إلا عبر هذين الممرين الحتميين؛ وهما: القراءة والكتاب.

س: بماذا تختم حوارك؟

جـ: إن القراءة تُنتج مُجتمعًا حيًّا، مجتمعًا مُتحررًا من القيود الثقيلة التي تُكبِّله وتهوي به في قاع الجهل والتخلُّف والعبودية، ولقد قالوا: «أمة تقرأ لا تجوع ولا تُستعبد».

هنا نظرتُ لساعتي لأرى كم مضى على حوارنا من وقت. تعجبتُ حين وجدتها تُشير إلى الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل! يا إلهي كيف مضى هذا الوقت الطويل؟! لم أشعر بتاتًا.

هنا اعتذرتُ للروائي (أيمن العتوم) على الإطالة. فودعني ثم رحل.

اللورد أفبري

مرَّ أسبوعان عليَّ بحياة روتينية عادية جدًّا، لا جديد فيها؛ عمل، انشغالات الأسرة، قراءة.. كتابة منشورات في حساباتي على التواصل الاجتماعي.. لم يحدث أيُّ جديد خلال هذين الأسبوعين.

نرغب أحيانًا في التجديد وكسر الروتين، فقط لنشتاق من جديد له. يحدث ذلك عندما نُسافر لأكثر من أسبوع، نتلهَّف للرجوع والعودة لنظام حياتنا الذي ألِفناه. لكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك دائمًا.

ارتباطات وأمورٌ كثيرة تمنعنا من ذلك!

دخلتُ غرفة القراءة منهكًا بعد يوم عمل طويل لأستريح. جلستُ أتأمَّل في هذه الكتب الكثيرة وأتأمَّل الحياةَ والعالم الذي نعيشه. بدأتُ أسال نفسي: لماذا الكتب؟! لماذا القراءة؟! ما الذي نُريد أن نفعله معها في حياتنا القصيرة على هذا الكوكب؟!

لم يقطع عليَّ أفكاري سوى الكاتب والفيلسوف الإنجليزي الشهير (اللورد أفبري) (1834 – 1913م)، وبيده مجموعة من كتبه، تعرفتُ على اثنين منها، وهما: (معنى الحياة)، و(السلام والسعادة). بدأني بالسؤال: بماذا تُفكِّر؟! لماذا كلُّ هذه الحيرة البادية على وجهك؟! فقلتُ له: في الكتب والقراءة. قال لي: اسألني ما بدا لك عنهما. فقلتُ: هيا إذن.

س: كيف نطلب المعرفة؟

جـ: اطلب المعرفة من الكتب؛ فإن في الكتب حكمة العالم.

س: لماذا الكتب بالذات؟

جـ: منذ خمسمائة سنة قال أحد كبرائنا الأسقف (ريتشارد بري) في وصف الكتب: «هي الأساتذة التي تُعلمنا بدون عصا، بدون حدَّة ولا كلمات خشنة، بدون أجرة ولا مكافأة. تأتيها أنَّى شئت فلا تجدها نائمة، تستفهمها وتسائلها فيما تهمك معرفته، فلا تضنُّ عليك بما عندها ولا تُخفيه عنك، تُخطِّئها وتُناقضها، فلا تتبرَّم بك ولا تحقد عليك. وإذا كنتَ جاهلًا فلا تضحك منك ولا تسخر بك».

س: جميل، يعني الجامعة الحقيقية هي الكتب كما يقول (توماس كارليل)!

جـ: المكتبة هي كل الغِنى، ولا شيء يُضاهيها أو يُساويها. ومن ابتغى الحكمة والحقائق وطلب السعادة، فليعشَقِ الكتبَ ويُولعْ بالمطالعة. ما أجمل وأرخص وأنفس الكتب!

س: يعني أنت ممَّن يشجِّع المجتمع بكافة أطيافه على القراءة؟

جـ: ساعات العمل قد أخذت تقلُّ من آونة إلى أُخرى، وباتت تتيسَّر أوقات الفراغ شيئًا فشيئًا لتلك الطبقة الوسطى والسفلى من الشعب. كيف يُعوِّضون قِلَّة مخالطتهم للناس إن لم يكن بقراءة الكتب؟!

أودُّ لو تقوم الحكومة بإنشاء مكاتب وفتح غرف القراءة، فهذا من شأنه جعل أبناء وطننا أصدق وطنية، وأتم استعدادًا لخدمة الوطن.

س: لماذا الطبقتان الآنفتا الذكر من الأفضل لهما أن يقضيا أوقاتهما في القراءة؟

جـ: لأنَّ ذوي الحرف والمهن البسيطة كالنجَّار والعامل وأمثالهما لَفِي أشدِّ الحاجة إلى ما يدفعون به شياطين الملل والضجر. وعندي التردُّد على المكاتب وورود مصادر الأخبار والروايات والمعاني على اختلافها، خير ما يدفع الضجر ويُجدِّد القوى في مثل هؤلاء المجتهدين المعانين أتعاب العمل.

وكذلك نخشى على العمَّال الذين لا يعرفون إلا آلةً من آلات المعمل الكبير الحاوي الألوفَ منهم، يُخشى عليهم مع مرور الزمن أن يصيروا هم أنفسهم آلاتٍ حيةً لا أكثر، فلا نفوسهم تسمو ولا عقولهم ترقى!

ولنذكر دائمًا أنَّ أوقات الفراغ مصدر خير وبركة، فما الأولى العمل بها؟ ليس أفضل من تعبئة ذلك الفراغ بمُطالعة الواحد منهم ما يُناسب ذوقه ومداركه.

س: الكتب عندك لها قيمة عالية جدًّا!

جـ: ما أحسن الكتب! إنها تسدُّ كلَّ عوز، والقراءة والمطالعة غنى وافر، وثروة عظيمة. الكتب أحسن تسليةً وأحسن معزٍّ لنفوس اليائسين البائسين. قال الفلكي والكيميائي (جون هرشل) ــ وهو أحد أساطين العلم ــ: «لو قمتُ أصلِّي من أجل موهبة تكفيني مئونة تقلبات الظروف وتبدُّلات الأحوال، وتكون نبع سعادة وسرور لا ينضب، وعدَّةً لي أتَّقي بها سهام الأيام، ودواءً يشفيني من كل سقام، لكانت تلك الموهبة محبَّة الكتب والرغبة في المُطالعة».

س: يا سلام! زدني مقولة أخرى لعظيم عن أهمية الكتب والقراءة؟

جـ: قال الشاعر (جلون مِلتون): «الكتب ليست جمادًا، بل أجسام ذات حياة هي حياة مؤلفيها والمذكورين فيها». كيف لا يعيش سعيدًا من يُطالع ويباحث أرباب الأفكار الثاقبة، ويتفهَّم روايات المؤرخين، ويُجاري الشعراء في خواطرهم؟ إنهُ يعيش مع صفوة من الناس، وإذا سألته يُخبرك أنَّ من الكتب ابن كل عصر سالف، وصديق لكلِّ ذي عقل راجح، وأنَّ العالم بماضيه وحاضره مَشاهد يُعاينها بعين النفس. وهل أعظم من هذا؟!

س: كيف تكون قراءاتنا مُجدية؟

جـ: لكيما تأتي بك المُطالعة إلى الغرض المقصود، يجب أن تكون سبرًا لِغَوْر المعاني المرادة بالعبارات كعبارات، وبالقطع كقطع. القراءة السطحية قلَّما تفيد إن لم نقل إنها تضر.

س: كيف تضرُّ القراءة السطحية؟

جـ: وجه الضرر أنها تُوهم القارئَ أنهُ قد علم أكثر ممَّا علم حقيقةً. على القارئ أن يتبيَّن تمام المقصود بكلِّ كلمة، ويدرك الغاية المَرْمِيَّ إليها بكل جملة، وعليه أن يتشرَّب روح الكاتب، ويقرأ

خلال سطوره، بحيث يتصوَّر لنفسه الموصوفات أو موضوع الكلام كائنًا ما يكون تصورًا جليًّا لا غبار عليه.

علينا أن نقرأ الكتاب، مقرِّين النيةَ على ألَّا نفرغ منه، ونحن كما كنَّا قبل قراءته. أو بتعبير آخر، لنُطالع بقصد الاستفادة، لا بقصد التسلية. ولا يُفهم من هذا أنهُ لا يجوز قطعيًّا الترويح عن النفس بقراءة الكتب الفكاهية، فإنَّ لها قيمة لا تُنكر. إنَّما لنُذكر أنَّ المُطالعة شيءٌ، ومجرَّد تقليب الصفحات شيء آخر.

س: هل تختصر علينا الكتب تجارب الحياة؟

جـ: يفيد الدرس (أقصد القراءة) في سنة واحدة قدر ما تفيد التجارب وتكسب الاختبارات في عشرين سنة، والحصول على الحكمة من الغير بأيسر الطرق. فلله نعمة المُطالعة التي تُمكِّنك من معرفة كلِّ حركة وما يعقبها من السكون، وكل سكون وما وراءه من الحركة، فتكون على بصيرة من حركاتك وسكناتك!

س: ماذا نقرأ من الكتب؟

جـ: قراءة تراجم الكبار، وسِيَر مَنِ امتازوا أو تفرَّدوا بصفة من الصفات، هي خير ما يُقرأ، خصوصًا للناشئين. ومن هذا القبيل الروايات القليلة المؤلَّفة بقصد نبيل، فإنها من جملة ما تحسن مُطالعته وتفيد.

س: هل تنصحنا بقراءة أي كتاب أو اختيار كتب معينة؟

جـ: الكتب كالناس، فمنها الصالح ومنها الطالح. اختيار الكتب كاختيار الأصدقاء، أمر هامٌّ وخطير. ونحن مسئولون عمَّا نقرأ مثلما عمَّا نفعل. وعلينا أن نصطفي الكتب المناسبة لنا اصطفاءً.

س: بماذا تنصح مَن يقرأ الكتب السهلة فقط ويستثقل قراءة الكتب الدسمة المفيدة؟

جـ: الكتب السهلة المُسلية تَلزمنا قراءتها بقدر ما يلزم السكَّر والحلويات بمقابلة أصناف الطعام الضرورية للتغذية.

س: العيش مع الكتب سعادة! هل تتفق مع هذا الكلام؟

جـ: نعم أتفق تمامًا، وقد كتب مرَّة الكاتب التاريخي الشهير (لورد ماكولي) رسالة إلى بنت صغيرة أهدته كتابًا: «لا شيء يسرني أكثر من أن أرى بُنيَّتي العزيزة مولعة بالكتب؛ لأنها عندما تصير طاعنة في السنِّ مثلي، لا تعود تهمها المأكولات والحلويات، فتجد في القراءة أحسن سلوة، وآسر لعبة، وأبهج منظر. وأنا لو قدموا لي أن أصير ملكًا بتاج على رأسي، وقصر فخيم أسكن فيه، ومآكل

ومشارب فاخرة، وملابس مزخرفة، وجنائن، وعربات وخيول، ومئات الخدم، لكن بدون كتب أقرؤُها، فإني أرفض أن أكون ملكًا؛ لأنني أفضل المسكين الساكن في كوخ صغير يقرأ ما لديه من الكتب، على الملك الذي لا يُحب المُطالعة».

س: كلام رائع وأتَّفق مع (ماكولي)، وأُريد أن أسألك...

وهنا تلفَّتُّ فلم أجد (اللورد أفبري)! يبدو أنهُ حدث له أمر طارئ جعله يذهب دون أن يستأذن مني. لقد كان حوارًا ماتعًا مفيدًا، وودتُ أنهُ لم ينتهِ. لكن ماذا أفعل وقد اختفى دون أن يُعلمني بذلك؟!

د. عبد الكريم بكار

دخلتُ مكتبتي وقعدتُ لأكتب، فجأة جاءني سؤال في عقلي يقول: من أكثر المُفكرين ـ من الذين قرأت لهم ـ يُشجِّع على القراءة ولا يملُّ من ذلك؟ حيثُ تجده في أغلب كتبه يُثني عليها ويذكر محاسنها؟ تلفتُّ لأبحث في مكتبتي جوابًا لهذا السؤال. وإذا بي أتفاجأ بوجود المُفكر (أ. د. عبد الكريم بكَّار) في مكتبتي. وقلتُ لنفسي: لا حاجة لي لأبحث، إنه (د. عبد الكريم بكار)، كاتب غزير الإنتاج، والذي دائمًا ما يتطرق للحديث عن القراءة في كتبه.

سلمتُ عليه وأنا أشعر بفرحة غامرة. فرد عليَّ السلام، وقد رأيته أخذ من مكتبتي كتابه (ثقافة الشباب) وقام بتصفحه. قلتُ له: دكتور، بالأمس اقتنيت ثلاثةً من كتبك الجديدة التي صدرت حديثًا من دار القلم. قال لي: وما هي عناوين هذه الكتب؟ لأني أصدر كتبًا كثيرة باستمرار! قلتُ له: (كيف تُحقق نجاحك وتستمتع بالرحلة؟)، و(في النقد الذاتي)، و(التعايش ووباء التعصب الطائفي). قال لي: جميل، أرجو أن تكون نافعة لمن يقرؤها! فرددتُ عليه: لا شك في ذلك.

وهنا طلبت من الدكتور ـ إن كان وقته يسمح ـ بأن أحاوره في القراءة، حيث لديَّ بعض الأسئلة نحوها. فقال لي: بكل سرور.

س: لماذا هذا التركيز الشديد على القراءة؟

جـ: الأمم التي تعرف أكثر وتقرأ أكثر، هي التي تُبدع اليوم، وهي التي تخترع، وهي التي تصنع، وهي التي تُهيمن على العالم.

س: ترى أن عزوف الأفراد في المجتمع عن القراءة يُعد مشكلة كبيرة؟

جـ: أنا أعدُّها من أكثر القضايا العامَّة حيوية، وأعتقد ـ بصدق ـ أنها لا تقلُّ أهميةً عن مسألة البطالة، أو إدمان المخدرات، أو الطلاق، وغيرها.

س: لماذا؟

جـ: لأن الجهل سبب كلَ علّة. ربما كان إدمان المخدرات بسبب الجهل. ربما كانت البطالة بسبب الجهل. ربما كانت الجريمة بسبب الجهل. والمفتاح لحلِّ كل هذه المشكلات هو العلم.

س: جميل. ألا يُغني الذكاء عن القراءة؟

جـ: كثيرون منَّا لا يعرفون أنَّ العقل هو أشبه بالطاحون أو بالرحى. إنَّ الرحى مهما كانت جيدة، فإنَّ دورانها لا يعني أيَّ شيء إذا لم تضع فيها بعض الحبوب. والعقل أشبه شيء بالحاسوب، فإذا لم تضع فيه برامج، فإنَّ عمله سيكون محدودًا جدًّا.

س: معنى ذلك لا بدَّ من جعل القراءة عادة يومية لازمة لنا؟

جـ: أكبر تحدٍّ يواجهنا جميعًا، وشبابنا على وجه خاص، هو العمل الدءوب من أجل جعل القراءة جزءًا مهمًّا من سلوكنا ونشاطنا اليومي. وكما أنَّ هناك سلوكيات ثابتة في نشاطنا اليومي، ينبغي أن تكون القراءة والاطلاع من تلك السلوكيات والأنشطة اليومية، وهو جزء مهمٌّ وخطير.

س: بعضهم يقول القراءة غير مهمة؟

جـ: غير صحيح. القراءة مهمَّة لكلِّ جوانب الحياة. ولا أبالغ إن قلتُ إنَّ فهم الإسلام على نحو صحيح، وعلى نحو جيِّد لا يتمُّ مع الجهل، ولا يستقيم تديُّن والْتزام وتمسُّك صحيح من غير علم صحيح، ولم أرَ في حياتي أبدًا تديُّنًا ممتازًا جيِّدًا مع جهل، فهما لا يجتمعان، فلا يُمكن أن يجتمع أبدًا تديُّن عميق والتزام قويٌّ بتعاليم الشريعة الغرَّاء مع جهل عام.

س: ألا تُغني وسائل التثقيف الحديثة عن الكتاب والقراءة؟

جـ: لا شكَّ أنَّ الكتاب ما يزال أفضل مصدر للتثقيف، وإغناء الثروة المعلوماتية لدى الإنسان، وما زالت القراءة الجادَّة والمنظّمة والعميقة أفضل مورد لبناء ثقافة شخصية واعية ومتخصصة وراقية. ولهذا، فإنَّ علينا أن نجعلها في بؤرة اهتمامنا.

س: كيف ترى واقع القراءة اليوم؟

جـ: إن أحوال القراءة لدينا ليست شيئًا يدفع إلى الأمل وإلى الاستبشار وإلى السرور. فأحوال القراءة لدينا لا تتقدَّم، بل إنها في أوضاع كثيرة وفي حالات كثيرة تتراجع وتتأخَّر! فقد تدنَّت نسبة القُرَّاء لدينا إلى حدود مخيفة.

س: وما هو شعورك نحو ذلك، وأين يصرف الشباب أوقاتهم إذن؟

جـ: أشعر بالأسى. وسائل التواصل خَطفت كثيرًا من شبابنا للتحديق في (الجوال) ساعات طويلة دون الحصول على شيء معرفي ذي قيمة.

س: كيف نَرجع حُبَّ القراءة لدى الجيل؟

جـ: قام أحد الباحثين بدراسة عن وضعية القراءة لدى الشباب في دول الخليج، وقد تبيَّن له أن 35% من العيِّنة الممسوحة أقرُّوا بأنَّ المجتمع الذين يعيشون فيه لا يهتمُّ كثيرًا بالقراءة الحرة!

الأطفال والفتيان والشباب لا يحتاجون إلى الموعظة حتى يُصبح الكتاب صديقًا لهم، وتُصبح القراءة جزءًا من نشاطهم اليومي، فالموعظة وحدها لا تصنع شيئًا. يحتاجون إلى الجوِّ والبيئة، ويحتاجون إلى القدوة. فإذا كان الطفل لا يرى والدته تُمسك كتابًا ولا مجلة ولا قصة ولا رواية، وينظر إلى أبيه فيجده كذلك مُعرضًا عن الكتاب! وينظر إلى البيت فلا يجد فيه أي شيء يُمكن أن يُقرأ! فما الفائدة إذا قلنا له: (اقرأ)، ونحن لا نقرأ أمامه؟!

هنا سيقول في عقله الباطن: أسرتي تنصحني بالقراءة، ولو كانت القراءة مهمة إلى الدرجة التي يتحدث عنها أبي، أو تتحدث عنها أمي، إذن لكانت هي تقرأ وتهتم، وكان هو أيضًا يقرأ ويهتم!

س: كيف نجعل القراءة عادة يومية لنا؟

جـ: حسب تجربتي الشخصية: إنَّ أنسب الطرق هو إلزام النفس بالقراءة يوميًّا مدَّة لا تقلُّ عن ساعة، وعلى الشابِّ ألا يترك ما ألزم به نفسه، وعليه ألا يتخلَّى عن ذلك، وألا يفوته ذلك إلا في حالتين: في حالة المرض، وفي حالة السفر. فالمرض والسفر عذران شرعيان في تخفيف الأحكام، وهما أيضًا عذران في التخفُّف من الالتزام تجاه القراءة.

وإذا انشغل الواحد منَّا في يوم من الأيام عن القراءة، فعليه أن يُضاعف وقت القراءة في اليوم التالي، وإلا فلن يستقيم له أمر.

والأمر في هذا موكول إلى الاستمرار والمثابرة، فلدى كثير من الشباب مشكلة في الاستمرار في القراءة، حيثُ تجد أحدهم لا يستمرُّ في القراءة وينقطع عنها للشهر والشهرين والثلاثة! والحلُّ ـ كما ذكرنا ـ بإلزام النفس وعدم عذرها في ذلك.

س: ماذا تقول لمن إذا نصحته بالقراءة، ردَّ عليك قائلًا: نحن مشغولون، وعملنا مُتعب، وعندنا التزامات كثيرة؟

جـ: أقول: هذا غير صحيح، وحين يُدرك الواحد منَّا أنَّ القراءة هي قربة من أعظم القرب إلى اللّه تعالى، وأنَّ التقدم الشخصي يتوقَّف إلى حدٍّ بعيد على المقدار الذي يحصِّله من العلم النافع، فسيجد وقتًا للقراءة.

كما أننا لو حاسبنا أنفسنا على تحركاتنا اليومية غير الضرورية، وعلى الأوقات التي نقطعها في زيارة الأصدقاء، وفي محادثات هاتفية غير مهمة، وفي الجلوس أمام الجوَّال والتلفاز لمشاهدة

برامج لا تنفعنا، لوجدنا أنَّ لدينا الكثير من الأوقات العزيزة التي تضيع، والتي يُمكن استثمارها في القراءة.

س: في أيِّ مجال تنصح الشباب بأن يقرءوا؟

جـ: لا بدَّ لكلِّ شاب من أن يقرأ في كل الحقول التي تُنمي شخصيته. وإن شباب أمتنا في حاجة إلى نوعين من الثقافة: ثقافة عامة، وثقافة متخصصة. فقد مضى الزمان الذي يتكلم فيه المرء في كل شيء ويكون مع ذلك بارعًا عميقًا، ومع التقدم العلمي الكبير، تبرز قيمة المتخصص. والثقافة المتخصصة تعني اهتمام الشاب بفرع من فروع المعرفة على نحو كبير واستثنائي.

س: كم نسبة القراءة في التخصص ينبغي أن تكون؟

جـ: إنَّ من المناسب أن يُقسِّم الشابُّ مطالعته إلى ثلاثة أقسام: 60% للتخصص الذي ارتضاه لنفسه، و20% للثقافة الشرعية، و20% للثقافة العامة.

س: برأيك ما هي مواصفات الكتاب الجيِّد؟

جـ: كثير من الشباب يعتقدون أنَّ الكتاب الجيِّد هو ذلك الذي يُمكن أن نقرأهُ بسرعة، أو يُمكن أن يقرأه قارئه وقد استلقى على ظهره أمام التلفاز، ينظر في الكتاب تارة وينظر إلى التلفاز تارة أخرى!

وأنا لا أوافق على هذه النظرة، بل أعتقد أنَّ الكتاب الجيِّد لا يكشف عن مكنوناته، ولا يُتيح لقارئه انتهاكه، أو استنفاذه على نحو كامل. الكتاب الممتاز والمفيد فعلًا لا يكون كذلك إلا لأنَّ فيه بعض المعاني والتعبيرات التي يستعصي فهمها، ويستعصي استيعابها، ولا يكون جيدًا إلا لأنَّ فيه أشياء جديدة.

س: ما هي مواصفات القارئ الجيِّد من وجهة نظرك؟

جـ: إن القارئ الممتاز ليس القارئ الذي يقرأ كتبًا كثيرة، القارئ الممتاز هو الذي يعرف كيف يختار الكتاب الذي يرتقي به ويتقدَّم عقليًّا من خلال قراءته.

س: كيف؟

جـ: القارئ الممتاز يُفضِّل الكتاب الذي فيه شيء من الصعوبة على الكتاب السهل؛ لأن الكتاب الصعب هو الذي يُحسِّن سوية التفكير لدى قارئه، وليس الكتاب السهل.

س: تعني أنَّ الكتاب الذي فوق مستوانا قليلًا هو الذي يتحدَّانا، ومن ثم يُغير طريقة تفكيرنا؟

جـ: نعم، كتاب نفهمهُ بشيء من المعاناة، وبشيء من التفكير، وبشيء من التدقيق، وبشيء من الرجوع إلى عباراته بين الفينة والأخرى، هذا الكتاب أفضل من كتاب نفهمه من المرة الأولى، ونستوعب كلَّ ما فيه.

س: يشتكي بعض الشباب من ضعف الجانب الروحي لديهم. كيف يستطيع المرء أن يُنمِّي الجانب الروحي عنده؟

جـ: مداومة القراءة ساعة في كتب الرقائق، وكتب تزكية النفوس، والكتب التي تهتم بالجانب السلوكي. وأعني بالمداومة ألا يمر أسبوع إلا ويقرأ في هذا الجانب.

س: هناك مشكلة يُعاني منها كثير من القُرَّاء، وهي النسيان، ويقولون: لماذا نقرأ إذا كنا سننسى كلَّ ما قرأناه بعد ذلك؟

جـ: دلَّت التجربة على أن معظم القُرَّاء ينسون جُلَّ ما قرءوه، ولا يكاد يبقى منه إلا اسم الكتاب مع القليل جدًّا من المضمون.

س: إذن هي مشكلة عامة. ما الحل في رأيك لمواجهة هذا النسيان؟

جـ ينبغي وجود دفتر إلى جانب الكتاب ننقل إليه ما نجده مهمًّا من الأفكار والمقولات التي نطَّلع عليها، وهذا يُعدُّ أمرًا في غاية الأهمية.

س: لماذا في غاية الأهمية؟ للعودة إليه وقراءته وتذكر ما نسيناه؟

جـ: نعم.

س: نصيحة أخيرة؟

جـ: أنا آمل من كلِّ شابٍّ من شبابنا ألا يمرَّ عليه يوم دون أن يقرأ نصف ساعة على الأقل في كتاب جيِّد، فهذا قد يجعله يقرأ في السنة خمسين كتابًا أو أكثر، وهذا غذاء روحي وفكري ليس بالقليل.

وهنا شكرتُ (د. عبد الكريم بكَّار) على هذا الحوار المُثري النافع، والحقيقة أنَّ الحديث معهُ لا يُملُّ، لكنِّي أعلم مدى حرصه على وقته الثمين، فاكتفيت بذلك وودَّعته.

ربيع السملالي

كم أشتاق لمحاورة كثير من الكُتاب الذين أُعجبت بكتاباتهم، خصوصًا القُراء النهمين منهم. القراءة تتضاعف نتائجها وثمارها أكثر إذا اجتمعت معها المحاورة والمناقشة. لكن ـ للأسف ـ صار من

الصعوبة بمكانٍ أن تجد مَن يحاورك فيما قرأت؛ لذلك كم تمنَّيتُ لقاء مؤلَفي بعض الكتب لأناقشهم ما كتبوه وجهًا لوجه.

دخلتُ غرفة القراءة وإذا بي أجد الأديب المغربي (ربيع السملالي) موجودًا هناك وهو يبحث عن كتبه في مكتبتي، أشرتُ له ـ بعد السلام طبعًا ـ أنَّك لن تجدها في الأرفف، إنَّها هنا في مكان قريب من جهازي، تُطالعني وأطالعها عندما أجلس للكتابة أو للقراءة. قلتُ له: كل كتبك ـ ولله الحمد ـ معي: (نبضات قلم)، و(يا بني)، و(زاد الأديب)، و(كيف كانوا يُفكرون؟)، و(تأملات كاتب)، و(ربيعيات)، و(المشوق إلى الأدب).

فقال لي: كم أنا سعيد بوجود كتبي معك! ثم أخبرته بمدى سعادتي لرؤيته وفي شوق للحديث معه. فابتسم لذلك، فأكملت كلامي وقلت: أنتَ قارئ نهم وتملك مكتبة ضخمة وسيكون الحوار معك شائقًا جدًّا. قال لي: أرجو ذلك، فلنبدأ باسم اللّه.

س: ماذا تقول لمن لا يقرأ؟

جـ: تارك الصلاة كافر مُرتد عند كثير من العلماء، وتارك القراءة ما حُكمهُ إذا استحضرنا أمر اللّه ـ عز وجل ـ (اقرأ)؟

س: ماذا تفعل بنا القراءة؟

جـ: القراءة تصنع منك إنسانًا آخر لا علاقة له بسيرتك الأولى. ولو كُنَّا نقضي بين يدي الكتاب نصف الوقت الذي نقضيه بين يدَي الهاتف الذكي؛ لأصبحت أمَّتُنا في مقدمة الأمم.

س: تعني أن القراءة تصنع لنا شخصيات عظيمة؟

جـ: وراء كلِّ رجل عظيم مكتبة.

س: يبدو أن الكتب لا تُفارقك أبدًا؟

جـ: لم أجرب مذ وعيت كيف تكون الحياة بعيدًا عن الكتب! الظاهر أنها ستكون قاسية وبلا معنى! الكتاب عندي كالخبز اليومي، وحين لا يرى أبنائي بين يدي كتابًا يستغربون؛ لأنهم يعرفون أنَّ هناك مشكلة ما!

س: تقصد أنَّ الكتب هي رفقاؤك الدائمون؟

جـ: لم تترك لي القراءة صديقًا ولا حبيبًا ولا أخًا، لقد حالت بيني وبينهم!

س: لماذا تقتني الكتب بكثرة؟

جـ: نحن لا نقتني الكتب لنتزين بها، ولا لنفخر بها على غيرنا، بل نقتنيها لنرفع عن أنفسنا هذا الوصف: [إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] {الأحزاب:72}.

س: يبدو أنك تُفضِّل القراءة بالليل؟

جـ: ثلاث ساعات متتالية من القراءة في سكون الليل، أفضل بكثير من قراءة عشر ساعات في ضجيج النهار، وكلٌّ مُيسَّر لما خُلق له.

س: ماذا تعلمت من الكتب؟

جـ: علَّمتني الكتب أنَّ حماس الإنسان وتسرُّعه في الحكم على الآخرين يبدأ في التلاشي مع تقادم الزمن والإدمان على معاقرة الكتب.

علَّمتني الكتب أنَّ كلَّ حُلم يمكن تحقيقه بشرطين: همَّة عالية، وصبر جميل.

علَّمتني الكتب أنَّ كلَّ عمل نقوم به بلا حُبٍّ يبوء بفشلٍ ذريع.

س: كيف ترى واقع القراءة اليوم؟

جـ: لا أذكر آخر مرَّة رأيتُ فيها مَن يحمل كتابًا بين يديه في الأماكن العامة أو الحافلة أو العيادات، كان ذلك قبل أن تظهر هذه الهواتف الذكية التي أبعدتنا عن أسرنا، وأسرفت في دفعنا عن كتبنا، بل قد جعلت منَّا كائناتٍ تعيش بلا روح تجلس الساعات الطوال عاكفة على هذا العبث!

س: تعني أننا لو استبدلنا أوقات مطالعة الهاتف فيما لا ينفعنا بقراءة كتب لتغيرت أحوالنا؟

جـ: نعم بالضبط، يقول أحدهم: «فإنك كلَّما قرأت فُتحت أمامك آفاق واسعة من المعرفة، والتجارب، والدراية، فكلُّ سطر له معنى، وكلُّ كلمة لها رمز. افتح كتابًا نافعًا وكأنك فتحت مدينة، وطالع ديوانًا مفيدًا وكأنك طالعت قارَّة. المهم أن تقرأ، وأوصيك دائمًا أن تقرأ».

س: هل تعتقد أنَّ مَن يقرأ الكتب يجد السعادة فيها كمَن يجد سعادته في تصفح هاتفه الذكي ببرامجه وتطبيقاته التي لا تنتهي؟

جـ: حين يجد الإنسان لذَّة القراءة، وتصير متعته اليومية في تقليب الصفحات، والانتشاء بما يعثر عليه من فوائد ودُرر، يشعر بالشفقة تجاه الآخرين الذين هجروا القراءة، وبخلوا على أنفسهم بالدخول إلى هذه الجنة، التي لو علم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدوهم عليها بالسيوف!

س: يبدو لي من كلامك أنَّ الحياة من دون الكتب لا تطيب لك؟

جـ: ما أضيق العيش لولا فسحة الكتب!

س: هل القُرَّاء يقرءون بطريقة واحدة؟

جـ: لكلِّ قارئ طريقته في إدراك المُتعة التي يصبو إليها، فهناك مَن يقرأ الكتاب من أَلِفه إلى يائه، وهناك مَن يكتفي بقراءة المُقدمة والفهارس لاختيار ما يروقه من موضوعات، وهناك مَن ينتقل في حديقة مكتبته كنحلة نشيطة يأخذ حظَّهُ من كلِّ كتاب تميل إليه نفسه ويظلُّ عليه عاكفًا، وهناك من يقرأ عدَّة كتب ويُطالع كثيرًا من المقالات في موضوع يهمه كطريقة الباحثين والدارسين.

س: أنت من أيِّ صنف من هؤلاء؟

جـ: الطريقة الأخيرة هي التي تستهويني؛ إذ أجدُ بها متعتي كاملةً، مع إرواء غليل جهلي، بحيث لا أنفكُّ عن المسألة التي أنا بصددها حتى أقتلها بحثًا، وقد حُبِّب إليَّ هذه الطريقة مذ كنتُ يافعًا.

س: لماذا تنتهج هذه الطريقة؟

جـ: هذه الطريقة في القراءة إضافة إلى المتعة، تجعل الفائدة ترسخ في الذهن، وتأخذ مكانها في النفس بحيث يصعب أن تزول.

س: ماذا تقول لمن يقرأ قراءة عابرة سريعة، ويعتقد أنهُ حاز درر الكتاب؟

جـ: هذه القراءة السطحية أكرهها.

س: لماذا؟ هل لأننا لا نجني منها الفائدة المرجوة ونُضيع أوقاتنا؟

جـ: نعم. أنصح بالقراءة الجادة.

س: كيف تكون القراءة الجادة؟

جـ: القراءة الجادة هي أن تقرأ الكتاب بلهفة وتركيز كما لو كنت تبحث عن سطر فيه إنقاذ لحياتك من مصيبة مُحققة.

س: هل أنت مع أن الإنسان ينبغي أن يقرأ في كل شيء دون وجود ضوابط؟

جـ: نعم، أنصح بقراءة كل شيء، لكن بشرط أن تكون لدى القارئ ثقافة دينية لا بأس بها، تمكنهُ من معرفة الغث والسمين، فلكل مقام مقال، فكما لا يُمكنك أن تعطي للرضيع قطعة لحم، فلا يُمكن أن تُعطي لشابٍّ غِر كتابًا في المنطق أو الفلسفة.

س: الشباب يسألون عن الطريقة النافعة في القراءة؟ ماذا تقول لهم؟

جـ: اتخذوا، وأنتم تُطالعون الكتب، كراسةً لكل فن من الفنون لتسجيل الفوائد التي تمر عليكم، فمع مرور الأيام ستجدون ثمرات هذه الفوائد، وقد ترتبونها وتهذبونها وتطبعونها بين دفَّتي كتاب، ويستفيد منها غيركم، كما فعل كثير من أهل العلم والأدب قديمًا وحديثًا.

س: ماذا تقول لمن يعتذر عن عدم القراءة بقلَّة الوقت وكثرة الأشغال؟

جـ: يقرأ القارئ العادي 300 كلمة في الدقيقة، فلو عوَّدت نفسك أن تقرأ عشر دقائق كل يوم، لأمكن أن تقرأ كتابًا صغيرًا في كلِّ أسبوع، أو كتابًا كبيرًا كل شهر، أي إنك ستقرأ حوالي عشرين كتابًا في كل عام، فهل يتعذر على أحدٍ أن يُوفر هذه الدقائق العشر من وقته كل يوم؟

س: ماذا تقول لمن يجمع الكتب بكثرة لكنه للأسف لا يقرؤها ولا يسعى لذلك؟

جـ: أقول لو تفرغوا لقراءة كتب عالم أو أديب أو مفكر، لاستخرجوا مع مرور الوقت نفائس ودررًا، ولأصبحوا من المتخصصين في تراثه. وإنَّ لمكتبك عليك حقًّا.

س: وما هو هذا الحق؟

جـ: انفض عنك غبارَ الكسل والخمول أولًا لتستطيع نفض غبار رفوفها ومجلداتها، واقرأ ما لذَّ منها من كتب مثنى وثلاث ورباع.

س: يبدو أن الجلوس في مكتبتك هو مكانك المفضل؟

جـ: الجلوس وسط المكتبة وحده متعة ولو لم تقرأ أي كتاب، تشعر بشيء جميل يعتريك.

س: واضح من الصور التي تنشرها في حساباتك على مواقع التواصل الاجتماعي أن مكتبتك ضخمة؟

جـ: وهبني اللّه من الكتب ما يكفي لثلاثة قرون، ومع ذلك ما زالت نفسي تصبو إلى المزيد!

س: ألا تظن أنَّ كثرة الكتب تجعل صاحبها محتارًا فيما يقرأ؟

جـ: نعم، في كثير من الأحيان تُصبح كثرة الكتب نقمة على صاحبها، إذ من كثرتها لا يستطيع القراءة في كتاب معين، فيقع في حيرة، لا سيما الذي ليس له منهج معيَّن في قراءة الكتب، فيعيش في فوضى!

س: تعني ربما قد تكون مكتبة صغيرة أنفع لصاحبها من مكتبة ضخمة؟

جـ: مكتبة منزلية صغيرة تضمُّ بين رفوفها عددًا من الكتب لا تتجاوز العشرين، تستطيع قراءتها وفهمها جيدًا، أفضل من مكتبة تحمل على كاهلها مئات المجلدات لا تمتدُّ إليها يدُ صاحبها، ويعلوها غبار الإهمال والهجران!

س: ماذا تردُّ على مَن يقول: إن قراءة الروايات مضيعة للوقت؟

جـ: لا يذمُّ قراءة الروايات بإطلاق إلا رجلان؛ الأول: نشأ في بادية بعيدة، والثاني: لا يعرف من الروايات إلا التافه منها.

س: أفهم منك أنك تُشجع على قراءة الروايات الجيدة؟

جـ: إن للنفس إقبالًا وإدبارًا، فحين تكون مقبلة اغتنم الفرصة وألقمها كتب العلم والفِكر، وحين تكون مُدبرة فداعبها ببعض الروايات المشوِّقة لغةً ومعنى.

س: ماذا تنصح بمن يبدأ القراء اليوم ويُريد أن يُصبح عالمًا أو مفكرًا غدًا فقط من خلال قراءة كتاب أو كتابين؟

جـ: يصل طالب العلم إلى مبتغاه مع مرور الأيام وتعاقب الليالي، وذكاء لا بأس به، وهمة عالية، ورغبة جامحة، وصبر كصبر الإبل.

س: بماذا تُجيب على مَن يقول إنهُ يشعر بالملل كلما فتح كتابًا ليقرأ؟

جـ: إذا كنت من الذين يُسرع إليهم الملل كلما فتحوا كتابًا، فإنك لست مُحبًّا، ولن تخرج من قراءتك بطائل مهما حاولت.

س: لماذا؟

جـ: لأن ممارسة الأشياء عمومًا لن تُعطي الثمرات المرجوة منها ما لم يكن الحُبُّ الدافعَ الرئيس لها.

س: كيف يعرف القارئ أنهُ صار لديه نضج في القراءة؟

جـ: اقرأ كتابًا، ثم عُد له بعد عشر سنوات، واقرأهُ مرة أخرى، فإن وجدته كما قرأتهُ أول مرة، فراجع نفسك!

س: كيف نُحبِّب أبناءنا في الكتب والقراءة؟

جـ عوِّد أبناءك على رؤية المكتبات، وخذهم معك لشراء الكتب، وأنفق أموالك أمامهم عليها كما تُنفقها على احتياجاتك اليومية.

س: يبدو أني أطلتُ معك كثيرًا، بماذا تنصحنا في الختام؟

جـ: حاربوا أعداءكم بكثرة القراءة ومصاحبة الكتب وإنشاء المكتبات المنزلية والعيش في أحضان العلم والأدب.

كان حديثًا ممتعًا مع الأديب (ربيع السملالي)، ولكن كالعادة الوقت يمضي سريعًا في مثل هذه الحوارات التي لا تُمَلُّ.

شكرتُ الأديب الجميل على أمل اللقاء به مرة أخرى. فودعني ورحل.

الفصل الثالث:

في الكتابة

هل الأفضل أن يُصحِّح المؤلِّف كتابه في كلِّ طبعة؟

لا أعتقد كاتبًا مَهمَا علا شأنه أو قلَّ، لم يقل بعد أن يخرج كتابه من المطبعة ـ سواءً أكان كتابه الأول أم كتابه العاشر أم كتابه العشرين ـ: ليتني أضفتُ هنا.. ليتني حذفت هذه الجملة.. ليتني توسَّعت في الفكرة هنا.. إلخ! فهذا شعور يُصيب أيَّ مؤلف، وهو أمر عادي جدًّا، فبالتأكيد سيعثر المؤلِّف في كتابه على أخطاءٍ كثيرة لم ينتبه لها أثناء تأليف ومراجعة الكتاب.

لا بدَّ من وجود الأخطاء

حتى لو راجع المؤلف كتابه قبل إرساله إلى المطبعة عشرات المرات مراجعةً دقيقة واستعان بمراجعين كُثر؛ لكي يجعل كتابه خاليًا من الأخطاء، فإنه لا بدَّ أن يجد بعد صدور الكتاب أخطاء، وفي قصَّة الإمام الشافعي لنا عبرة، عندما راجع كتابه (الرسالة) ثمانين مرَّة، ثم قال لتلميذه (المزني): «هيه، أبى اللّه أن يكون كتابًا صحيحًا غير كتابه». وقال أيضًا في موضع آخر: «ألَّفتُ هذه الكتب ولم آل منها[13]، ولا بدَّ أن يُوجد الخطأ؛ لأن اللّه تعالى يقول: [وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا] {النساء: 82}».

فكل كتاب بشري مهما اجتهد مؤلِّفه فيه، سيكون فيه الخطأ، هذا لا بدَّ منه، ويبقى كتاب اللّه الخالد (القُرآن الكريم) هو الكتاب الوحيد الذي لا يوجد به أخطاء؛ لأنهُ من عند اللّه سبحانه وتعالى.

صدق القاضي (عبد الرحيم البيساني)

كلَّما زادت الأيام مرورًا تغيرت نظرة المؤلف عن كتبه الأولى، خصوصًا إذا كان المؤلف يُطوِّر من نفسه ويبحث ويقرأ أكثر، بل ربما يودُّ لو يسحب كتبه الأولى من المكتبات ويُنسى ذكرها؛ لأنه يرى بها أخطاءً كثيرة، كأخطاء في الصياغة اللفظية، أو في التعبير عن الفكرة، أو آراء كان يرى صحَّتها والآن يراها عكس ذلك وغيرها الكثير، لتبقى المقولة الشهيرة للإمام القاضي (عبد الرحيم البيساني) صحيحة تمامًا، التي يقول فيها: «إني رأيتُ أنهُ لا يكتبُ إنسانٌ كتابًا في يومه، إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدم هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العِبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جُملة البشر».

تطور مستوى الكاتب

وهذا الأمر ـ أعني أنَّ المؤلَف عندما يرى كتبه الأولى بنظرة مختلفة عمَّا كان يراها سابقًا ـ بحدِّ ذاته أمر إيجابي وليس بسلبي، فهو يدل ـ كما ذكرت ـ على تطور مستوى الكاتب، فلا ينبغي أن يظن المؤلف أن هذا شيء سيء، خصوصًا إذا كان قد اجتهد في تلك الفترة خلال كتابته قدر استطاعته، وإنما ينبغي عليه أن يخاف إذا كان يرى كتابه الأول بعد عدة سنوات كرؤيته عند تألفيه، فهذا ـ في الغالب ـ يدلُّ على عدم وجود تطور من جانب المؤلف.

السؤال المهم

والسؤال الجوهري: بما أن كل مؤلف يرى بعد صدور كتابه بمدة الكثير من الهفوات والأخطاء فيه، فهل الأفضل أن يقوم في الطبعة القادمة بتصحيح كتابه وعمل إضافات وحذف ما يرى أنه غير مناسب أم الأفضل أن يتركه هكذا؛ لأنه يمثل مرحلة عمرية فكرية معينة للمؤلف وهو قد تجاوزها؟ أيهما أفضل إذن؟ الأمر يحتاج إلى توضيح.

نوع الكتاب هو ما يُحدد

كما هو معلوم أن الكتب أنواع، وبعض أنواع هذه الكتب تحتاج في كل طبعة أن يُضاف فيها ما استجد من جديد في مجالها، وإلا أصبحت قديمة لا تنفع من يقرؤها، والكتب العلمية والمعاجم وأشباهها من هذا النوع، حيثُ يستجد فيها الكثير، فالمعاجم مثلًا تُضاف لها عشرات الكلمات سنويًّا، فيجب أن تُضاف هذه الكلمات في كل طبعة جديدة، وإلا أصبح المعجم لا نفع له. وكتب الطب مثلًا من هذا النوع، فلو لم يتم إضافة الجديد فيها، لأصبحت غير ذات نفع لطلبة الطب.

ماذا عن الكتب الأدبية؟

أما النوع الثاني من الكتب ككتب الأدب وغيرها، فالتصحيح فيها على نوعين: نوع بإمكاننا أن نُسميه تصحيحًا بسيطًا، حيثُ لا يتعدى إصلاح الأخطاء المطبعية واللغوية، وتصحيح صياغة بعض العبارات، وإضافة بعض الفقرات القليلة من هنا وهناك، وحذف بعض الفقرات القليلة من هنا وهناك. ونوع ثانٍ يمسخ الكتاب كاملًا، ويُغيِّر فيه مؤلِّفه الكثير، حتى تجد أن الطبعة الثانية من الكتاب مختلفة تمامًا عن الطبعة الأولى.

القسم الأول: يرى بعدم تغيير الكتاب

الكُتَّاب منقسمون على هذين النوعين، فمنهم كالدكتور (عبد العزيز الحربي) يرى أنَّ تغيير الكتاب ومسخه كاملًا ظلم للقارئ الذي اشترى الطبعة الأولى، حيثُ لا بدَّ أن يقتني مرة ثانية الطبعة الثانية، ومعنى ذلك أنهُ لا بدَّ أن يُلاحق كلَّ طبعة جديدة للكتاب، وفي هذا مشقَّة مالية كبيرة على القارئ.

ودعا (د. الحربي) أن يكون الإصلاح يسيرًا، كتحسين لفظ، أو تحسين هيئة، بما لا يعد من الزيادات الكبيرة، وألَّا يُغير المؤلف كتابه كاملًا إلا للضرورة القصوى، والأفضل أن يجعل ما استجدَّ له من

أفكار في كتاب آخر بعنوان آخر. وسنورد عدَّة أمثلة على مؤلَفين يتّفقون مع هذا الرأي.

كتاب (النفس والمجتمع)

ما فعلهُ المُفكر (محمد قطب)، حيثُ ذكر في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه (في النفس والمجتمع) أنَّ بعض أفكار هذا الكتاب التي كُتبت قبل سنوات قد تطوَّرت ونَمَتْ، والبعض الآخر بَقِيَ على صورته ولم يتطور ولم ينمُ؛ لذلك فضَّل أن يُبقي الكتاب على ما هو عليه بألفاظه وترتيبه؛ لأنه يُمثِّل له حلقة من حلقات التفكير والاتجاه. وبيَّن (محمد قطب) أن الأفكار التي حصل لها امتداد قد أخرجها في كتب جديدة تَلَتْ هذا الكتاب.

كتاب (مفاتيح للتعامل مع القرآن)

أيضًا ما فعله (د. صلاح الخالدي) في كتابه (مفاتيح للتعامل مع القرآن) الذي صدر عام 1985م، وفي عام 1993م صدرت الطبعة الثانية للكتاب، وقال (الخالدي) في مقدمة الطبعة الثانية، إنه فكَّر في إجراء تعديلات على الكتاب، وأن يتوسع في الشرح والتوضيح، ولكن بعد ذلك قرَّر أن يُبقي الكتاب كما كان في طبعته الأولى، وأن يُخصص كتابًا آخر لما استجد له من أفكار حول هذا الموضوع.

بين (د. البيومي) والشيخ (عبد الفتاح أبو غدة)

قارن الأديب (د. محمد رجب البيومي) بين نفسه وبين الشيخ (عبد الفتاح أبو غدة)، حيث قال (د. البيومي) إنَّ لديه عادة، وهي أنهُ لا يقوم بتعديل وتنقيح كتاب قد صدر له، ولو كانت لديه إضافات كثيرة، وبيَّن أنها عادة مستحكمة فيه لا حيلة له عليها ولا يستطيع الفِكاك منها، بينما الشيخ (أبو غدة) يطبع الكتاب عدة طبعات، وفي كل طبعة يزيد ويزيد، حتى يكون الفارق بين الطبعة الأولى والرابعة فرق ما بين الطفل والكهل!

القسم الثاني: يرى ضرورة تحسين الكتاب

وأمَّا الصنف الثاني فيرى عكس ذلك، ومن هذا الصنف الدكتور (عُمر المقبل)، حيثُ يرى أنهُ يجب أن يُصلح المؤلف كتابه في كلِّ طبعة جديدة، ويُضيف فيه ما استجد لديه من جديد، بل تعجَّب (د. المقبل) من بعض الكُتَّاب حيثُ قال إنك تجد كتابه في الطبعة الخامسة هو نفسه في الطبعة الأولى، لم يُغير فيه مؤلِّفُه شيئًا.

وعلَّق (د. المقبل) بأنَّ هذا التصرف ليس بصحيح، بل ينبغي للكاتب أن يُنقح كتابه بين فترة وأخرى، فيُضيف ويحذف ويُصحِّح حتى يستوي الكتاب على سُوقه ويُحقِّق مراده، ويفعل مثل ما فعل الإمام (الخطابي) في كتابه (غريب الحديث)، حيثُ إنَّه أعاد قراءة كتابه بعد تداوله بين طلبة العلم، فغيَّر

وأصلح وزاد وحذف. وبيَّن (د. المقبل) أنهُ لا مانع أن يكتب الكاتب في الطبعة الجديدة من كتابه (مزيدة ومُنقحة).

وهذا ما فعله (د. عمر المقبل) بنفسه في كتبه، حيثُ قرأت له في تغريدة يقول فيها بمعنى كلامه عن كتابه ـ إن لم تَخُنِّي الذاكرة ـ (قواعد قُرآنية) أنهُ فقط يعترف بالطبعة الجديدة المنقحة والمزيدة لهذا الكتاب، أما الطبعات السابقات فلا يعترف بها.

كتاب (العبادة في الإسلام)

من الأمثلة على هذا الصنف ما فعله (د. يوسف القرضاوي) في كتابه (العبادة في الإسلام) حيثُ قال في الطبعة الثانية من الكتاب، التي صدرت في عام 1971م: «فهذه هي الطبعة الثانية من كتابي (العبادة في الإسلام) بعد أن هذَّبته وعدَّلته ووسَّعته، حتى بدا في صورة أخرى غير الصورة التي ظهر بها منذ أحد عشر عامًا».

كتاب (حول العالم في 200 يوم)

وأيضًا ما فعلهُ الأديب (أنيس منصور) في كتابه (حول العالم في 200 يوم)، حيثُ قال في رسالة أرسلها إلى الأديب (عبد الوهاب مطاوع) إنهُ بعد أن فاز هذا الكتاب بجائزة التقدير الدولية، قلَّبه ـ أي أنيس منصور ـ فلم يُعجبه، فقام بإعادة صياغته كله من جديد، وهو كتاب ضخم يقع في 800 صفحة! ثمَّ وضَّح (أنيس منصور) أنهُ لم يرضَ عن أي كتاب أخرجه، وأن أمنيتهُ لو سمح له وقته وعمره هو إعادة صياغة كتبه كلها من جديد!

كتاب (المقالات) لمونتين

لا أنسَى كذلك الفيلسوف الفرنسي (مونتين) الذي قام في كل طبعة جديدة لكتابه الشهير (المقالات) بإضافة إضافات كثيرة، وظلَّ عشرين عامًا يُراجع كتابه هذا ويُضيف إليه، حتى نما الكتاب وتضخَّم كثيرًا، ولم يقطع الإصلاحات عن الكتاب سوى موته كما قالت الباحثة (سارة بكويل).

منهج سماحة الشيخ (أحمد الخليلي)

أذكر قبل عدَّة سنوات أنهُ أخبرني أحد مَن يعملون في الدار التي تطبع كتب سماحة الشيخ (أحمد الخليلي) ـ حفظه الله ـ، أنهُ في كل طبعة يُضيف الشيخ إصلاحات وتنقيحات وتصويبات، وأن أحد كتبه بلغ الطبعة الثالثة عشرة ـ إن لم تَخُنِّي الذاكرة ـ، وما زال الشيخ يُضيف ويُعدِّل في كل طبعة جديدة تصدر.

نصيحة سويدانية

ينصح (د. طارق السويدان) المؤلف بألّا يجعل كتابه في الطبعة الثانية كطبعته الأولى تمامًا دون تغيير، بل عليه أن يُطورها، فيُصحح ما يحتاج إلى تصحيح، ويُضيف إليها إذا استطاع ويُغير فيها ولو قليلًا.

وهذا ما يفعلهُ (د. طارق السويدان) بنفسه، حيثُ في كلِّ طبعة جديدة ـ مثلًا ـ من كتابه (تاريخ فلسطين المصور)، يُضيف ما استجدَّ من أحداث عن فلسطين ويُصوِّب في الكتاب، ولا تكون الطبعة الجديدة كالسابقة تمامًا، بل لا بدَّ أن تجد فيها إضافات وتصويبات.

إلى أي رأي تميل؟

إذن، الكُتَّاب ـ كما ذكرنا ـ مختلفون، وليس هناك رأي حاسم في المسألة، وقد يسأل سائل: أنت إلى أي رأي تميل؟ أقول: بالنسبة لي فإني أميل لرأي (د. عبد العزيز الحربي) في أغلب الحالات، وأرى أن يقتصر المؤلف في كل طبعة على تصحيح الأخطاء اللغوية والمطبعية، وصياغة بعض الفقرات، وبعض الإضافات البسيطة هنا وهناك، ولا أرى أن ينجرف الكاتب كثيرًا فيجعل كتابه كأنهُ جديد؛ لأنَّ هذا بالفعل غَبْنٌ لكلِّ مَن اشترى الكتاب في طبعته السابقة، إلَّا في البعض الحالات كأن يكون قد عَدَل عن بعض آرائه، أو اتَّضح له خطأ اعتقاده، أو يرى الكتاب يحتاج إلى إعادة صياغة كلية، فهنا عليه أن يُصحح ويبدل.

وأيضًا أفضِّل الإبقاء على الكتاب كما هو؛ لأن ذلك يُمثل مرحلة فكرية عُمرية معينة للكاتب، ومستوى نُضجه في حينها، وما تطوَّر لديه من أفكار تكون في كتاب آخر كما قال (د. الحربي).

كذلك، لو قام المؤلف بتصحيح كل كتبه التي كتبها، لما استطاع أن يُؤلِّف كتبًا جديدة؛ لأنه سيستنزف جُلَّ أوقاته في تعديل طبعات كتبه التي صدرت.

كتابي الأول (القراءة صنعة العظماء)

ما زلتُ مترددًا بشأن كتابي الأول (القراءة صنعة العظماء) الذي صدر في أواخر 2017م، هل عندما أُقرر أن أعيد طباعته أقوم بتغييره كاملًا، أم أُبقيه على حاله مع إصلاحات بسيطة في النحو والصياغة اللفظية وإضافات بسيطة من هنا وهناك، ولا أتجاوز أكثر من ذلك؟

فخلال خمس السنوات التي تلت صدور الكتاب تغيَّرت فيَّ ـ كحال أغلب الكُتَّاب ـ الكثير من الأمور، وصرتُ غير راضٍ كليًّا عن كلِّ ما في الكتاب، كما استجدَّ لديَّ الكثير من المعلومات والمراجع التي يُمكن أن توسِّع البحث وتُطوره.

لكني أقول إنه يُمثل مرحلة عمرية وفكرية معيَّنة من حياتي، وهي عندما كان عُمري بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين؛ لذا يترجح لديَّ إن قمتُ بإصدار طبعة ثانية من الكتاب أن أجعله كما

هو، وأكتفيَ فقط بالإصلاحات اللغوية وتعديل الأخطاء المطبعية، والزيادات البسيطة القليلة هنا وهناك، وما زاد لديَّ من إضافات كثيرة أجعلها في كتب لاحقة إن شاء اللّه.

تعقيب

إذن ــ كما مرَّ معنا ــ ليس هناك صواب أو خطأ في الأمر، الأمر يرجع لنوع الكتاب في حالات، ويرجع للكاتب في حالات أخرى، وكما أنَّ الكُتَّاب مختلفون في هذا الأمر، فالقُراء كذلك مختلفون، فمنهم من يُفضل الكاتب الذي يُصحح كتابه ويُضيف فيه الكثير؛ ليقينه بأن الكاتب لا بدَّ أن يتطور وتتضح لديه الكثير من الأمور التي كانت غامضة في حين تأليف الكتاب، فلذلك لا بدَّ أن يُضيف ويُصحِّح ويُعدِّل ويحذف في طبعة جديدة. ومنهم من لا يفضل ذلك؛ لأنهُ سيضطر لشراء الطبعة الجديدة من الكتاب.

التوجيه والنصيحة

الخلاصة في أمرين:

أولًا: عليك أيها الكاتب أن تُراجع كتابك مراجعة دقيقة وتقرؤه بعد الانتهاء منه مرَّات ومرَّات، وليس مراجعة وقراءة عابرة بل تأنَّ ولا تتعجَّلْ؛ وذلك لكي تحاول قدر الإمكان التقليل من الأخطاء الموجودة في كتابك.

خذ بنصيحة (د. منير الغضبان)

ذكر (د. منير الغضبان) عن نفسه أنهُ لديه عادة سيئة، وهي التعجل، حيثُ إنهُ ما إن يُنهي تأليف كتاب حتى يدفعهُ إلى المطبعة مباشرة، فلا يقرؤهُ مرَّة أخرى ولا يُراجعه، وإذا قرأهُ فإنهُ يقرؤهُ مرة واحدة في أفضل الأحوال، وتكون قراءته كما في ذهنه وليس كما هي في الكتاب، فيجد أخطاء كثيرة في كتابه بعد الطباعة.

وقد نصح (د. الغضبان) لمن يتصدى للتأليف أن يُعيد النظر في مؤلفه ويُصوبه ويُنقحه؛ لأن الخطأ الذي يظهر بعد الطباعة لن يُتلافى.

سلِّم بوجود الأخطاء في كتابك

الأمر الثاني: أنهُ لا بدَّ أيُّها الكاتب مهما راجعت ودقَّقت في كتابك قبل أن تقوم بإرساله إلى المطبعة، ستجد أخطاء كثيرة بعد صدوره. وبمرور السنوات ــ كما ذكرنا ــ لن تكون راضيًا عنه تمام الرضا، ليصدق قول (الثعالبي) مع كل كاتب: « لا يكتب أحد كتابًا فيبيت عنده ليلة، إلا أحبَّ في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة فكيف في سنين معدودة!».

فلا تقل: لو فعلت كذا، لما حصل هذا الخطأ! فهذا أمر طبيعي ـ كما بيَّنتُ ـ، وسبحان من نزَّه كتابهُ عن الخطأ والزلل، أما كتب البشر فليس لها هذا التشريف. وما أجمل استنباط العلَّامة (السيوطي) في تفسير قول اللّه تعالى: [أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا] {النساء:82}، حيثُ قال: في هذه الآية العذر للمصنفين (المؤلفين) فيما يقع لهم من الاختلاف والتناقض؛ لأن السلامة عن ذلك من خصائص القرآن، كما ذكر ذلك الكاتب (أحمد الطيار).

هل على الكاتب أن يُروِّج كتابَه؟

الكُتَّاب في الغالب منقسمون إلى قسمين: قسم يؤمن بأنَّ الكتاب الجيِّد يُسوِّق لنفسه، ولذا فلا يحتاج إلى عمل ترويج ودعاية له. وقسم آخر يرى ضرورة ترويج الكتاب بكلِّ طريقة ووسيلة ممكنة؛ لأنهم موقنون بأنَّ الكتاب مهما كان مميَّزًا في مضمونه، إلا أنه من دون ترويج جيِّد له، لن يتجاوز معرفته إلا القليل ممَّن هم مهتمُّون بالموضوع الذي يتحدث عنه الكتاب.

والسؤال: أي الفعلين صحيح: أن يُروِّج المؤلفُ كتابَه أم لا؟ هنا نُفصل في الإجابة على هذا السؤال.

ماذا تعني مقولة: «الكتاب الجيِّد يُسوِّق لنفسه»؟

بدايةً مقولة «الكتاب الجيِّد يُسوِّق نفسه» هي مقولة صحيحة، لكن ـ حسب ما يُفهم منها ـ ليس معناها أن الكاتب لا ينبغي لهُ أن يتحدث أو أن يُعلن عن كتابه ويُسوق له، بل يُفهم منها أنَّ بداية التسويق الناجح لأيِّ كتاب يكون بأن يحوي شيئًا متفرِّدًا ومختلفًا لا يوجد في الكتب التي تحدثت في نفس موضوعه، فهو ليس تكرارًا لها 100% بحيث يمكن الاستغناء عنه.

فالكتاب قد يكون مختلفًا عمَّا سبقه من كتب تحدثت في موضوعه، إمَّا في عرضه لمعلومات وتفاصيل جديدة، وإمَّا في طريقة عرضه للموضوع. المقصد أن الكتاب فيه إضافة جديدة. هذا هو أول وأهم شرط لنجاح الكتاب.

بعد ذلك يأتي الترويج للكتاب؛ لأنهُ لا فائدة تُذكر من تأليف كتاب لم يبذل فيه مؤلفه جهدًا في صنع مادته، فيكون ضعيف المحتوى، أو مُكررًا لكتب سبقته، فالترويج هنا لا يأتي بالنتيجة المرجوة، بل ربما أتى بنتيجة عكسية على الكتاب.

إذن، تسويق الكتاب يبدأ من بذل جهد حقيقي في تأليفه وجمع مادته.

نصيحة المدرِّب والكاتب (ستيف تشاندلر)

تحضرني هنا نصيحة المدرِّب والمؤلِّف (ستيف تشاندلر) حيث قال إنَّ من بين عملائه كُتَّابًا، وإنَّهم أحيانًا يؤلِّفون كتابًا في عُجالة ويريدون استشارته بشأن الترويج له، ويرغبون في التعرف على

أحدث حيل الإنترنت التي تُساعدهم على ترويج كتابهم. ويقولون له إنهم على استعداد لبذل مجهود حقيقي في الترويج؛ لأن هذا الكتاب يعني لهم الكثير.

وكان (تشاندلر) يردُّ عليهم بأنَّ جهود الترويج يجب أن تُوجَّه للكتاب نفسه لا في السوق، لأنَّ أفضل الكتب وأكثرها بيعًا هي تلك التي تُروج لنفسها، والسبب في ذلك أن الناس يُطالعونها ثم يُحدثون أصدقاءهم عنها، كما يشترون نسخًا منها لأصدقائهم وأفراد عائلتهم، فيُعْرَف الكتاب وينتشر صيته خاصة في هذا العصر، حيث أصبح العالم قرية صغيرة.

تعقيب

في كلام (تشاندلر) الكثير من الصحَّة، فكلنا ـ معشر القُراء ـ عندما نقتني كتابًا ونقرؤهُ ونُعجَب بمحتواه، فإننا نُحدث أصدقاءنا وزملاءنا والدائرة القريبة منَّا عنه، ونُشجِّعهم على قراءته، وأحيانًا بالفعل نشتري نسخًا نُهديها لهم، كما أننا نتكلَّم عن الكتاب في صفحاتنا في مواقع التواصل الاجتماعي. وكذلك أصدقاؤنا وأقرباؤنا يفعلون كما نفعل، وبذا ينتشر الكتاب ويصير معروفًا بين القُرَّاء، فيكون عليه طلب ورواج.

وفي المقابل من يُروِّج الكتابَ دون أن يكون قد بذل جهدًا حقيقيًّا في تأليفه، فإنه لو انخدع به بعض القُرَّاء ـ وهذا يحدث عادةً في بدايات صدور الكتاب ـ بسبب الترويج الخادع أو المبالغ فيه الذي لا يعكس حقيقة الكتاب، فما إنْ يقرؤه القُرَّاء ويجدونه ضعيف المحتوى، فلن يتحدثوا عن الكتاب لأصدقائهم ولا لأقربائهم، بل ربما حذَّروهم من اقتنائه وبيَّنوا لهم أنَّ ما قيل عن الكتاب لا ينطبق على مضمونه! وبذا يضرُّ ترويج الكتاب من حيث أراد له مؤلفه أن ينفعه.

ما هي أهم أساليب الترويج للكتاب؟

بعد أن يكون المؤلِّف قد بذل جهدًا في تأليف كتابه، ثم أصدرهُ بعد ذلك، تأتي المرحلة الثانية المهمة؛ وهي مرحلة ترويج الكتاب، وهنا بعض الطريق لترويج الكتاب.

أولًا: أن يتحدث المؤلف بنفسه عن كتابه

لا مانع إطلاقًا أن يُروِّج المؤلِّف كتابَه ويتحدَّث عنه وعن مضمونه، وما هو الشيء المميز والمختلف فيه عن بقية الكتب التي تطرقت لنفس موضوعه. ولا مانع أن يذكر المدَّة التي استغرقها في تأليف الكتاب، وعدد المراجع التي لجأ لها، فهذا التصرُّف ممَّا يُشجِّع ويُحفِّز القُراء إلى الإقبال على الكتاب.

لكن أيضًا ينبغي أن يكون هذا الحديث بقدر معقول وبدون إفراط، فالإكثار من أي شيء ولو كان جيدًا، يجعل الناس تمل وتنفر منه، فيأتي أحيانًا بنتائج عكسية غير المقصودة.

احذر من هذه العبارات

هنا ينبغي التنبيه للكاتب أن يحذر من الترويج لكتابه بمثل هذه العبارات، كأن يقول: «هذا الكتاب سيُغيِّر طريقة نظرتك في هذا الموضوع»، أو «بعد قراءتك لهذا الكتاب ستكون شخصًا مختلفًا»، وغيرها من الجُمل المبالغ فيها جدًّا، التي صار أغلب القُراء لا يُصدقها لكثرة ابتذالها واستخدامها.

كما أنَّ مثل هذه العبارات والجُمْل تُعَدُّ من التزكية للنفس، والنفس البشرية ـ كما هو معلوم ـ تنفر ممَّن يُبالغ في تزكية نفسه ومدحها. وأيضًا الحكم على الكتاب للقارئ وليس للكاتب، ومثل هذه الجمل توضِّح أنَّ المؤلِّف هو من حكم على كتابه، بينما القارئ الواعي هو الحَكَم الصحيح على جودة الكتاب ومضمونه.

ثانيًا: إهداء نُسخ للكُتَّاب والأدباء

من طُرق ترويج الكتاب أيضًا أن يقوم المؤلِّف بإهداء نسخ لكُتَّاب يعتزُّ بكتاباتهم ويحترم رأيهم، ولهم جمهور جيد. شرط ألَّا يُملي عليهم ماذا يكتبون، أو يفرض عليهم أن يتحدثوا عنه، فما عليه سوى أن يُهديهم نسخًا من الكتاب مع كتابة إهداء جميل، ويقول لهم إنه سيكون ممتنًّا وشاكرًا لهم لو وجدوا الوقت لقراءة الكتاب وتزويده بملاحظاتهم وانطباعهم عنه.

هنا ينتهي الموقف ولا يسألهم بعد ذلك: هل قرأتم الكتاب وما رأيكم فيه؟ ليدعَ الأمر لهم، إنْ قرءوه فمن طيب أنفسهم، وإن لم يقرءوه فليس هناك أي مشكلة.

لا ترفع سقف توقعاتك كثيرًا

هنا نصيحة مهمة: على الكاتب ألَّا يضع في باله توقعات كثيرة من هؤلاء الكُتَّاب، خصوصًا إذا كان كتابه الأول وما زال مغمورًا وفي بداية الطريق، بل الأفضل له ألَّا يتوقَّع منهم أن يقرءوه؛ لكيلا يُزعج نفسه ويُكدر خاطره إذا لم يجد تجاوبًا من أكثرهم، فالكُتَّاب بشر لا يختلفون عنَّا، بعضهم تدبُّ فيه الغيرة والحسد، ويرى أنك تنافسه بدخولك في عالم الكتب، وبعضهم يستصغر شأنك ويرى أنك لا تصلح أن تكون كاتبًا.

كما أنَّ بعضهم لا يقرأ في مجالك الذي تكتب فيه، فنفسهُ لا تجد الرغبة في قراءة الكتاب، وبعضهم مشغول جدًّا بمشاريعه التي يكتب فيها، وليس لديه الوقت لقراءة كتابك، ويرى أنَّ ذلك يعوقه عن مشاريعه، وغيرها من الأسباب الكثيرة. والبعض الآخر يتجاوب معك ويفرح أنك قدَّرتهُ وأهديتهُ نسخة وتفضَّلت عليه، فتجده يقرأ الكتاب ويُثني عليه بما يستحق، ولكنهم للأسف قلة قليلة جدًّا.

قصَّة (نجيب محفوظ) مع الإهداء

إهداء نسخ للكَتّاب الكبار يُذكّرني بالقصَّة التي حدثت مع الروائي العملاق (نجيب محفوظ) والتي ذكرها الأديب (عبد الحميد جودة السحار). يقول (السحار): كان (نجيب محفوظ) في بدايات مشواره الأدبي ولا يعرفه أحد، فعلى الرغم من فوز روايته الأولى (رادوبيس) فإنَّهُ لم يجد دارًا تنشرها له، بحجَّة أنهُ مؤلِّف مغمور واسمه ليس له رنين بين القُرَّاء.

يقول (السحَّار) إنَّهُ بعد معاناة طويلة مع الورق والرقابة وغيرها قمنا بطباعة رواية (رادوبيس)، وعند خروجها من المطبعة جاء (نجيب) بنسخ الروايات وفي جعبته قائمة بأسماء جهابذة الأدب الذين سيهدي لهم روايته، وجلس يتفنَّن في الإهداء ويُحسِّن الخط وهو في غاية الفرح!

ثم يذكر (السحار) هذا الموقف الصادم الذي حدث لنجيب محفوظ، حيث يقول إنهُ ذات يوم ذهب هو (ونجيب محفوظ) لإحدى المكتبات لشراء بعض الكتب، فلفت نظرهم وجود نسخة من رواية (رادوبيس)، فأسرعوا نحوها فرحين، لكنهم ما إن فتحوا غلافها حتى أصابتهم الدهشة، حيث كانت هذه النسخ هي إحدى النسخ التي أهداها (نجيب) لأحد العمالقة، ليتفضل عليه بقراءتها، ولم يَدُرْ بخَلَد (نجيب) أنه سيجدها معروضة للبيع في المكتبة.

فدفعهم الفضول والحيرة والدهشة لسؤال صاحب المكتبة عن كيفية وصول هذه النسخة هنا وعرضها للبيع؟ فردَّ عليهم صاحب المكتبة أن صاحب هذه النسخة المهداة قد اعتاد أن يُبدل الكتب التي تُهدى إليه بكتب يحتاج إليها!

يُعقِّب (السحَّار) بعد هذا الموقف الصادم، أنهُ من يومها تعلم ألا يهدي العباقرة الكُتاب كتبًا، وعلَّل قائلًا بأنَّ الكتاب الذي يُهدى لا يُقرأ.

(سيِّد قطب) مع أستاذه (عباس العقاد)

لا مانع من ذكر هذه القصة لتعلم أنَّ كبار الأدباء أحيانًا قد يبخلون ولو بكلمة طيبة لمن قرأ كتبهم وعرَّف بها القُرَّاء وأثنى عليها، بل لمن صاروا تلامذتهم ومُريديهم. ذكر الكاتب (د. صلاح الخالدي) أنَّ المفكِّر (سيِّد قطب) كان في بداياته الأدبية متأثِّرًا إلى أبعد الحدود بالأديب العملاق (عباس العقاد) ومتعلقًا به كثيرًا، حتى صار تلميذًا مقرَّبًا لديه، يدافع عنه وعن إنتاجه، بل خاض (سيد) معارك أدبية شهيرة في الدفاع عنه، وغالى فيه كثيرًا.

ومع كل هذا الحُبِّ من التلميذ ــ بل المُريد ــ للأستاذ، إلا أنَّ الأديب (العقاد) لم يُنصف تلميذه لما بدأ في إصدار كتبه، ولم يقل عنها كلمة ثناء واحدة، بل تجاهلها تمامًا بعكس ما كان يفعل التلميذ مع أستاذه، ممَّا جعل (سيد) يحسُّ بمرارة هذا التجاهل. وقد كتم (سيد) هذه المرارة لفترة ثم أظهرها فيما بعدُ، في مقال كتبه كان يردُّ فيه على جيل الشيوخ من الأدباء كأحمد أمين وغيره.

وكان ممَّا قال (سيد) في المقال: «دعوني أصارحكم بتجربتي الخاصة التي تركت في نفسي ذات يوم مرارة.. لقد كنتُ مُريدًا بكلِّ معنى كلمة المريد لرجل من جيلكم.. لقد كتبت عنكم جميعًا بلا

استثناء.. ثم جاء دَوري في أن أنشر كتبًا.. وكان أول كتاب نشرته (التصوير الفني في القرآن).. وكان كتابًا موفَّقًا حقًّا.. فماذا كان موقف أستاذي؟ بل ماذا كان موقف جيلكم كله؟ لا من هذا الكتاب وحده، ولكن من الكتب العشرة التي نشرتها؟!.. كلمة طيبة من جيل الأساتذة، كانت قبل خمس سنوات فقط تعدُّ في نفسي شيئًا عظيمًا، وتترك في روحي أثرًا طيبًا، غير أنها ـ مع الأسف ـ لم تكن».

القصَّة التي حدثت مع (سيد) تؤكد لنا ألَّا نرفع سقف توقعاتنا كثيرًا، ولو كنا من مُحبيهم وقرأنا إنتاجهم وعرَّفنا به كثيرًا من القُرَّاء، فـ (سيد) درس آثارهم واستوعبها ونوه بها، وشرحها، وحللها خلال عشرين عامًا، ومع ذلك تم تجاهله، وحزَّ في نفسه هذا التجاهل وآلمه كثيرًا.

ماذا قال (أحمد الزيات) لتوفيق الحكيم؟

بعث الأديب (أحمد حسن الزيات) رسالة إلى الأديب (توفيق الحكيم)، يُخبره فيها أن كلمة الخير من أديب إلى أديب، لم يسجلها التاريخ إلا في باب النوادر! فما يحدث بينهما هو بالضبط كما يحدث بين الضرائر!

ثم عقَّب (الزيات) وقال إنهُ لا يدري لماذا يعتقد كلُّ أديب أو شاعر أو فنَّان أنَّ الأرض لا تتَّسع إلا له، وأنَّ الناس لا يَقبلون إلا منه، مع أنَّ الأدب ألوان وصنوف شتى، والذوق أشتات ودرجات! وشأن الأدباء والفنانين في البلد الواحد أو العصر الواحد كمثل الجوقة الموسيقية، تؤلِّف بأصواتها المتنوعة وصورها المتعددة لحنًا واحدًا يُطرب النفوس المختلفة، ويُرضي الأذواق المتباينة، وتجد فيها مع هذا الانسجام أنَّ لكلِّ عازف مكانًا، ولكلِّ صوت آذانًا، ولكلِّ قطعة فنًّا، فلا تُغني آلة عن آلة، ولا يجزي صوت عن صوت.

معاناة (بنجامين فرانكلين) مع كُتَّاب عصره

كلام (الزيات) يؤكِّده الواقع، حيث نقرأ ونسمع عن المعارك والخلافات التي تحدث بين الأدباء الشيء الكثير، تصل بعض هذه المعارك إلى حدِّ الشتم والسب والقذف وكأنهم مراهقون وليسوا بأدباء كبار. وأما التجاهل ـ أعني تجاهل الكاتب وكتبه وعدم الحديث عنها من قِبل كُتَّاب آخرين يكتبون في نفس مجاله أو من نفس بلدته ـ فحدِّث ولا حرج.

وموضوع تجاهل الأديب لإنتاج أديب غيره، يُذكِّرني بما ذكره الأديب (رجاء النقاش) عن الفيلسوف والمخترع والأديب الموسوعي الأمريكي (بنجامين فرانكلين) ـ وهو أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة ـ، حيثُ قال إنَّ (بنجامين) عانى من هذا الأمر، فتجاهله كُتَّاب وأدباء عصره رغم شهرته الكبيرة، فلم يذكروا كتبه ولم يُشيروا إليها، حتى إنَّ (فرنكلين) كاد أن يُصاب بالإحباط واليأس لولا أن كتاباته تُحقق له عائدًا ماديًّا طيبًا!

يقول (فرانكلين) إنهُ توصَّل إلى حلّ لمعرفة تأثير كتبه، وهو معرفة تأثير كتاباته على الناس، وذلك أنَّ الناس هم أفضل مَن يُمكنهم أن يحكموا على كتبه؛ لأنهم هم من يشترونها. وبذا عرف أنَّ له منزلة كبيرة عندهم، حيثُ كان يسمع الناس في رحلاته يُرددون كلامه ويستشهدون به، وقد فرح بذلك كثيرًا، وفرح أن أفكاره يُؤخذ بها، وأنه يحظى باحترام بينهم لمكانته في التأليف.

تنبيه

ليس الغرض من سرد هذه القصص هو أن تُصاب بالإحباط، بل العكس تمامًا، الغرض من سردها أن تتوقع احتمالية وقوع بعض هذه الأمور لك ولا تستبعد ذلك، فلا تُحبط عندما تُصادفك مثل هذه المواقف؛ لأن الأمر المتوقَّع يسهل تقبُّله والتعافي منه بسهولة، بينما الأمر غير المتوقع قد يخلق صدمة كبيرة تجعل التعافي منها قد يأخذ وقتًا طويلًا.

ثالثًا: نشر مراجعات القُرَّاء

من الترويج كذلك أن يقوم المؤلف بنشر المراجعات التي كُتبت عن كتابه، كالمراجعات التي يضعها بعض القُراء في موقع (جود ريدز)، أو في صفحاتهم في مواقع التواصل الاجتماعي، وهذه الطريقة تُعدُّ من أساليب الترويج الجيدة التي تدفع القُراء لاقتناء الكتاب.

ومراجعات القُرَّاء أراها من أكثر ما يُعرِّف القُرَّاء بكتب المؤلفين. يُخبرني أحد الأشخاص ممَّن قرءوا بعض كتبي من دولة الكويت الشقيقة، سبب معرفته بكتبي، قال لي: رأيت كثيرين من القُرَّاء يُثنون على كتاب (عزاءات القراءة)، ويضعون مقتطفات منه في حساباتهم، وبين فترة وفترة أجد من يتحدث عنه. فتشوقت لقراءة الكتاب ومعرفة مضمونه، فقمتُ بالبحث عن الكتاب في المكتبات. وحصلتُ عليه واقتنيته مع كتابك الآخر (شجون القرَّاء)، وقرأتهما، وبذا عرفتك.

فأمرٌ جيِّد أن يجمع الكاتب مراجعات القُرَّاء الذين تحدثوا فيها عن كتبه، ويضعها في حسابه؛ لتكون مشجعًا لمن يقرؤها لاقتناء كتابه.

رابعًا: الحديث عن الكتاب في الإعلام المرئي والمسموع

لا يخفى على أحد دَور الإعلام المرئي والمسموع القوي في التأثير على شرائح كثيرة في المجتمع، وفي تغيير الكثير من العادات، فهو من أقوى وسائل التأثير في عصرنا كما قال (حسن آل حمادة). ولا بدَّ من استغلاله بطريقة نافعة، من بينها الحديث عن الكتب الجيدة بطريقة مُشوِّقة مُشجِّعة.

يقول الكاتب الإسلامي (خالد محمد خالد): «فإذا طرحت كتابًا أو سلعةً ما في السوق دون الإعلان الواسع عنها، فلا تنتظر سوى الفتات». وقد يتَّفق الجميع أو الأغلب على صحَّة هذا الكلام، فالترويج عن الكتب والحديث عنها وتشجيع الناس على قراءتها بشتى الوسائل المختلفة كالصحف والمجلات

والإذاعات والتلفزيون، أمرٌ مهمٌّ جدًّا يُساهم في انتشارها وجعل القَرَّاء يعرفونها ثم يبحثون عنها بعد ذلك.

وكمْ من كتاب جيِّد في مضمونه لم يجد من يُروِّج له ويُعطيه حقَّه، فلم يعرفه إلا شريحة بسيطة من القُرَّاء، وعندما تحدَّث عنه أحدهم في الإعلام المرئي أو المسموع صار الإقبال عليه شديدًا ونفدت جميع نُسخه! وكم من كتاب جيِّد متميِّز في مضمونه، لم يجد مَن يتحدث عنه في الإعلام، فمات في مهده للأسف! والأمثلة على ذلك كثيرة.

تجربة (أوبرا وينفري) في ترويج الكتب

لنا في تجربة (أوبرا وينفري) ـ التي ذكرها الكاتب (حسن آل حمادة) ـ خير مثال على استغلال الإعلام في ترويج الكتب الجيِّدة، حيثُ وضعت (أوبرا) فقرةً في برنامجها الشهير (أوبرا) ـ الذي كان يُتابعه 10 ملايين من داخل الولايات المتحدة، و15 مليونًا من خارجها ـ، وكان اسم الفقرة (نادي أوبرا للكتاب)، خصصتها للحديث في كل شهر عن كتاب، حيث تقوم بعرض كتاب أمام الكاميرا، وتقول لمتابعيها: هذا الكتاب هو اختياري لهذا الشهر.

ثم تطلب منهم أن يشتروه ويقرءوه، وأن يبعثوا لها برسائل إلكترونية أو ورقية تحوي تفاعلهم مع الكتاب، وبعد ذلك يتم اختيار أربعة أشخاص من مجموع الرسائل وتتم استضافتهم ـ على حساب البرنامج ـ من أجل الالتقاء بمؤلف الكتاب ومناقشته حول كتابه وتجربته وتناول العشاء معه.
وبمجرَّد عرض (أوبرا) للكتاب، تنفد مئات الألوف من نسخ الكتاب، وقد أدهش هذا البرنامج دُور النشر ومطابع الكتب!

تجربة فريدة تستحق أن تُحتذى، حيث استغلَّت (أوبرا) شهرتها وكثرة متابعيها بتشجيعهم على القراءة، والتي هي من أهمِّ العادات التي ينبغي أن يزرعها الإنسان في نفسه، وبسبب برنامجها هذا قرأ أناس كثيرون كتبًا، أناس لم يعرفوا القراءة من قبلُ.

ولا عجب أن تُشجِّع (أوبرا) على القراءة، فهي عاشقة للكتب ودودة قراءة كما وصفتها أمُّها في صباها، حيث كانت أمُّها تشتكي منها أنها لا تفعل شيئًا سوى القراءة طوال الوقت، فـ (أوبرا) تُؤمن كيف أنَّ قراءة كتاب قد تُغير فينا الكثير.

ولأوبرا كلام كثير في كتبها تتحدَّث فيه عن حُبِّها للقراءة، بل عشقها لها، والفوائد التي جَنتها منها، ومن كلامها عن القراءة: «كتاب جيِّد قد يمدُّني بالأفكار، والمعلومات، والمعرفة، والإلهام، والقوة، بل أكثر من ذلك»، «لا يُمكنني أن أتخيل أين سأكون أو مَن الشخص الذي سأكون عليه بدون وسيلة القراءة الضرورية»، «أكثر شيء أحبه في القراءة، أنها تمنحك القدرة على الوصول إلى مناطق أكثر ارتفاعًا ومواصلة التسلُّق».

ماذا فعل لقاء تلفزيوني واحد بكتاب (حسن آل حمادة)؟

مثال آخر على تأثير الإعلام، القصة التي ذكرها الكاتب (حسن آل حمادة) عن نفسه، حيث قال إنه تمَّت استضافته في التلفزيون السعودي للحديث عن ظاهرة (الطلاق)، وفي أثناء اللقاء عرض كتابه (لماذا يفسخون عقد زواجهم؟)، ثم ذكر أنَّ نُسخ الكتاب الباقية قد نفدت من المكتبات بعد عرضه في اللقاء.

ماذا فعلت تغريدة اللاعب (محمد صلاح) بكتاب (فن اللامبالاة)؟

الإعلام تأثيره قوي ـ كما ذكرتُ ـ وتعظم المسئولية أكثر لأصحاب المشاهير الذين يبلغ متابعوهم مئات الألوف، وأحيانًا يصل متابعوهم لأرقام بالملايين، وعلى عاتقهم أن يُروجوا للشيء المفيد، والتي منها بالتأكيد الحديث عن الكتب النافعة. وأقرب مثال على تأثير هؤلاء المشاهير، عندما انتشرت صورة للَّاعب المصري (محمد صلاح) وهو يُمسك كتاب (فن اللامبالاة) لـ (مارك مانسون)، وبعد ذلك صار طلب هائل على الكتاب وأصبح الأكثر بيعًا!

الكتاب جيِّد ورائع ولا شك في ذلك، ومبيعاته في نسخته الأصلية ممتازة، لكن تغريدة (محمد صلاح) ـ الذي يملك أكثر من 17 مليون متابع ـ، فعلت فعلها لجعل نسخ الكتاب بترجمته العربية يكون عليه طلب هائل.

النصيحة

على الكاتب أن يجد مَن يكتب عن كتابه في الصحف ويُشير إليه، وأن يجد كذلك من يتحدَّث عنه في الإذاعات، وفي التلفاز. وإذا استطاع الكاتب أن يحظى بلقاءٍ للحديث عن كتابه في الإذاعة أو التلفاز، فهذا أمر جيِّد جدًّا؛ لأنَّ كلَّ هذه الوسائل تُساهم في تعريف الناس بكتابه والوصول إلى أكبر شريحة منهم.

(هنري ميلر) يتساءل!

تساءل الكاتب (هنري ميلر) في كتابه الماتع (الكتب في حياتي) قائلًا: ما الذي يجعل كتابًا ما يبقى حيًّا؟ وأجاب بأن الجواب بكل بساطة هو «أن الكتاب يبقى حيًّا عبر التوصية المُحبة التي يُقدمها قارئ إلى آخر».

كلام (ميلر) صحيح جدًّا، بالتوصية نُحيي كتابًا لم يعد يُذكر منذ سنوات، أو نُعرِّف الناس بمؤلف نسيه القُرَّاء منذ فترة طويلة. وترويج الكتاب في الإعلام بشقيه المرئي والمسموع هو نوع من التوصية، بل ربما هو أهم توصية في العصر الذي نعيشه.

الوقت الأنسب للترويج؟

قد يسأل سائل: ما هو الوقت الأنسب لترويج الكتاب؟ هل وقت كتابة المسوَّدة؟ أم قبل صدوره بوقت قليل؟ أم بعد خروجه من المطبعة وصدوره رسميًّا؟

والجواب بأنهُ لا مانع أن يبدأ ترويج الكتاب بعد أن يتم إرساله للمطبعة، ليأخذ وقته في الانتشار ويسمع به القُرَّاء، وعند صدور الكتاب يتم الترويج له والحديث عن مضمونه، أو نشر مقتطفات منه.

هل الترويج للكتاب عملية مستمرة؟

قد يسأل آخر: هل يكون الترويج في البدايات فقط وبعدها نتوقَّف؟ والإجابة هي أن الترويج ليس له فترة محددة ويتوقف، بل هو عملية مستمرة، ولكن ـ كما ذكرتُ ـ بدون إفراط؛ يكون بين فترة وأخرى، حتى لا نجلب الملل للمتابعين من كثرة عرضه.

خامسًا: استغلال فترة معارض الكتب للترويج

معارض الكتب هي فرصة ذهبية لترويج الكتب؛ لأن الحديث خلال فترة أيام المعرض يكون فقط عن الكتب والكتب والكتب، ولا شيء غير ذلك. فالكل يسأل ويبحث، فينبغي استغلال هذا الحدث المهم في ترويج كتابك أفضل استغلال. وأغلب الناس لا يبحثون عن الكتب ولا يشترونها إلا في فترة معرض الكتاب الذي يُقام في بلدهم.

فعند افتتاح أي معرض من معارض الكتب، ينبغي أن تُعلن ـ في حساباتك على مواقع التواصل الاجتماعي ـ عن كتابك ودار النشر ورقم الجناح الذي يتوفر فيه.

ومن حُسن استغلالك لفترة المعرض أن تُكثِّف قليلًا الحديثَ عن كتابك في فترة أيام المعرض، فتنشر مقتطفات عنه، أو تقوم بعمل فيديو بسيط لا تتجاوز مدة عرضه دقيقتين تتحدث فيه عن كتابك ومضمونه.

ومن الجيد جدًّا أن تقوم بعمل حفل توقيع لكتابك خلال أحد أيام المعرض الذي يُقام في بلدك والبلاد المجاورة التي تستطيع الوصول إليها بدون كلفة عالية، وتنشر في صفحتك هذا الأمر، ليس في هذا أي إحراج، فالتوقيع يفعل فعله في التعريف بالكتاب والمؤلِّف.

وكم شخصٍ أخبرني وقال لي إنهُ لم يكن يعرف شيئًا عن هذا الكتاب ولا مؤلِّفه، إلا عند سماعه في المعرض بإعلان بَدْء توقيع الكتاب للمؤلِّف الفلاني، فيقول إنَّ عنوان الكتاب قد شدَّه، فذهب لمكان التوقيع وتصفَّح الكتاب وعرف مضمونه، ثم اشتراه.

هذه بعض الأساليب والطرق في الترويج للكتاب، والهدف منها ـ كما ذكرت ـ أن تصل لأكبر شريحة من القُرَّاء، وبعد ذلك للقارئ الحرية في أن يشتري الكتاب أم لا. ويبقى أقوى ترويج هو مضمون الكتاب وجودته.

احذر الترويج الخادع

الترويج الخادع وإن جعل الإقبال على الكتاب في البدايات كثيرًا، إلا أنهُ على المدى البعيد يضرُّ كاتب الكتاب، هذا ممَّا لا شك فيه. ومن أساليب الترويج الخادع، أن يقوم المؤلِّف بنفسه أو يجعل أصدقاءه يقومون بشراء جميع نسخ الكتاب من المكتبة التي يتوفر فيها كتابه، ثم يقول: لقد نفدت جميع نسخ الكتاب! وذلك ليجعل المُتابعين يتشوقون ويطلبون الكتاب، فيقولون: لو لم يكن الكتاب مميَّزًا لما نفدت جميع نسخه!

من الترويج المخادع أن يقوم المؤلف بإنشاء حسابات كثيرة، وفيها يُثني على كتابه، أو يطلب من أصدقائه أن يثنوا على الكتاب ويُلح عليهم، حتى ولو لم يقرءوا كتابه. كل ذلك من أجل تسويق الكتاب وإيهام القُرَّاء بأنهُ يُقرأ كثيرًا.

ويُعدُّ أيضًا من الترويج المخادع، التواصلُ مع المؤثرين أصحاب الحسابات الشهيرة وأصحاب البرامج في التلفاز والإذاعات، وفي الصحف كذلك، كي يستضيفوك في برامجهم ويتحدثوا معك عن كتابك، ثم تقول إنهم هم من تواصلوا معك لتأثير كتابك وقوته.

ولا مانع كما ذكرنا، بل شجعنا أن يُعلن المؤلف عن كتابه في هذه الوسائل، لكن النقطة هنا هي ألَّا يقلب الكاتب الحقيقة ويقول هم من تواصلوا معه لقوة كتابه وتأثيره، ولعلهم لم يسمعوا عن الكاتب ولا عن كتابه.

من الترويج الخادع قولك إن كتابك أصبح من الكتب الأكثر بيعًا، وأنَّ نسخه قد نفدت، والواقع غير ذلك. ومن الترويج الخادع أن تذهب لكاتب مشهور لديه مُتابعون كُثر وتطلب منه الثناء على كتابك، وتُلحُّ عليه في ذلك، حتى يستحي منك هذا الكاتب ويضطر أن يُثني على كتابك ولو لم يكن راغبًا في ذلك.

ومن الترويج الخادع أن تأتي الدار بأقل من عشرين نسخة من كتابك في أحد المعارض، ثم تنفد أو تطلب من أصدقائك أن يشتروها، ثم تُعلن نفاد جميع النسخ من معرض الكتاب ولا تذكر كم عدد هذه النسخ.

كل هذه التصرفات إذا لم تكن صادقة، فإنها تضر المؤلف على المدى البعيد كما ذكرنا، فقد تستطيع أن تخدع كل الناس لبعض الوقت، لكنك لا تستطيع خداعهم كل الوقت كما قالوا. ولا بد أن ينكشف أمرك، وتتضح الحقيقة المرَّة أن هذا كله فقط للترويج عن الكتاب.

عندها لن ينفع الترويج لكتابك الثاني وإن كان به مضمون جيِّد، فسيقول مَن اشترى كتابك الأول، اقتنيته ولكن للأسف لم يكن مثل ما رُوج له.

والخلاصة أن تُروج لكتابك بكل صدق، فإذا نفدت نسخه حقيقةَ فعليك أن تذكر ذلك، وإذا تمَّت استضافتك فعلًا من قِبلهم وليس من قِبلك، فعليك أن تذكر ذلك.

الترويج المخادع أفعله فقط لألفت نظر القُرَّاء لكتابي!

قد يقول قائل: أنا لا أقصد خداع الناس، لكن الكتاب ـ ولو كان به مضمون جيد ـ لا يُلتفت له إلا بمثل هذه الطرق في واقعنا الحالي. فأنا أفعل بعض هذه الأساليب لألفت انتباه القُرَّاء لكتابي فقط لا غير، ومن ثَمَّ هم بدَورهم يبحثون عنه ويتصفَّحونه وقد يُعجبهم فيقتنونه. أنا لا أفرض عليهم شراء الكتاب، ولو فعلت مثل هذا التسويق المخادع، فهدفي ليس خداعهم. فهل هذا التصرف خاطئ؟

الإجابة قد تكون معقَّدة نوعًا ما، لكن نقول: إنَّ غالبية القُرَّاء سيضرهم الترويج المخادع؛ لأنهم يتبعون السواد الأعظم، فإذا رأوا ثناءً كثيرًا على كتاب ما، تجدهم يندفعون بدون أدنى تفكير لاقتناء الكتاب حتى من دون تصفُّحه ومعرفة هل هو مناسب لهم أو لا! وهو ما يُعرف بسياسة القطيع. والأمثلة في واقعنا على ذلك كثيرة جدًّا.

أما الصنف الآخر من القُرَّاء، وهم قليلون، فهذا قد لا يضره الترويج المخادع، بل بالعكس ربما تجدهُ يفرح بأن نبَّهه أحدهم إلى كتاب لم يسمع به، فتجده يبحث عنه ويتصفَّحه عندما يجده ويقرأ فهرسه وبعض صفحاته، فإن وجده ليس كما رُوج له، ولا يُناسبه، لم يشترِه. وإن وجده ذا مضمون قيِّم، اشتراه وشكر مَن دلَّه عليه.

وإليك هاتين القصتين في الترويج للكتاب، فقط لِلَفت انتباه القُراء وليس بهدف خداعهم، وقد وقعتا من قِبل كاتبين عظيمين.

الأديب (مصطفى الرافعي)

ذكر الأديب (العريان) أنَّ في سنة 1911م أصدر الأديب (مصطفى الرافعي) كتابه (تاريخ آداب العرب)، وقد تقبَّله الأدباء قَبولًا حسنًا، وكُتبت عنه المقالات في كبريات الصحف. لكن ذلك لم يكفِ (الرافعي)، فتوجَّه ذات يوم إلى صديقه الكاتب (أحمد زكي باشا) في جريدة (المؤيد)، ورجاه أن يكتب فصلًا عن كتابه.

فقال له (زكي باشا): وماذا تُريدني أن أكتب؟ فقال له (الرافعي): تقول وتقول. فرد عليه (زكي باشا): اكتب ما تشاء وهذا إمضائي! فجلس (الرافعي) يكتب ما شاء أن ينسب إلى صديقه في تقريظ كتابه، ثم دفعه إليه فذيَّله باسمه ودفعه إلى عامل المطبعة.

وقرأ الناس في اليوم التالي مقالًا في تقريظ كتاب (تاريخ آداب العرب) بإمضاء (أحمد زكي باشا)، وقد شغل الصفحة الأولى كلها من الجريدة، ولم يعرف أحد من القُرَّاء أن كاتب المقال هو نفسه (الرافعي)، يُثني على كتابه ويطري نفسه!

الأديب (خالد محمد خالد)

ذكر الكاتب الإسلامي (خالد محمد خالد) قصة نشر أول كتاب له، وطريقته الغريبة في الترويج له، وقد مرَّ معنا قوله إنَّ الكتاب إذا طُرح في السوق دون إعلان واسع عنه، لن يُلتفت إليه أحد.

يقول (خالد محمد خالد) إنهُ في عام 1950م ألَّف أول كتاب له (من هنا نبدأ) بعد معاناة طويلة في خروجه من الرقابة، ومعاناة في طباعته ونشره وتوزيعه على منافذ البيع، حيث إنَّ مرتبه ضعيف لا يكفي لحاجات الأولاد، فضلًا أن يقتصَّ منه لطباعة كتاب، ودُور النشر لا تقوم بطباعة كتاب على نفقتها لمؤلِّف مغمور لم يسمع به القُراء بعدُ.

استطاع (خالد محمد خالد) أن يدفع راتب شهر كامل لطباعة الكتاب، وأن يعيش على الآجل من بقالة صديقه، وأن يقترض من صديق آخر، وأن يعمل جمعية لإتمام تكاليف طباعة الكتاب، ويخرج الكتاب بعد ذلك إلى النور بعدد 1500 نسخة. ومن بين المشاكل التي واجهته مشكلة ترويج الكتاب، فعلى الرغم من أنَّ أحد أصدقائه قام بالتبرع لقيمة إعلان بسيط متواضع جدًّا لا يكاد يُرى في جريدة المصري، ولكنه ـ كما قالد خالد ـ نُشر وكأنهُ لم يُنشر.

يقول (خالد محمد خالد) حينها تذكَّرت أنني قرأت عن (جورج برنارد شو) أنهُ أُصيب بنفس الموقف، حيث كان يُؤلف الكتب ويكتب المقالات، وينتظر رسالة واحدة من قارئ فلا تأتيه. ففكَّر وقدَّر، ثم راح يُمطر الصحف بمقالاته حاملةً توقيعه الحقيقي، ثم يُتبعها بمقالات تدحض مقالاته الأولى حاملة توقيعًا زائفًا، وأخذ راحته في هذه الطريقة، يسبُّ ويشتم ويسخر من هذا الذي اسمه (برنارد شو) الذي يتحدَّى تقاليد الأمة ونُظمها وميراثها. ونفعت الخطة، وبدأ (برنارد شو) يستحوذ على قُرَّاء كثيرين، وصار مركز دائرة اهتمامهم.

قرَّر (خالد محمد خالد) أن يُجرِّب نفس الطريقة لكتابه الذي لم يتحرك من أيدي الباعة، فطلب من صديقه (محمد حسن البري) أن يكتب مقالًا في نقد الكتاب وألَّا يترك كلمة وقحة إلا ذكرها. وجاءه صديقه من الغد بالمقال وراح يقرؤه عليه، فتعجَّب (خالد محمد خالد) من كثرة الهجاء والنقد ولكنه فرح، واتَّفقا أن يضعا عنوانًا للمقال (كتاب أثيم لعالمٍ ضالٍّ).

وذهب صاحبه إلى رئيس تحرير جريدة (منبر الشرق) الأستاذ (علي الغاياتي)، وما إن قرأ عليه المقالة حتى غضب غضبًا شديدًا وسأله: متى صدر هذا الكتاب؟ وكيف سمحت الرقابة بنشره؟ وأين الأزهر؟ وراح (علي الغاياتي) يشكر كاتب المقال على غَيْرتِه الدينية ويقظته وجهاده، ويدعو اللّه أن يُكثر في المسلمين من أمثاله. وصدر المقال في مكان بارز، وفي العددين التاليين راحت الأقلام تهاجم الكتاب والكاتب، والغريب أنَّ أغلبهم يستمدُّ حكمه لا من الكتاب، بل من المقال الذي كتبه (محمد حسن البري)!

يقول (خالد محمد خالد): تحركت لجنة الفتوى بالأزهر مطالبة النيابة بمصادرة الكتاب والتحقيق مع مؤلِفه، وهاجم البوليس أماكن بيع الكتاب والمطبعة ليُصادر نسخ الكتاب، ودُعيتُ للتحقيق، وحاربه

الكتّاب وانتقده أدباء كثيرون، لكن الكتاب زاد انتشارًا.

نجحت خطَّة الأديب (خالد محمد خالد) في تسويق الكتاب، وراح الكتاب يُسابق الرياح المرسلة في التوزيع والانتشار والتأثير، على حدِّ تعبير (خالد محمد خالد)، وتوالت طبعاته حثيثة سريعة، حتى إن بعضها كان ينفد في يومين أو ثلاثة أيام، وصار اسم (خالد محمد خالد) شهيرًا على كلِّ لسان.

الخاتمة

يتَّضح لنا أن الترويج للكتاب مهم جدًّا ولا يُستغنى عنه، لكن ينبغي أن نُروِّج بذكاء وبصدق، ليعرف القُرَّاء عن الكتاب، وبعدها سيعرف الكتاب الجيد طريقه إلى أيدي القُراء.

احذر أن تُحرم بركة العلم!

هناك بعض التصرفات مَن يفعلها تجعله يُحرم من بركة علمه والاستفادة منه، وللأسف فقد ابتُلِيَ بمثل هذا الأفعال عددٌ من الكُتَّاب والمُؤلِّفين، وفي هذا المقال أتحدث عنها.

الآفة الأولى: إهمال المصدر الأصلي

بعض المؤلفين عندما يقرءون في كتابٍ ما معلومة وتُعجبهم، ويكون هذا الكتاب قد ذكر المصدر الذي استقى منهُ هذه المعلومة، فإنهم عند ذكرهم أو توظيفهم لهذه المعلومة ـ للأسف ـ يُهملون الكتاب الذي دلَّهم عليها، ويُحيلون مباشرة إلى المصدر الأصلي الذي استقى منه مؤلف الكتاب الأول وعرَّفهم به، وهذا ليس من بركة العلم كما قالوا.

فالأمانة تقتضي أن تذكر المصدر الذي قام بتعريفك بهذه المصادر ودلك على الاستشهادات منها، وليس أن تأخذ مراجعه ومصادره لتُوهم القُرَّاء أنك الذي بحثت ثم استخرجت هذه الاستشهادات.

(علي الطنطاوي) يشتكي

هذه الآفة ليست بجديدة، وإن كانت قد كثرت في أيامنا هذه كثيرًا، فقد اشتكى الأديب الموسوعي (علي الطنطاوي) منها، حيث ذكر في ذكرياته، أنهُ توقَّف عن ذكر المصادر والمراجع التي يُؤلِّف منها كتبه؛ وذلك لأنه ذكر المراجع والمصادر مُفصلة (من ذكر الطبعة والجزء ورقم الصفحة) في كتابيه الشهيرين (أبو بكر الصديق) و(أخبار عمر) والتي بلغت 170 مرجعًا، وللأسف أخذ كبار الأدباء قبل صغارهم هذه المراجع واستفادوا منها وأهملوا ذكر كتابه الذي دلَّهم عليها، ويقصد (الطنطاوي) بكبار الأدباء (عباس العقاد)، و(محمد حسين هيكل). وهذا التصرف ليس من الأمانة في شيء.

(عبد الفتاح أبو غدة) يشتكي

كذلك عانى الشيخ (عبد الفتاح أبو غدَّة) من هذا التصرف، فقد ذكر في مقدمة كتابه الشهير والقيِّم: (قيمة الزمن عند العلماء)، أنهُ من باب الأمانة العلمية، وتمتينًا للثقة بالمنقول، كان منهجه في كتبه الكبيرة والصغيرة عزوَ كلِّ مقولة أو خبر أو جملة بل كل كلمة إلى ذكر المصدر بالتفصيل، لكن ما صدمه وآلمه أن كثيرًا من المؤلفين قاموا بنقل المعلومات من كتبه، ولكنهم عزوها إلى المصدر الذي أخذ منه هو، وأهملوا ذكر كتابه الذي أفادهم ودلَّهم على هذه المصادر!

وقد ذكر (أبو غدة) مقولات كثيرة تُبين أن هذا التصرف ليس من بركة العلم، منها قول الإمام السيوطي: «لأنَّ بركة العلم عزو الأقوال إلى قائلها؛ لأن ذلك من أداء الأمانة وتجنب الخيانة، ومن أكبر أسباب الانتفاع بالعلم».

تعقيب على القصتين

أتَّفِق تمامًا مع (الطنطاوي) و(أبو غدة) في أن هذا التصرف مؤلم كثيرًا، فالباحث يتعب ويبحث ويقرأ الساعات الطوال، ليستخرج الاستشهادات والنقولات من بطون الكتب، ومن حرصه على توثيق صحة معلوماته وليثق القارئ بصدق هذه المعلومات، يذكر المراجع بالتفصيل، ثم تجد كثيرين من ضعاف النفوس يأخذون كل هذه المراجع بكل سهولة، ويستفيدون منها، ولا يأتون على ذكر كتابك إطلاقًا.

عندما يأخذ أحدهم مصادر كتابك!

مررتُ بهذا الموقف أكثر من مرَّة، فقد انتهجتُ في كتبي الثلاثة الأولى هذا المنهج، حيثُ قمتُ بتوثيق كل مقولة أو فكرة ذكرتها بالتفصيل عن طريق فعل هوامش في الصفحات، وقد تفاجأت من بعضهم بأخذ مراجعي والذهاب مباشرة إلى المصدر الأصلي، حيثُ يقومون بنشرها في حساباتهم ومقالاتهم ويذكرونها في لقاءاتهم دون أن يأتوا على ذكر كتابي الذي استفادوا منه وعرفوا عن طريقه هذه المراجع.

وليس بالصعوبة البالغة أن يعرِّف المؤلِّف من أخذ من مصادره أو لا، فهناك دلائل كثيرة يتَّضح منها أنَّ هذا الشخص أخذ منك ولم يأخذ من المصدر الأصلي. وبالتأكيد ليس كل من ذكر مثل اقتباساتي واستشهاداتي معنى ذلك أنهُ أخذها من كتبي. أنا هنا أتحدث عن حالات متيقن منها ومن أشخاص أعرف طبيعة قراءاتهم.

الآفة الثانية: تجنُّب ذكر من أفادك بالفائدة

هناك أيضًا آفة ثانية تُسبِّب الحرمان من بركة العلم وهي من الخيانة أيضًا، وقد رأيتها للأسف تحدث كثيرًا، وهي أن يقرأ أحدهم كتابًا ولا ينتبه لفكرة أو استشهاد معيَّن، ثم يقرأ كتابًا آخر، ويجد أنهُ اقتبس جملةً أعجبته من ذلك الكتاب الذي قرأه، ولكنه هو لم ينتبه لها أثناء قراءته لذلك الكتاب، فتراه

عندما يستشهد، يذكر المعلومة مباشرة من الكتاب وكأنهُ هو من وجدها بنفسه، وكان الأولى به أن يقول: أفادني فلان بهذا الاستشهاد، وقد أخذته من كتابه، فبهذا التصرف تُنال بركة العلم.

نتيجة انتشار هاتين الآفتين

لا عجب بسبب هاتين الآفتين السابقتي الذكر، أن يتوقف عدد من الكُتاب والمؤلفين عن ذكر مصادرهم ومراجعهم، وإن ذكروها ذكروا فقط اسم الكتاب والمؤلف دون تفصيل للصفحة التي أخذوا منها الاستشهاد أو طبعة الكتاب؛ لكيلا يجعلوا أمثال هؤلاء الكُتَّاب يأخذون جهدهم وتعبهم بسهولة، وكأنَّهم هم الذي قرءوا واستخرجوا هذه الاستشهادات والنقولات.

الآفة الثالثة: انتحال أفكار الغير عن عمد

هناك أيضًا صنف يُحرَم من البركة فيما يكتبه بسبب أخذهِ لأفكار غيره ونسبتها لنفسه، والأمر في اكتشاف الأفكار المنتحلة أصعب بكثير من مسألة أخذ الاستشهادات والمراجع؛ لأن مَن يقعون في هذا الأمر هم على نوعين: نوع عن قصد يأخذ الفكرة من غيره من الكُتاب ويقوم بطرحها بألفاظه الخاصة، ليوضِّح أنه هو من أتى بها، وهذا الفعل يُعدُّ من السرقة المُحرمة.

ونوع ثانٍ يقع في هذا الأمر دون قصد، فعدد من القُرَّاء يكون لديه معدل نسيان كبير، لا تستقر المعلومات في ذاكرته إلا نادرًا، فقط تبقى الفكرة عالقة في عقله، لكن بعد فترة ينسى من أين أتته هذه الفكرة، بل أحيانًا كثيرة يعتقد أنها فكرته هو وأنهُ هو مَن استخرجها، فيقوم بذكرها والحديث عنها، يحدث هذا كثيرًا! وكم نبَّهت أكثر من قارئ بأن هذه الفكرة التي يدعيها قد قرأتها في الكتاب الفلاني! فينتبه ويتذكَّر بالفعل أنه قرأ هذا الكتاب في فترة ما.

قصة (هيلين كيلر) مع الانتحال غير المتعمد

هنا يحضرني ما حدث للأديبة (هيلين كيلر) وهي قصة جديرة بأن تُروى وتُؤخذ العِبرة منها، حيث ذكرت في سيرتها الذاتية، أنها عندما كانت في الـ 11 أو 12 من عُمرها، مرَّت بموقف صعب جدًّا، موقف جعلها تشعر بالقلق والإحباط لوقتٍ طويل، وفقدت الكتب عندها سحرها لوقت ليس بالقصير بسبب هذا الموقف.

وكانت (هيلين) كلما تَذكَّرت هذا الموقف فيما بعدُ تُصاب بالإحباط. حيثُ تروي فتقول إنها أتتها فجأة أفكار لكتابة قصة، ووجدت أنَّ الأفكار قد انسابت من عقلها تمامًا، وهي تكتب القصة جملةً وراء جملة على لوحة (برايل)، وعندما أنهت كتابة القصة، قرأتها على معلمتها (سولفيان)، فأُعجبتْ بها، ثم بعد ذلك قُرأتْ القصة على العائلة، فأعجبوا من جمال القصة وسألها أحدهم إن كانت قد قرأت هذه القصة في كتابٍ ما؟ فأنكرت (هيلين) بشدة.

أرسلت (هيلين) القصة ـ وقد كانت في غاية الفرح ـ إلى السيد (أناغنوس) ليقوم بنشرها، واقترح عليها السيد (أناغنوس) أن تُعطي القصة عنوان (ملك الجليد) بدلًا من (أوراق الخريف). وبالفعل تم نشر القصة في إحدى نشرات (مؤسسة بيركنز للمكفوفين). قالت (هيلين) إنها كانت في قمة السعادة وهي ترى أول قصة قد نُشرت لها.

لكن ما حدث بعد ذلك بفترة كان صادمًا لـ (هيلين)، حيث وُجِدَ تشابه تام في الفكرة واللغة بين قصتها وقصة عنوانها (جنِّيَّات الجليد) للمؤلِّفة (مارغريت كانبي) التي كتبت هذه القصة قبل مولد (هيلين).

ولا تسأل بعد ذلك عن حال الطفلة (هيلين) والإحراج الذي حدث لها وهي تُتَّهم بالسرقة والانتحال، والمرارة التي عانتها، على الرغم من أنها لم تتعمد السرقة، وقد حاولت أن تُوضح لهم ذلك لكن أغلبهم لم يُصدقها، ومَثُلَتْ أمام المحكمة لتفسِّر لهم كيف حدث ذلك، والشيء المؤكد ـ كما قالت هيلين بعد ذلك ـ أن قصة (كانبي) قد قُرِأتْ لها في إحدى المرات فتشربها عقلها، وبعد مدة طويلة من نسيانها لها، عادت إليها بشكل طبيعي بحيث لم تشك أبدًا بأنها نِتاج عقل آخر.

وعلقت أيضًا (هيلين) بأنها ما زالت تجد صعوبة لليوم ـ أي وقت كتابة مذكراتها ـ في معرفة أفكارها الحقيقية من أفكار الكتب التي قرأتها. وللتوضيح فإن (هيلين) قد تلقَّت تعاطفًا كبيرًا فيما بعدُ حتى من المؤلفة نفسها التي أخذت منها قصتها.

(إبراهيم المازني) ودفاعه عن انتحالاته

حدث للأديب والشاعر والمترجم (إبراهيم المازني) ما حدث لـ (هيلين كيلر) بالضبط، حيث ذكر (جهاد فاضل) أن الشاعر (عبد الرحمن شكري) ـ وهو صديق (المازني) ـ قال إن هناك عدَّة قصائد للمازني أخذها من شعراء غيره ونسبها لنفسه، كقصيدة (الشاعر المحتضر) وقد أخذها (المازني) من قصيدة (أدوني) للشاعر (شيللي)، وقصيدة (قبر الشاعر) أخذها (المازني) من الشاعر الألماني (هيني) وغيرها.

وذكر (شكري) أنهُ واجه (المازني) بذلك، فاعترف (المازني) أنها ليست له، ولكنه برَّر موقفه بأنهُ نظمها وهو يظنُّ أنها له؛ وذلك لأنه حفظ المعاني ونَسِيَ أنها لغيره! فردَّ عليه (شكري) إن الأبيات والمعاني متسلسلة والترجمة دقيقة! فأصرَّ (المازنيُّ) على فكرته، ولكنه وعد (شكري) أن يتجنَّب فعل ذلك في المستقبل.

يقول (شكري) إنَّ (المازني) لم يتوقَّف عن ذلك، فقد صدرت له عدَّة قصائد ومقالات وكلها أخذها من غيره، كمقاله (تناسخ الأرواح) الذي نشره في مجلة (البيان)، وقد أخذه (المازني) من أوله إلى آخره من مقالات الكاتب الإنجليزي الشهير (أديسون)!

يقول (شكري) إنهُ عندما واجه (المازني) ردَّ عليه قائلًا: ماذا أصنع إذا كنت أكتب الشيء ولا أعرف أنهُ ليس لي؟ هل أطوف على الناس أسألهم هل رأوه مَن قبل؟

كذلك تحدَّث (د. محمد رجب البيومي) في طرائفه ومسامراته عن سرقات (المازني). وذكر أنَّ (المازني) قام بترجمة رواية (ابن الطبيعة) لأديب روسيٍّ اسمه (ميشال أرتيز بياشيف)[14] كانت ذات تأثير قويٍّ في نفسه، وظهرت القصة مترجمة للقُراء وقرءوها. ثم كتب (المازنيُّ) بعد ذلك قصَّة (إبراهيم الكاتب)، فجاءت بها خمس صفحات متوالية لم تنقص حرفًا واحدًا من القصة الروسية التي ترجمها، دون أن ينسب (المازني) هذا الكلام للرواية.

يقول (د. البيومي) إن بعض القُرَّاء فطن إلى التشابه في القصتين وواجهوا (المازني) بذلك، فكان تعليل (المازني) في مجلة (الرسالة) أنهُ لم يعد لقراءة رواية (ابن الطبيعة) منذ أن فرغ من ترجمتها، ولو كان يُريد الاقتباس منها لما أعجزه صبُّ معانيها في عبارات أخرى، ولكن الصحيح أنَّ الصفحات الخمس علقت بذاكرته بعمق دون أن يدري؛ وذلك لعمق التأثر الذي تركته هذه الرواية في نفسه، فجرى بها القلم وهو يحسبها له.

وقال (المازني) إنه لا يقول هذا الكلام ليدافع عن نفسه، بل ليوضح لهم كيف أن ذاكرة الإنسان قد تعبث به، فهي ليست خزانة مبوَّبة مرتَّبة، بل بحر مائج يرسب ما فيه ويطفو، دون ضابط معيَّن، ومن غير أن يكون لنا عليها سلطان.

الفائدة من ذكر هاتين القصتين

هاتان القصَّتان تُوضِّحان لنا أنَّ الإنسان قد يتشرَّب أفكار غيره، وأحيانًا لغته دون أن يدري، ويعتقد أنها فعلًا أفكاره هو، وأنا هنا لستُ أُبرِّر سرقة الأفكار، ولا يُعذر (المازني) في سرقاته كما قال (شكري)؛ لأن مثل هذه التصرفات تبعث على الفوضى في العلوم والآداب، ولكنِّي أُبيِّن أنَّ مثل هذه الحالات قد تحدث أحيانًا دون عمد.

وهذا ـ كما ذكرت ـ يحدث لكثيرٍ من القُرَّاء وقليل مَن ينجو منه، فلا أحد يستطيع تذكُّر كل فكرة من أين أخذها، فالنسيان أمرٌ لا بدَّ منه، وقد ورد في الآية الكريمة من سورة (آل عمران) قول اللّه على لسان عباده الصالحين: [رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا]، وورد في السنَّة حديث رسولنا ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ: «رُفع عن أُمتي الخطأ والنسيان».

فلا حرج على الإنسان إذا ذكر فكرة اعتقد أنها من بنات أفكاره وهي ليست كذلك، لكن يجب عليه إذا تيقَّن فيما بعدُ أنَّ هذه الفكرة ليست له وأنهُ أخذها من غيره أو من الكتاب الفلاني، أن يُنبِّه على ذلك، وليس في ذلك أي حرج بل هو من الأمانة.

لا بدَّ أن تظهر الحقيقة يومًا ما

كلامي ليس عن هذه الفئة التي تختلط عليها أحيانًا الأفكار فتعتقد أنها هي صاحبة الفكرة، بل عمَّن يتعمد سرقة الأفكار وتحويرها أحيانًا ليوهم القارئ بأنها فكرته. فهذا عملٌ مشين، وطال الزمن أم قصر لا بدَّ أن يعرف حقيقته القُرَّاء، فينفروا منه.

وقد رأينا ذلك حدث مع بعض الكَتاب، حيث تنبَّه بعضُ القَرَّاء الواعين لكثرة التشابه في الأفكار بينه وبين كاتب آخر، وما لبثوا أن بحثوا قليلًا فاتَّضحت الحقيقة المُرَّة كاملةً! ويا لَهُ من سوء مصير! نسأل اللّه أن يُجنبنا الوقوع فيه، فهو العاصم وحده، والمعصوم من عصمه اللّه.

الآفة الرابعة: انتحال الكتاب كاملًا

وهناك فئة أسوأ من الفئتين السالفتَي الذكر، والبركة بعيدة عنها تمامًا، ويبدو أنَّ الضمير شبه معدوم معها، حيثُ يقوم الكاتب من هذه الفئة بسلخ الكتاب كاملًا، أي يسرق فكرة الكتاب وأسلوبه وطريقة عرضه مع تعديل يسير لا يكاد يُذكر كما ذكر (د. محمد الحمد).

وقد ذكر (د. الحمد) أنَّ أحد المؤلفين أخبره أنهُ وجد كتبه مسروقة كاملةً بنفس الفكرة وطريقة العرض والأسلوب مع تغيير طفيف، وعلَّق قائلًا للدكتور (الحمد) بأنَّ الأمر سيهون لو كان هذا السارق سرق الفكرة فقط من كتبه، أو أنه استفاد منها من بعض الفصول، أو أنه نقل عنها بدون عزو، أما أن يسلخ كتابي كاملًا، فهذا شيءٌ لا يُطاق!

خذ بنصيحة (سيد الغوري) تجد البركة

نصح الكاتب (سيد الماجد الغوري) مَن أرد أن يدخل عالم التصنيف بأن يتحلَّى بالأمانة العلمية، التي هي زينة العلم وروحه، وتدلُّ على كمال خُلق المؤلف وعظيم أدبه.

ومن الأمانة ـ كما يقول (الغوري) ـ أن يعزو الكاتب الأقوال إلى قائليها، ويذكر مصادره التي اعتمد عليها في البحث، ولا يتساهل في النقل عن الكتب دون العزوِ إليها، ليوهم غيرَه أنها من بنات أفكاره، بل عليه أن ينسب الأقوال والأفكار إلى أصحابها دون أدنى غضاضة، سواء أكانت هذه الأفكار أو الأقوال من صغير أم كبير، من مسلم أم كافر، من بر أم فاجر، من متقدم أم متأخر.

كما ذكر (الغوري) نقطة مهمة جدًّا، وهي أنَّ على المؤلف أن يتحلَّى بالأمانة أيضًا عند نقله نصًّا من كتاب، فعليه أن يُوضِّح هل نقله كما هو في الأصل، أم قام فيه بتصرف؟ وهل هذا التصرف فيه يسير أو باختصار، أو بزيادةٍ منه؛ لأنه يجب على الكاتب ـ كما يؤكِّد (الغوري) ـ أن يكون شديد الحذر والحيطة في هذا النقل حتى لا يُفسد ما أراد كاتبه أن يُوصله.

تعقيب على نصيحة (سيد الغوري)

صدق (الغوري) في نصيحته، فكم قد قرأتُ من كتبٍ نَسَب مؤلِّفوها أفكارًا لكُتَّاب غيرهم ـ ممَّن ذكروا مصادرهم وهم قلَّة ـ، وعند الرجوع للنصِّ الأصلي من الكتاب، أجد أنَّ المؤلِّف لم يَقصِد الفكرةَ التي اقتبسها منه الكاتب، أو أنَّ هناك تفصيلًا مهمًّا ينبغي توضيحه في الفكرة لم يذكره مؤلفه، فقد أخذ المؤلِّف ما أراده ليوهم أنَّ هذا المؤلِّف متَّفق مع فكرته.

كذلك في النقل عن النصِّ تحدث هفوات كثيرة، فعندما أرجع إلى النصِّ لا أجد تطابقًا في الكلام، وأحيانًا أجد إضافات غير موجودة في النصِّ الأصلي، وأحيانًا أجد أنَّ الكلام مبتور يقلب الفكرة المقصودة، ولكنَّ المؤلِّف لم يوضِّح في نقله أنه بتصرُّف أو زيادة منه وغير ذلك.

وقد يحدث هذان الفعلان ـ أعني تغيُّر فكرة المؤلِّف أو عدم الدقَّة في نقل النص ـ عن قصد أو عن دون قصد. فقد يلتبس على الكاتب أحيانًا كلام المؤلِّف، فيَفهم منه عكس مقصوده، فيذكر أن الكاتب الفلاني يتبنى هذه الفكرة، وهو لم يتبنَّها أصلًا، إنما الخلل في فهم النص من قِبل الكاتب؛ لذلك ذكروا أن سبب عدم ذكر الكثيرين مصادر بحثهم؛ لخوفهم من أن يكتشف أحدهم أن فهمهم كان خاطئًا. لكن هذا الخوف لا يُبرر عدم ذكر المصادر والمراجع، وسوء الفهم قد يحدث لأي قارئ أو كاتب مهما علا شأنه.

الآفة الخامسة: اقتطاع جزء من النص لتشويه الفكرة

هذه الآفة مَن يفعلها فقد ظلم الكاتب وتقوَّل عليه ما لم يقله، وهي أن يقوم بتغيير فكرة المؤلِّف عن عمد؛ وذلك باقتطاع كلامه ليتوافق مع فكرته، ليوهم مَن يقرأ كلامَه المقتطع أن الكاتب الفلاني متَّفق مع فكرته ويُؤيد ذلك. ومثل هذا التصرف، يُعدُّ خيانةً كبيرة، ويدلُّ على عدم وجود أمانة علمية.

قصة حدثت مع (د. البيومي)

في هذا أذكر ما قاله د. (محمد رجب البيومي) أنهُ قرأ كتابًا اسمه (موجز التاريخ العربي)، وقد نسب فيه مؤلفاه كلامًا إلى الأديب الشهير (عباس العقَّاد) ولم يذكرا مصدر كلام العقاد، وخلاصة النصِّ المنقول للعقاد، أنَّ (العقَّاد) يُثبت فرية حريق مكتبة الإسكندرية بأمر من الخليفة الفاروق (عمر بن الخطاب) ـ رضي اللّه عنه ـ!

يقول (د. البيومي) بحثت في كتاب (عبقرية عمر) للعقاد أولًا، فوجدت النقل قد أُخذ منه، أي أنهما أخذا كلام (العقاد) من هذا الكتاب، لكنهما ـ وللأسف ـ اقتطعا كلامًا من نص (العقاد) ليظن من يقرؤه أنَّ (العقاد) يُثبت هذه الفرية، مع أن (العقاد) رأيه عكس ذلك تمامًا، حيثُ أوسع المسألة تحليلًا وبحثًا بما يُثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن هذه الفرية باطلة، ولكن لوجود هوى عند الباحثين، اقتطعا الكلام الذي يُفهم منه كأن (العقاد) يقول عكس ذلك! وهذا التصرف ليس من الأمانة العلمية في شيء، بل هو تزوير وافتراء يضر الباحثين ولا يضر (العقاد).

ما هي النتيجة إذا كنتُ أمينًا في نقلي؟

أنا على يقين أخي الباحث عندما تكون أمينًا في نقلك لأفكار ونصوص غيرك، ولا تنسب لنفسك فكرة لم تأتِ بها من رأسك، بأن اللّه سيبارك لك في ما تُقدِّم أولًا، وسيرزقك القبول، وسيحترمك القُراء كثيرًا وستكبر في أعينهم، بخلاف مَن يحاول أن يُظهر نفسه فوق ما عليها، وبأنهُ باحث

ومُفكر عميق، فسرعان ما ينقلب الأمر عليه ويعرف متابعوه حقيقته، وأنهُ يأخذ جهد غيره، فيضر نفسه من حيث أراد أن ينفعها. وعندها يكون وقت الندم قد فات ولم تبقَ إلا الحسرة.

الإمام (السيوطي) وأمانته

أُحبُّ أن أشير هنا إلى إمام عظيم وعالم كبير من العلماء، وله مؤلَّفات تجاوزت الستمائة كتاب، وقيل ألف كتاب، أعني الإمام (جلال الدين السيوطي)، فعلى الرغم من غزارة علمه فإنهم قالوا عنه إنهُ كان أمينًا في ما يكتب، لا ينسب كتب الآخرين إلى نفسه، بل يحرص على أن ينسب ما اقتبسه من الكتاب إليهم.

فالسيوطي لم تمنعه مكانته الكبيرة بين العلماء أن ينسب لنفسه شيئًا لم يقله، أو يأخذ كلام غيره حتى من هم أدنى منه مرتبة في العلم، وهذه أمانة لا تجدها إلا في القلة القليلة من العلماء والأدباء والكُتَّاب والمفكرين[15].

تعقيب

أن يعتبرك القُرَّاء كالنحلة تجمع الرحيق من ورود كثيرة ثم تُخرجه لهم عسلًا مصفى، خيرٌ لك من أن يعرفوا حقيقتك ـ ولو بعد زمن طويل ـ أنك منتحل، وأنك كنت تقرأ فقط لتأخذ الأفكار ومن ثم تنسبها لنفسك.

الطريقة الأفضل في ذكر المراجع؟

قد يسأل سائل: هل الأفضل أن يذكر المؤلف أو الباحث مراجعه أو لا يذكرها؟ وهل عليه أن يذكرها في موضوع الاستشهاد أم يكتفي بذكر المرجع في آخر الكتاب؟ وأقول: بالتأكيد أن تذكر مصادر بحثك ومراجعك مُفصَّلة، وأن تُشير في موضع الاقتباس في الصفحة في الهامش لاسم الكتاب والمؤلف وصفحة الاقتباس، أفضل من ذكرك لاسم الكتاب والمؤلف في نهاية الكتاب.

(أحمد شاكر) ينتقد طريقة توثيق (محمد حسين هيكل)

انتقد العلَّامة (أحمد محمد شاكر) في مقال له كان يتحدث فيه عن كتاب (الفاروق) للدكتور (محمد حسين هيكل)، أسلوب توثيق (هيكل) وقال إنه هو وكثير من المؤلفين المعاصرين معه، يقومون بذكر مراجع كتبهم جملة واحدة في آخر الكتاب فقط، ولا يُشيرون إليها في موضع الاقتباس.

وبيَّن (شاكر) أن هذا التصرف غير صحيح؛ لأن فيه إرهاقًا للمؤلف وتعمية عليه إذا ما أراد أن يتأكَّد من صحة النقل، أو يحقِّق في موضع يرى فيه رأيًا يُخالف ما ذهب إليه المؤلف.

(أحمد شاكر) يُثني على طريقة توثيق (يوسف العش)

في المقابل أثنى (أحمد محمد شاكر) في مقال آخر على أسلوب توثيق الباحث (يوسف العش)، حينما تحدث عن كتابه (الخطيب البغدادي)، وأعجبه أن (العش) يقوم بإرجاع كل شيء إلى مصدره، وذلك حتى لا يضل القارئ، ولا يشك فيما نقل.

وعقَّب (شاكر) بأنَّ هذا هو الطريق القويم؛ لأن مَن لا يذكر مراجع كتابه بالتفصيل، لا تستطيع أن تتعقَّبه، ولا تستطيع أن تعرف أنقل حقًّا أم أخطأ عن غير عمد، أم شيئًا غير ذلك لا يُحب أن يُسميه!

الأهم أن تذكر مراجع بحثك

وذِكْرُك ـ أخي الكاتب ـ لمراجعك ومصادرك في آخر الكتاب، وإنْ لم تُشر إلى موضع النقل في كل صفحة في الهامش، أفضل من عدم ذكر مراجعك أبدًا، فالمؤلف الحقيقي ـ أولًا وأخيرًا ـ يرجو نفع الناس وإفادتهم بكتاباته ودلهم على الكتب المُهمة، كما يرجو قبل ذلك وبعده الأجرَ من اللّه سبحانه، والله العليم سبحانه لا يخفى عليه تعبك وسهرك وجهدك وإن سرقه البعض ونسبوه لأنفسهم، فهم ينفعون الناس بعلمك وإن لم ينسبوه لك، وكفى بهذا لك أجرًا عند علام الغُيوب.

وأقول أيضًا: حتى وإن خَفِيَ على الناس زمنًا طويلًا عملُك، وسَرق جهدَك غيرُك؛ فإن الحقيقة لا بدَّ أن تظهر في يوم ما، حتى لو كان هذا اليوم بعد رحيلك من هذه الدنيا، هذا المؤكد والمشاهد، ويكفي ـ كما قلت ـ أن اللّه يعلم بنيَّتك وعملك وهو المجازي وحده.

سبب انتهاجي للتوثيق الأخفِّ

أودُّ هنا أنَّ أوضِّح لماذا لم أقم بعمل هوامش في الصفحات التي توضح مراجع النقولات والاستشهادات بالتفصيل في كتابي (شجون القُراء) وفي هذا الكتاب، كما فعلت في كتبي الثلاثة الأولى، واكتفيت فقط بذكر المراجع في آخر الكتاب.

والسبب أني رأيت أنَّ بعض القُراء يتشتَّت من كثرة ذكر الهوامش في الصفحات وينفر من الكتاب تمامًا، حيث يعتقد أنهُ بحث أكاديمي جافٌّ مُمِلٌّ، فللتسهيل على هذا النوع من القُرَّاء، قمتُ بانتهاج هذا المنهج الذي يسلكه الكثير من الكُتَّاب، حيث يقومون بذكر المراجع مُفصلة ـ من اسم الكتاب والمؤلف والدار والطبعة وسنة النشر ـ في آخر الكتاب فقط، ولا يجعلون هوامش للنقولات والاستشهادات بين الصفحات إلا نادرًا، وإذا اضطروا إلى ذلك فإنهم يذكرونه مع الكلام في الفقرات؛ وذلك لكي يكون الكتاب سَلِسَلًا في قراءته ولا تنقطع حبل أفكار من يقرؤه.

فهذا سبب توجُّهي لهذا النهج، وهو مراعاة هذا النوع من القُراء؛ مع أنني أفضل توثيق كل معلومة أذكرها في الصفحات على الهوامش.

التوثيق أنواع

التوثيق ـ كما هو معلوم ـ أنواع، والمؤلَف يختار ما يرتاح له، ويبقى الأهم في مسألة التوثيق أنَّ على المؤلف ألَّا ينسب لنفسه كلامًا قد قاله غيره، بل عليه أن يذكر مَن صاحب هذه المقولة قدر الإمكان، وإذا لم يعرف فعليه أن يوضِّح أنهُ ليس هو صاحبها، وكذلك لا يأخذ أفكار غيره وينسبها لنفسه، بل عليه أن يُشير بأنَّ الفكرة مقتبسة، هذا هو المُهم.

النصيحة والتوجيه

الخلاصة من هذا المقال ـ أخي ـ يا من انتهجت الكتابة أو الخطابة أو إلقاء المحاضرات والبرامج في أمرين:

الأمر الأول: الكاتب أو الباحث عندما يذكر لك مصادر كتبه أو بحثه مُذيلة بأرقام الصفحات والطبعات، ليس لتأخذها وتنسبها لنفسك؛ بل يذكرها لك للمصداقية وللأمانة. وهو يذكرها كذلك لأنه يعلم أنَّ بعض القُراء تكون لديهم رغبة في أن يتوسعوا في قراءة الموضوع أكثر؛ فلذلك يُحيلهم على مراجع ومصادر بحثه.

والأمر الثاني: لكي تنال بركة العلم من اللّه، عليك أن تذكر كلَّ من أفادك ودلَّك على مقولة أو فكرة أو غيرها، ولا تتحرَّج من ذلك، ولا تظن أنَّ هذا التصرف يُقلل من شأنك وقيمتك، بل يرفع من قيمتك.

عندما يفقد الكاتب مسوَّدة كتابه!

هل حصل لك أن كتبت ذات يوم مقالًا أو بحثًا ـ ولو كان بسيطًا ـ ثم فقدته، أو حُذف من جهازك بطريقة أو أخرى؟ كيف كان شعورك؟ وما مدى الألم الذي أصابك عندما تيقَّنت أنَّ ما كتبته قد ذهب تمامًا ولا يُمكن إرجاعه وليس لديك نسخة أخرى منه؟

ألا تتَّفق معي أنهُ شعور صعب جدًّا، خصوصًا عندما تكون قد عملت بجدٍّ على البحث، فاجتهدت وبحثت كثيرًا وكتبت وأعدت الكتابة لأيام طويلة وربما لشهور ثم خسرته؟ كيف يكون إذن شعور مَن يفقد مخطوطة كتاب عمل عليها لسنوات؟ وما مدى الحسرة التي تُصيبه؟

أصناف الكُتَّاب عند فقد المسوَّدة

المؤلفون ينقسمون غالبًا إلى صنفين في التعامل مع فقد إحدى مسوَّدات كتبهم: الصنف الأول يُصاب بالذهول والإحباط والحسرة ولا يستطيع أن يُعيد كتابة المسودة مرة ثانية. والصنف الثاني لا يستسلم وإن أُصيب بالإحباط لفترة من الوقت، بل يبدأ العمل من جديد على إعادة كتابة المسودة. وهنا سأسرد بعض الأمثلة من الصنفين.

القسم الأول: مَن فقد مخطوطته ولم يستطع إعادة كتابتها من جديد

أولًا: مخطوطة (العراق كما رأيته) لأحمد الزيات

ذكر الأديب الشهير (أحمد حسن الزيات) في وحي رسالته أنهُ في عام 1932م جلس أمام المدفأة ليكتب الفصل الأخير من كتاب كان يعمل عليه سمَّاه كتاب (العراق كما رأيته). هذا الكتاب كان نتيجة ثلاث سنين من العمل، حيث أمضى (الزيات) يجمع مادة الكتاب من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث في سنتين، وجلس لتحرير الكتاب سنة أخرى.

وقد ذكر (الزيات) أنهُ عرض مخطوطة الكتاب على الزعيم العراقي الكبير (ياسين باشا الهاشمي)، فأعجب بالكتاب كثيرًا، لكنهُ طلب منه أن يُؤخر نشره قليلًا بسبب القسم السياسي في الكتاب، أما القسم الأدبي والاجتماعي فهما في الأدب والنقد والتاريخ نصر وفتح. فوافق (الزيات) على رأي (ياسين باشا)، وأعاد المخطوطة الغالية إلى مكانها في درج المكتب، لكنه قام بنشر مقالين أو ثلاثة من الكتاب في مجلة (الرسالة)، وأُعجب بهما القُراء.

يقول (الزيات) إنهُ ذات يوم أخرج مخطوطة الكتاب من درج المكتب، ليختار منها فصلًا للرسالة، فاختار قطعة أدبية وألقى المخطوطة على جانبه، وانشغل بتصحيح بعض الملازم، ولما فرغ منها دفعها إلى غلام المطبعة، وخرج لينسى مخطوطة الكتاب لخادمة البيت تكنسها وتطرحها في صندوق الكناسة، ليأتي الزبال بعد ذلك ويأخذ ما في الصندوق إلى الموقد!

لقد احترق الكتاب وتألَّم (الزيات) كثيرًا، وقال عنها وعن ولده الذي وُلد في نفس العام الذي كان قد انتهى فيه من كتابة المخطوطة، وفقدهُ أيضًا: «كان طفلي وكتابي أعز شيء عليَّ؛ لأنَّ ابن نفسي كان نتيجة أربعين سنة من خير عمري، وابن فكري كان نتيجة ثلاث سنين من خير عملي». ثم قال بحسرةٍ وأسًى: «وهكذا قضى اللّه أن تذهب إلى العدم عصارة الفكر في فترة ضائعة من فترات الغفلة! وهيهات أن يكون لهما في الحياة عِوَض».

ثانيًا: رواية (الكأس الفارغة) لنجيب الكيلاني

في مذكراته يقول الأديب (نجيب الكيلاني) إنهُ كتب رواية تدور أحداثها في منطقة قنال السويس والصراع الدائر بين الفدائيين وبين القوات البريطانية المستعمِرة، وأسماها (الكأس الفارغة)، وسلَّم مخطوطة الرواية لصاحب الدار، الذي بدَوره سلَّمها لمطبعة (النزهة)، وعندما بُدئ الطبع وتمَّ تصحيح أكثر من مائة صفحة من البروفات، تم إيقاف مطبعة (النزهة)، وفرضت عليها الحكومة الحراسة واستولت على أموالها.

حاول (الكيلاني) لعدَّة شهور أن يحصل على مخطوطة روايته لكن دون جدوى، وللأسف لم يكن لديه إلا هذه النسخة التي ضاعت، فتحسَّر كثيرًا، وقال: «ضاع الجهد الذي بذلته في كتابة هذه الرواية التي كنتُ أعتزُّ بها أيَّما اعتزاز».

وعندما قالت له زوجته: لماذا لا تكتبها من جديد؟ ردَّ عليها قائلًا: «يصعب ذلك، فأنا لا أتذكّر إلا إطارها العام، والشيء الذي أكتبه مرة، لا أندفع إليه بنفس الحماسة إذا عدتُ لكتابته مرة أخرى».

ذكر (الكيلاني) أنهُ حزن أشدَّ الحزن على فَقْدِه لهذه الرواية مثلما حزن على فقد بعض أعماله الأخرى، كفقده لكتابه (الرافعي في موكب البعث)، وقد أحرقه شخص لا يُقدِّر قيمة هذا البحث، وكذلك مسرحية (حسناء بابل) التي صادرتها إدارة سجن (أسيوط)، وكلها لم يكن لديه نسخ أخرى منها.

ثالثًا: د. يوسف القرضاوي وفَقْده لبعض قصائده

ذكر (د. يوسف القرضاوي) في سيرته بعض القصائد التي كتبها ثم فقدها، ولم يكن لديه نسخ منها، ولا يحفظ من أبياتها إلا أبياتًا معدودة. وبعد أن ذكر (د. القرضاوي) بعض أبيات هذه القصائد، علق قائلًا: «كلها ذهبت فيما ذهب. تخلَّص منها إخواني الذين أودعتها عندهم خوف مداهمات التفتيش، وهذه ستكشفهم وتدلُّ عليهم، فلم يكن منهم إلا أن أحرقوها، وهم لا يعلمون أنهم إنما أحرقوا معها قلبي، سامحهم الله». ولا يخفى الحزن والتحسر في كلام (د. القرضاوي).

رابعًا: مخطوطة (موتسارت) لأنيس منصور

ذكر د. مجدي العفيفي أنَّ الأديب (أنيس منصور) قال إنَّه ألَّف كتابًا عن الموسيقار (موتسارت)، عن حياته وعن عذابه، وفي الكتاب دراسة عن الطفل العبقري، ودراسة عن أمراض عباقرة الموسيقى، وقد تعب (أنيس منصور) في جمع المعلومات وصياغتها، ثم ترك الكتاب سنة وراء سنة، وعندما بحث عنهُ بعد ذلك لم يجده!

القسم الثاني: من فقد مخطوطته وأعاد كتابتها من جديد

أولًا: كتاب (تعريف عام بدين الإسلام)

هناك صنف آخر من الكُتَّاب خسروا مخطوطات كتاباتهم، لكنهم ـ وإن تحسروا كثيرًا عليها ـ لم يسمحوا للحزن واليأس أن يُسيطر عليهم، فقاموا بإعادة كتابتها من جديد، ومن هؤلاء الشيخ الأديب الموسوعي (علي الطنطاوي)، حيث ذكر في مقدمة كتابه (تعريف عام بدين الإسلام) سبب تأليفه لهذا الكتاب، وقال إنه عمل الصيف كله، والسنة الجامعية بعده، حتى تجمع له ثلاثة أظرف كبار، فيها أصول كاملات، تحتاج إلى تصنيف وترتيب.

ثم قال (الطنطاوي) إنه ذهب إلى بيت ابنته في (الأردن) وقد حمل هذه الأظرف في يده، ويؤكِّد أنها كانت بيده وهو خارج من المطار، ثم ركب السيارة لتحمله إلى دار ابنته، وبسبب متاعب الانتقال ومباهج الاستقبال، ولقاء الأصحاب، لم يذكر الأظرف إلا بعد أسبوعين. فبحث عنها فلم يجدها،

ونفض الدار وسأل كل أحد، وراجع مخفر الشرطة، فلم يصل إلى شيء. يقول (الطنطاوي) بكلام واضح فيه الحسرة والحزن: «وبقيتُ أيامًا وأنا ذاهل متألم، لا أهنأ بطعام، ولا أستغرق في منام».

لكن (الطنطاوي) استعان بالله وبدأ يكتب من جديد الكتاب بأسلوب آخر لا يرجع فيه لمراجع، فقط من محفوظاته وما استقرَّ في عقله من كتب قرأها، ودروس حضرها على أيدي المشايخ، وقد ظهر الكتاب إلى حيِّز الوجود وتلاقفتهُ أيدي القُراء، ولاقى الكتاب قبولًا عجيبًا، وطُبع منه عشرات الألوف من النسخ، وأعيد طباعته مرَّاتٍ ومرَّات.

ثانيًا: كتاب (مذكرات الدعوة والداعية)

كذلك فعل الإمام (حسن البنا)، حيثُ ذكر في مقدمة كتابه (مذكرات الدعوة والداعية)، أنهُ أضاع المخطوطة التي كتبها لهذا الكتاب، لكنه مع ذلك قرَّر إعادة كتابتها من جديد، وبالفعل أعاد كتابة الكتاب ورأى النور، وما زال الكتاب يُقرأ حتى يومنا هذا.

ثالثًا: كتاب (افعل شيئًا مختلفًا)

يقول الكاتب (عبد اللّه العبد الغني) أنه أثناء العمل على تأليف كتابه (افعل شيئًا مختلفًا)، تعرض لمتاعب كثيرة، منها فقدانه لمسوَّدة الكتاب بالكامل، التي هي حصيلة عمل لأكثر من 30 ساعة ما بين بحث وكتابة وتأمل. لكنهُ لم ييأس، فقام بإعادة كتابته من جديد تحديًا لنفسه، وظهر الكتاب، وهو من الكتب المتميزة في مجالها.

رابعًا: كتاب (عائشة والسياسة)

ما حصل للنحوي البحَّاثة (سعيد الأفغاني) مؤلم جدًّا. يروي (د. مازن المبارك) القصة فيقول إنَّ الأستاذ (الأفغاني) كان يسكن في ضواحي دمشق حين كان يكتب عن (الإسلام والمرأة) و(عائشة والسياسة)، وقد أمضى في التأليف عشر سنوات، يجمع وينسق ويكتب.

حتى إذا ما انتهى الكتاب وتمَّت المسوَّدة؛ أتى فيضان لنهر (بردى) فطغى وغلب على البيوت وما فيها، وكانت المسوَّدة ــ وهي النسخة الوحيدة ــ في جملة ما حمل الفيضان، فبعثرت أوراقها، فكانت الأوراق تطفو وتغوص، والعيون تلاحقها بنظرات اللهفة والأسف والحسرة، ولم تُجدِ محاولات الجيران في اللحاق بها، فقد كان الفيضان أقوى منهم، فغابت الأوراق وغرق الكتاب!

يقول (د. المبارك) إن نفس الأستاذ (الأفغاني) امتلأت أسفًا وحسرة، وهو يرى جهود عشر سنوات تغيبُ تحت الماء، لكنه مع ذلك لم ييأس، بل امتلأ همةً وعزيمة بعد فترة، وعزم على إعادة التأليف من جديد، وهذا جهد ليس بالسهل، فإعادة تأليف كتاب ضاع مع مجهود عشر سنوات صعوبة يعرفها من خَبَرها وعاناها، وخصوصًا في عصر لم تكن فيه للمؤلف آلات تنسخ أو تطبع، ولا تقنيات تُعينه

على ما يُريد. يقول (د. المبارك): «وهكذا وُلد الكتاب من جديد بفضل ما اتّصف به مؤلفه من حزم وإرادة».

علَّق (د. المبارك) فقال: إن الأستاذ (الأفغاني) يُشبه صديقه النحوي (ابن هشام) الذي ضاع منه كتابه (المغني) بعد أن انتهى من تأليفه في مكة، لكنهُ عزم على إعادة تأليفه من جديد، فحبس نفسه حتى حقَّق رغبته، وأحيا كتابه الذي ما زال يُقرأ ويُنتفع به حتى اليوم.

خامسًا: كتاب (منتهى العجب)

كذلك خسر العلَّامة اللغوي (أحمد فارس الشدياق) ـ الذي يُعدُّ أشهر لسانيي العرب في القرن التاسع عشر، ومن روَّاد اللغة القلائل ـ أحد كتبه التي عمل عليها. فقد ذكر الكاتب (إبراهيم الأسطل) أن مخطوطة كتابه (منتهى العجب في خصائص لغة العرب) قد احترقت، فأعاد (الشدياق) كتابتها.

سادسًا: (أوريسون ماردن) وكتابه (الاندفاع إلى الأمام)

ذكر (د. سعد الكريباني) قصة الكاتب (أوريسون سويت ماردن)، وهي قصة جديرة أن تُروى لأخذ الفوائد منها، وأن على المرء ألا يستسلم بسهولة. يقول (د. الكريباني) عندما كان (أوريسون) في عامه الـ 43 استأجر غرفة في أعلى إسطبل للخيول ليعيش فيها ويتفرغ لتأليف كتابه. ظلَّ (أوريسون) عامًا كاملًا، ليلًا ونهارًا، يؤلِّف بخط يده كتابه الذي أسماه (الاندفاع إلى الأمام)، سرد فيه عددًا لا يُحصى من الرجال والنساء الذين ثابروا حتى حقَّقوا النجاح في النهاية.

كان الوقت في بداية المساء عندما أنهى (أوريسون) الصفحة الأخيرة من الكتاب، وأمسى منهكًا وجائعًا بعد ساعات طويلة من الكتابة والتركيز. نزل إلى مطعم صغير ليتناول العشاء، وفي أثناء تناوله لطعامه، شبَّ حريق في الإسطبل الذي ينام فيه، فانطلق مسرعًا فَزِعًا لإنقاذ كتابه، لكن لهب النار كان أسرع من خطواته، فالكتاب الذي يزيد على 550 صفحة كان قَد تفحم تمامًا.

في البداية سيطرت على (أوريسون) مشاعر الإحباط واليأس، لكنه بعد ذلك أدرك أن كتابه بالكامل يدور حول أهمية المثابرة، فكيف له وهو المؤلف أن يستسلم لأزمته؟ فقرر إعادة كتابته. وفعلًا بعد عام آخر تمَّ له ما أراد، وأكمل تأليف الكتاب.

ونُشر الكتاب في عام 1894م وحقق نجاحًا كبيرًا، وأصبح الكتاب الأكثر رواجًا في (أمريكا)، وأصبح مصدر إلهام لآلاف الناس وتشجيعهم، وأقر الكثير من كبار رجال الأعمال والساسة بالتأثير الكبير للكتاب على عقول صانعي القرار في الدولة، وعلى تاريخ كتب التنمية البشرية في ذلك الحين.

صنف ثالث نادر

هناك أيضًا صنف ثالث في التعامل مع فقد المخطوطة، لكنه نادر الحدوث، حيثَ يُصاب هذا الصنف بصدمة كبيرة قد تُسبب له عاهة مستديمة في جسمه أو عقله، عندما يفقد مخطوطة كتاب عزيز عليه.

إبراهيم العياشي

من الأمثلة على هذا الصنف ما ذكره الأديب (أنيس منصور) من أن له صديقًا من علماء المدينة المنورة اسمه الشيخ (إبراهيم العياشي). يقول (أنيس منصور) إنَّ هذا الشيخ قد ألَّف كتابًا عن الحجرات؛ أي الغرف التي سكنها الرسول ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ مع زوجاته، وقد أمضى في تحقيق أماكنها عشرين عامًا، وكانت امرأته قد ضاقت به، حيثُ تراه غارقًا بين الورق وفي المناقشات، ولا وجود له في البيت زوجًا وأبًا لخمس من الأولاد، فأحرقت المخطوطة ليُصاب الرجل بالشلل.

التوجيه والنصيحة

كما مرَّ معنا أنَّ فَقْدَ كتاب اجتهد فيه صاحبه أمرٌ ليس بالسهل أبدًا، وقد وقع لي عدَّة مرات أن قمت بالخطأ بحذف مقالات كتبتها، وأصابتني حسرة كبيرة بسبب ذلك. هذا فقط في مقالات تتكون من بضع صفحات، فكيف بكتاب يعمل عليه صاحبه لشهور وربما لسنوات؟! أعان اللّه كلَّ مَن فقد مخطوطة كتاب عزيز عليه، وألهمه الصبر والعِوَض في ذلك.

وهنا عزيزي القارئ أريد أن أوضِّح لك الهدف من سرد هذه القصص، وهو أن تكون حذرًا عندما تكتب بحثًا أو تؤلِّف كتابًا، وأن تحتفظ بعدة نسخ في أماكن متفرقة من كتابك أو بحثك الذي تعمل عليه.

لا تستهن بالأمر وتتراخَ وتَقُلْ: لاحقًا سأفعل ذلك. احرص كلما كتبت عدة صفحات، أن تحتفظ بما كتبته في مكان آخر غير جهازك الذي تعمل عليه، أو أن تقوم بإرساله عبر بريدك الإلكتروني، فما أكثر ما يتعطَّل الجهاز فجأة، وتخسر بحثك، وحينها لا ينفع الندم ولوم نفسك.

خذْ من هذه القصة عبرة

أخيرًا لا أنسَى ما أخبرني به أحد الإخوة، بأنه أعاد مادة كاملة في أحد فصول دراسة الماجستير، والسبب أنه كان يعمل على التقرير المطلوب منه تسليمه في جهازه، وللأسف لم يحتفظ بنسخة في مكان آخر، وقبل تسليم المشروع بنصف يوم، تعطل جهازه ولم يستطع إصلاحه، وخسر كل ما فيه ومن بين ما خسره بحثه طبعًا.

الأخذ بالأسباب واجب، والحذر من وقوع مثل هذه المشاكل أمر ضروري جدًّا، والعاقل من اتَّعظ بغيره، وجنَّب نفسه الوقوع في مثل هذه الأمور.

الفصل الرابع:

كيف أكون كاتبًا؟

تمهيد

سألني ـ على صفحاتي في مواقع التواصل الاجتماعي وفي محاضراتي، سواء عبر العالم الافتراضي أو العالم الواقعي ـ شباب كُثر متحمسون، عن الخطوات اللازمة لتأليف كتاب، وما هي أهم النصائح في ذلك؟ فهم يملكون الرغبة الشديدة في التأليف ولكنهم لا يعرفون كيف يبدءون، وليس لديهم العلم بالطرق الواجب عليهم اتخاذها.

وإني سعيد بهذا الحماس الذي أجده لديهم، وأسعدُ كثيرًا عندما يسألني أحدهم مثل هذه الأسئلة، وأجد عنده مثل هذا الطموح العالي. لذلك فضلت أن أتحدث عن هذا الموضوع بالتفصيل من خلال عشرة محاور أراها مهمة، ليكون بحثًا مستفيضًا واضح المعالم لكلِّ مَن يُريد أن يسلك درب الكتابة.

فكما أن لكلِّ صنعة قواعد وقوانين على الشخص الالتزام بها ليقوم بهذه الصنعة، وإذا لم يلتزم فإن صنعته ستكون ناقصة أو غير ذات جودة، فكذلك التأليف له قواعد عامة ينبغي الالتزام بها والسَّيْر عليها إذا أراد أحدهم أن يُنتج عملًا جيدًا، فالموهبة ـ وسنفصل في هذا الموضوع لاحقًا ـ وحدها لا تكفي لصنع كاتب جيِّد. ولنبدأ بالمحور الأول.

المحور الأول: أهمية التأليف

رُبَّما يستهين البعض بمسألة تأليف الكتب، ويعدُّ هذا العمل من عمل الكسالى الذين لا يُحبون أن يتحركوا أو يفعلوا شيئًا، فيظن فقط أنهم يجلسون على مقاعدهم يقرءون ويكتبون، وزاد الوضع تأزُّمًا ما نراهُ من كثرة من يُصْدرون كتبًا في وقتنا الحالي وكتبهم هذه لا تُضيف جديدًا لقارئها، فهي إما تكرار لما سبق، أو لا تحوي مضمونًا عميقًا، فتجد كثيرًا من هذه الكتب عبارة عن كلام عادي جدًّا تجد أشباهه في رسائل (الواتساب) وغيره، حيثُ لم يقم مؤلفه بجهدٍ سوى أنهُ قام بجمع هذه المواضيع في كتاب وغيَّر فيها القليل أو الكثير أحيانًا!

وكم اشتكى لي قارئ أو مؤلف من هذه الظاهرة، وأنهم دفعوا أموالًا ليست بالقليلة في شراء مثل هذه الكتب التي لا تستحق الاقتناء، خصوصًا في فترة اجتياح فيروس (كورونا) وإغلاق بعض النشاطات، التي منها المكتبات، حيث صار الشراء إلكترونيًّا، مما صعب عملية تصفح الكتاب ومعرفة مضمونه، فينخدع مشتريها ليكتشف ـ بعد فوات الأوان ـ أنه اشترى كتبًا دون المستوى أو لا تصلح له.

ومع ذلك، فإن التأليف شيء عظيم جدًّا، وهو من أهمِّ الأمور التي تُساهم في تغيير أفكار المجتمع، وترفع من وعي أفراده. وهو كذلك من أعظم الأعمال الصالحة ـ إذا خلصت النية ـ التي تبقى بعد موت صاحبها.

د. عبد العزيز الحربي

يقول (د. عبد العزيز الحربي) أنهُ تأمَّل في الحديث المشهور الذي رواه الإمام (مسلم): (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له). فوجد أنَّ الصدقة بالرغم من نفعها الكبير إلا أنها قد تهلك لآفة من الآفات وقد لا تستمر بعد موت صاحبها طويلًا، وكذلك دعاء الولد الصالح وإن كان أعظم بركة ونفعًا، فإنهُ قد ينقطع بموت الولد.

أما العلم فهو الكنز الذي لا ينفد، وهو الذي يُنير حياة الناس ويُبدد الظلمات، ويبقى ما بقي الناس. ثم قال (د. الحربي) إن شئت فانظر إلى مَن مات من العلماء الذين تركوا علمًا نافعًا سواء في كتب، أو في تسجيل صوتي أو مرئي، تجد أن الناس ما زالت تنتفع بعلمهم.

وصدق (د. الحربي)، وأبسط مثال على ذلك، عندما نُشاهد حلقات تفسير الشيخ (الشعراوي) تُعرض في القنوات وتُذاع على الراديو إلى يومنا هذا (2022م)، نشعر أن الشيخ لم يمت بل ما زال حيًّا، رغم أنهُ قد رحل عن دنيانا منذ عام 1998م. رحمهُ اللّه، رحل وبقي علمه ينتفع به خلقٌ كثير وتأتيه حسنات علمه ـ بإذن الله ـ وهو في قبره.

فأحسن الناس هو مَن يترك علمًا، سواء كان عن طريق تأليف الكتب أو بأي طريقة أخرى كما قال (د. الحربي).

الإمام (السيوطي)

وقبل (د. الحربي) تحدث الإمام الكبير (جلال الدين السيوطي) في رسالة لطيفة له بعنوان: (التعريف بآداب التأليف) عن أهمية التأليف، وبيَّن أنَّهُ أفضل من الصدقة ودعاء الولد، فبعد أن ذكر الحديث الشريف السابق الذكر، قال إن التصنيف (أي التأليف) أطول استمرارًا.

ثم نقل (السيوطي) كلامًا للإمام (تاج الدين السبكي) يقول في مضمونه إن العالِم وإن كان كبيرًا في علمه، فإن نفعه قاصر على حياته إن لم يترك علمه في كتابٍ يَخْلد بعده، أو ينقل علمهُ عنه تلميذ. ثم بيَّن (السبكي) أن التصنيف أرفع مكانًا، وأطول زمانًا، وأدوم.

كما أورد (السيوطي) مقولات أخرى لعلماء آخرين تُؤكِّد وتدل على عظم وأهمية التأليف، وأنهُ لو تُرك لضيع العلم على الناس.

الروائي (بلزاك)

التأليف شأنهُ عظيم، وما محاولة الكثيرين أن يُصبحوا كَتّابًا إلا دليلًا على أهميته، وهذا لا يعيبه في شيء؛ بل هذا يدل على مكانته الكبيرة التي يطلبها الذي يستحق والذي لا يستحق. تحدث الكاتب (ستيفان تسفايج) عن طموح الروائي الفرنسي الشهير (بلزاك) والذي كان مُعجبًا بالقائد الشهير (نابليون)، وقال إنَّ (بلزاك) كتب ـ في صغره ـ تحت صورة لنابليون: «سأُحقق بالقلم ما لا يمكن تحقيقه بالسيف».

لقد أدرك (بلزاك) أن للقلم تأثيرًا لا يقل عن تأثير السيف؛ أي خوض المعارك والانتصار فيها وفتح البلدان، بل ربما أكثر. وأدرك (بلزاك) أيضًا أنَّ مجد القلم يفوق أو يعادل مجد القائد الشجاع الذي يفتح المدن بعبقريته وحنكته العسكرية.

نعم، تأثير القلم يفوق تأثير القائد الفاتح، فإذا كان القائد العسكري يفتح البلدان؛ فإن الكاتب بقلمه يفتح العقول ويُنورها، ويجعلها تُبصر مساحة من الضوء لم تكن تراها من قبل، وصدق من قال: «إن القلم أعظم من السيف».

كما أن للكتب الجيدة ميزة، وهي ـ كما ذكر الإمام (ابن الجوزي) ـ أنها تبقى بعد موت مؤلفيها وتُؤثر في أجيالٍ كثيرة لا يعلمها إلا اللّه، أما القائد البارع فبموته تموت معه ـ في الغالب ـ خبرته وحنكته العسكرية، إلا إذا وضعها في كتاب.

قرأ كتابًا فتغيرت حياته

كم تغيَّرت عادات شخص بسبب كتاب قرأه، وكم غيَّر هذا الشخص بعد ذلك من أشخاص كُثر في المجتمع، والأمثلة على ذلك كثيرة ذكرتُ طرفًا منها في كتبي السابقة، وأكتفي هنا بما قاله المخرج الأمريكي (سبايك لي) عن كتاب سيرة (مالكوم إكس) التي كتبها (مالكوم) بالتعاون مع (أليكس هاليي): «من أعظم الكتب التي قرأتها، لقد كان سببًا في تغيير أفكاري وتصرفاتي». كتابٌ واحد قرأه، غيَّر له مجرى حياته كاملًا.

المحور الثاني: هل الكتابة موهبة؟

هناك اعتقادٌ خاطئ لدى فئة ليست بالقليلة، حيث يظنون أن الكتابة موهبة إن لم يُرزقها الإنسان منذ ولادته فلا حظَّ لديه في الكتابة، وهذا وهمٌ انطلى على كثير من الأشخاص، فالموهبة وإن كانت تُوجِد الخيال الذي هو بذرة الكتابة، وقد تُسرع من تطور الكاتب كما قال (د. راشد العبد الكريم)، إلا أنها ـ كما ذكر ـ لا تكفي وحدها لصنع كاتب ناجح، فالكتابة مهارات يُمكن أن تُكتسب، وتُنمَّى بالدراسة والمِران والتدريب.

أليف شافاك

تقول الروائية التركية (أليف شافاك): «الموهبة مهما بدت متوهجة، لا تُساهم بأكثر من 12% في عملية الكتابة. العمل الدائب والصبور المتواصل هو ما يُساهم في 80% من التطور والارتقاء الكتابي. والـ 8% المتبقية يمكن نسبتها إلى الحظ، أو ـ بصورة أدق ـ إلى تلك العوامل التي تقع خارج نطاق إرادتنا وقدرتنا في التأثير».

لا بدَّ من صقل موهبتك

أي شخص يمتلك موهبة في مجالٍ ما ولم يسعَ لصقلها بالتدريب والممارسة، فإنها لا تلبث أن تموت، فالموهبة ليست كلَّ شيء. وليس معنى ذلك أنَّ مَن لا يمتلك الموهبة، أن كتاباته لن تكون جيدة. هذا الاعتقاد غير صحيح دائمًا، فقد يتفوق المجتهد على صاحب الموهبة إن اجتهد في تطوير نفسه.

ذكرت الكاتبة (آن مانهيمر) أنَّ النجاح قد يكون من نصيب مَن يملك موهبة قليلة لكنه يتحلى بالكثير من الصبر، فالصبر والتدريب والممارسة تجعل من صاحبها يتفوق على صاحب الموهبة الذي لم يُحسن استغلالها ويُنميها.

وكلام (آن مانهيمر) يؤكد المقولة التي تقول: «الاجتهاد أسرع من العبقرية»، وهو كلام فيه الكثير من الصحة.

المحور الثالث: لا تستصغر نفسك

لماذا لا تُؤلِّف؟

هناك مشكلة وجدتها لدى بعض القُرَّاء المتميزين الذين عرفوني من خلال كتبي وأكرموني بتواصلهم ومعرفتهم والجلوس معهم، حيثُ وجدت بعضًا منهم قُراءً جيدين، ولديهم مكتبة هائلة عامرة بالكتب الجيدة، ويقرءون منذ سنوات طويلة، بل إنَّ منهم مَن يقرأ منذُ أكثر من ثلاثين سنة، وعندما تجلس معهُ تستفيدُ منهُ علمًا كثيرًا، ولكن عندما أسأل أحدهم: بما أنك قارئ متميز، لماذا إذن لا تؤلِّف كتابًا تنفع الناس بعلمك؟

فأجد الردود متشابهة ومتقاربة من بعضها البعض، حيثُ يقولون: الكتب كثيرة، وماذا سيُضيف كتابنا للقُراء؟! وهل سيلتفت لكتاباتنا أحد مع كثرة الكتب المطبوعة؟ وما الجديد الذي سيكون في كتابنا ولا يوجد في غيره من الكتب؟

وغيره من الكلام المُثبط المُحبط الذي هو من أوهام النفس وحيل الشيطان، وغرضه التقليل من شأن النفس وتحقيرها!

أسباب تُحفزك للتأليف

ولكلَ مَن لديه مثل هذا الاعتقاد، أو حاول أن يكتب فجاءته مثل هذه الأوهام، أو أنهُ ذكر لأحد الأشخاص أنهُ يتمنَّى أن يؤلف كتابًا، فسمع منه مثل هذا الكلام، أقول له:

أولًا: قد ينفع الله بكتابك

إنك لا تعلم الغيب، فربما كتابك يجد القبول ويبارك اللّه فيه وينفع به من يقرؤه أكثر من كتب أخرى صدرت قبله. لا تستبق الأحداث وترجم بالغيب.

ثانيًا: مَن يؤلِّف يستفيد أكثر ممَّن يقرأ

أنت عندما تكتب في موضوع أو تبحث في مسألة تستفيد فوائد كثيرة لا تُحصى، وقد ذكر الكاتب (أحمد الطيار) فوائد كثيرة لمن يُؤلف، منها:

1

- أنهُ من أهم أسباب رسوخ المعلومات وثباتها وزيادة استِيعابها.

2

- أنهُ يُساعد على تنمية وصقل موهبة الكتابة والتعبير والتحرير.

3

- التأليف سبب لنشر علم قد ينفع الآخرين.

4

- التأليف وسيلة لكسب صداقات وعلاقات نافعة مثمرة.

ماذا استفدتُ بدخولي عالم التأليف؟

من تجربتي الشخصية البسيطة في التأليف أتَّفق تمامًا مع كلام (أحمد الطيار)، فعلى الرغم من أني كنت مولعًا بالقراءة منذ الصبا، وكانت كتب القراءة تستهويني بشكل خاص، لكني لم أفهم القراءة حقًّا وفوائدها وتأثيرها بعمق إلا بعد أن بدأت في كتابة كتابي الأول (القراءة صنعة العظماء).

حيثُ تحولت قراءاتي من قراءة عابرة إلى قراءة تحليلية مُركزة عميقة، تحاول أن تستنتج وتحلِّل وتربط الأفكار مع بعضها البعض، فصرتُ كلما قرأت كتابًا أقرؤه بتركيز عالٍ، فاستفدتُ وانتفعتُ واتَّضحت لي كثير من الأمور، التي كانت مُبهمة لديَّ قبل أن أدخل مرحلَة التأليف.

وبدخولي عالم التأليف عرَّفتني كتبي ـ بعد توفيق اللّه وفضله ـ على مُحبي القراءة والكتب في عُمان وخارجها، وعرفتني كذلك على كُتَّاب وأدباء من العالم العربي، بعضهم من المغرب وبعضهم

من الإمارات الشقيقة وبعضهم من المملكة العربية السعودية وآخرون من الكويت والعراق وغيرها من الدول العربية.

أدباء أفتخر بمعرفتهم وبتواصلي معهم ومحادثتهم، وفعلًا التأليف يمنحك صداقات وعلاقات مع أشخاص في نفس اهتماماتك وشغفك، تستفيد من آراءهم وملاحظاتهم، ويُشاركونك خبراتهم وتجاربهم في الكتب والحياة.

ثالثًا: حارب أوهام النفس

أوهام النفس تأتي لكلِّ الأشخاص بلا استثناء، ولكن هناك مَن يُصدِّقها ويستسلم لها ويعتقد بصحتها، وهناك من يُدافعها ويحاول أن يثبت لنفسه أنهُ على العكس من ذلك. نعم، حذَّروا من الغرور وإعجاب الإنسان بنفسه، لكنهم أيضًا حذَّروا في الجانب الآخر من استصغار الإنسان لنفسه واستحقارها.

المنفلوطي يُحذِّرك أن تستصغر نفسَك

للأديب العملاق (مصطفى المنفلوطي) في نظراته مقال جميل عنونه بـ (النبوغ)، يُحذر فيه من استصغار الإنسان لنفسه وتقليله من شأنها. وعند (المنفلوطي) أنَّ من يُخطئ في تقدير قيمة نفسه برفعها أكثر من منزلتها، خيرٌ ممَّن يُقلل من نفسه ويزدريها، وعلَّل ذلك بأنَّ الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه فإنهُ يأبى لها من الأعمال إلا ما يُشابه اعتقاده عنها، فتراه صغيرًا في علمه، في أدبه، في مروءته، في طموحاته، بل في جميع شئونه.

ووضَّح (المنفلوطي) بأنَّ الهمة العالية ـ أي وثوق الإنسان بنفسه ـ هي أحسن ذريعة للنبوغ في الحياة، وقال بأنهُ ليس هناك أحوج للوثوق بنفسه من طالب العلم؛ لأن حاجة الأمة إلى نبوغه أكثر من حاجتها إلى غيره.

قصة صديق د. المسيري

خير مثال على ما يفعله استصغار الإنسان لنفسه وعدم ثقته بها، القصة التي رواها (د. عبد الوهاب المسيري) في سيرته (رحلتي الفكرية). يقول (د. المسيري) إنَّ لديه صديقًا في الولايات المتحدة ذكيًّا إلى أقصى درجة، ولكنه لم يكن يتمتع بأي ثقة بالنفس. لذلك كان يكتب الأبحاث ويُعيد كتابتها ولا يُقدمها إلا بعد إلحاح منه ومن زملائه الآخرين.

يذكر د. المسيري أنهُ زاره مرة فوجده مبتئسًا، والسبب في ذلك أنهُ كان عاجزًا عن كتابة بحث مطلوب منه عن حوارات أفلاطون. فطلب د. المسيري منه الأوراق، فوجد أنهُ قد كتب بحثًا ممتازًا. عندها قال له د. المسيري إنهُ سيأخذ الأوراق بحجَّة قراءتها بتمعُّن في البيت.

ثم قام د. المسيري بإرسال البحث إلى أستاذه الذي منحه درجة الامتياز على بحثه هذا. ثم يذكر د. المسيري أنهُ بعد عام تقريبًا وصل إلى صديقه هذا خطاب من إدارة البعثات لتجديد البعثة يخبرونه بأن أستاذه يعد بحثه عن حوارات أفلاطون أحسن ما قرأ من بحوث عبر حياته الأكاديمية! يقول د. المسيري: لكن ـ وللأسف ـ استمر عدم الثقة ملاصقًا لصديقه!

هذه القصة تُبيِّن لنا ما يفعله عدم الثقة بالنفس، فشخص كصديق د. المسيري، خسر الناس مواهبه وإبداعاته وبحوثه، والسبب عدم ثقته بنفسه رغم ذكائه وعبقريته.

رابعًا: تجنب المُخذلين

ينبغي ألَّا تستسلم لكلام المُخذِّلين، ولا تُعيره أي اهتمام، فإذا قالوا لك: ماذا سيضيف كتابك؟ ومن سيقرؤه؟ ومن يقرأ كتبًا هذه الأيام؟ تجاهل الرد عليهم، وصُمَّ أذنيك عن كلامهم ولا تُدخله في عقلك ولا تُفكر فيه إطلاقًا. اجعل إنتاجك يُثبت لهم أنهم كانوا مُخطئين، وأنك تستطيع الإنجاز، وأن هناك ما زال من يقرأ.

بين الإمام (الشافعي) وصاحبه (البويطي)

ذكر الإمام (السيوطي) أن (البويطي) قال للإمام (الشافعي): «إنك تتعنى في تنظيف (أي تهذيب) الكتب وتصنيفها، والناس لا يلتفتون إلى كتبك، ولا إلى تصنيفك!». فقال له الشافعي: «يا بني: إن هذا هو الحق والحق لا يضيع».

وإلى يومنا هذا ما زالت كتب الإمام الشافعي تُقرأ وينتفع بها طلبة العلم، فلو استمع الشافعي إلى كلام البويطي، لما صار الشافعي هو الشافعي الذي تعرفه الدنيا كلها.

عند تأليفي لكتاب (القراءة صنعة العظماء)

أذكر في مرحلة تأليفي لكتابي الأول (القراءة صنعة العظماء) وبعد أن جمعت تقريبًا قُرابة عشر قصص، أني أخبرت أحد الزملاء بأن لدي فكرة بأن أجمع قصص الأشخاص الذين صنعتهم القراءة وجعلتهم عظماء مؤثرين، ولم أخبره أني بدأت العمل على هذه الفكرة، فقط لأرى وجهة نظره في الموضوع.

فقال لي: وما فائدة مثل هذا الكتاب؟ وما الذي سيُضيفه للقُراء؟ ومن يقرأ هذا النوع من الكتب؟ والحمد للّه أني لم ألتفت لكلامه وإن شعرتُ بإحباط بسببه لعدة أيام، لكنه سرعان ما تلاشى وعدتُ أعمل من جديد، بل ضاعفت من عملي على الكتاب حتى خرج الكتاب بفضل اللّه أولًا وأخيرًا.

الرسالة التي أريد إيصالها من ذِكري لهذا الموقف، هو أن المُحبطين والمُخذِّلين موجودون في كلِّ زمان ومكان، لا يعملون ويُؤذيهم أن يعمل غيرهم كما قال (طه حسين)، والتجاهل وعدم الالتفات

لكلامهم والانهماك في العمل، هو أفضل رد عليهم.

التفاعل مع كتاب (القراءة صنعة العظماء)

قد الْتقت لكتابي ـ ولله الحمد ـ عدد كبير من القُراء من داخل بلدي وخارجها، وكانت الردود الإيجابية التي تلقيتها من القُراء حافزًا لي إلى مواصلة التأليف والاستمرار فيه بعد توفيق اللّه بالتأكيد. ردود كثيرة أسعدتني وبيَّنت لي صحَّة المقولة التي تقول: «لا أحد أقل من أن يُفيد، ولا أحد أكبر من أن يستفيد».

أذكر أنهُ تواصل معي شخص من (الأردن) عبر حسابي في (تويتر)، وقال لي: أنا طالب جامعي دخلت مكتبة ووجدت كتابك (القراءة صنعة العظماء) معروضًا، فشدني العنوان فاشتريته، وبدأت في قراءته من الساعة الثامنة مساءً ولم أتركه حتى الخامسة فجرًا، كل قصة تدفعني لقراءة قصة أخرى، وإني متعجِّب ممَّا تصنعه القراءة، يا ليتني كنت قارئًا منذ الصغر!

وآخَر يقول لي: على الرغم بأني عُماني إلا أن كتابك (القراءة صنعة العظماء) هو أول كتاب أكمله تمامًا لمؤلف عُماني من الغلاف إلى الغلاف، لما يحويه من قصص عظيمة مفيدة. وآخر من المملكة العربية السعودية، قال لي: قد قرأتُ كتابك (القراءة صنعة العظماء) وأردت أن أقول لك إنهُ كانت قراءاتي قبل قراءة كتابك غير منظمة، وبعد قراءتي لكتابك انتظمتُ في قراءاتي.

أمثال هذه الردود دفعتني وحمستني لإخراج كتابي الثاني (لو كنا نقرأ)، وأن هناك من يقرأ فعلًا ويتابع ويستفيد وينتفع. ولا أنسَى عندما وصلتني رسالة على حسابي في (الإنستجرام) من إحدى الأخوات، تُخبرني أنه وقع بين يديها كتاب (لو كنا نقرأ) وأن هذا الكتاب هو أول كتاب تقرؤهُ في حياتها، وأن هذا الكتاب كان سببًا في جعلها تعشق القراءة بعد ذلك، وأنها تشعر بالندم لأنها لم تعرف أهمية القراءة قبل ذلك. وغيرهم الكثير والفضل للّه أولًا وآخرًا، فالتوفيق منه وليس لي حولٌ ولا قوة.

تنبيه

ليس معنى ذكر أخبار من أثنوا على كتبي أنه ليس هناك من انتقدها، النقد لا يسلم منه أحد كائنًا من كان، وسأرجع لموضوع النقد وكيف ينبغي أن يتعامل المؤلف معه في مكان آخر. كذلك ليس الغرض من ذكر هذه الأخبار التفاخر والتباهي، بل الغرض منه إيضاح أن على الإنسان ألَّا يحتقر نفسه، فإنه لا يدري فربما لديه الكثير الذي يستطيع أن يُقدمه وينفع به.

خامسًا: قد تتميز بشيء ليس عند الآخرين

أذكر في بداية سنوات قراءاتي أنهُ كان لديَّ اعتقاد بأنَّ ما أعرفه قد يعرفه غيري من الكُتَّاب والأدباء وطلبة العلم والقُراء، وأن كل كاتب وطالب علم هو قارئ نهم يشتري جديد الكتب دائمًا، لكن لقائي

بكثير منهم والجلوس معهم، غيَّر لديَّ هذه النظرة إلى العكس تمامًا، فأصبح لديَّ اعتقاد أنَّ المؤلف المستمر في القراءة ومتابعة الجديد هو النادر من بين المؤلفين، وتيقَّنت حينها أن الإنسان قد يكون لديه الكثير الذي لا يعرفه حتى الكُتاب وطلبة العلم.

ألَّفتُ كتابًا ولكن مبيعاته قليلة!

قد يقول أحدهم: لقد اجتهدت وتعبت لفترة طويلة وألَّفتُ كتابًا قيِّمًا، لكن لم يُبَعْ منه إلا نسخ قليلة، والتفاعل من قِبل القُراء أقل من أن يُذكر! بينما الكتب التجارية التي لا تحوي أي قيمة طبعاتها تنفد بسرعة فائقة!

وأُجيب بأنهُ ليس شرطًا أنَّ كلَّ مَن يُؤلِّف كتابًا قيِّمًا أن يلتفت إليه جميع القُراء ويُصبح الأكثر بيعًا. الكتاب لو استفاد منه أشخاص معدودون وتأثروا به، يكون قد ساهم في التغيير وأدى دورًا مهمًّا.

بل ربما أحيانًا شخص واحد يقرأ كتابك ويتغير إلى الأفضل بسببه، وبعد ذلك يُصبح هذا الشخص مؤثرًا في قادم الأيام، فيُؤثر فيمن حوله من أصدقائه وأقربائه وزملائه، فتكون أنت أحد الذين ساهموا في نفع هؤلاء جميعهم.

فَضَعْ في اعتبارك أنَّ كتابك قد لا يُلاقي قَبولًا في بداية صدوره، ويكون الالتفات إليه قليلًا، فلا تتزعج من ذلك، فإنك لا تعلم ما تُخبِّئه لك الأيام والسنوات القادمة، فقد يُلتفت إليه بعد ذلك ويُقرأ كثيرًا ويُستفاد منه. وقد لا يُلتفت إلى كتابك كثيرًا في حياتك، لكن بعد مماتك يُعاد طبعه وينتفع به جيل جديد من القُراء.

الكتب كثيرة!

لمن يقول إنَّ الكتب كثيرة في هذا المجال ولسنا بحاجة إلى زيادة عدد فيها! نوضِّح له أنَّ مَن يجتهد ويبحث ويقرأ بعمق، لن يأتي كتابه تكرارًا 100% لكتب سبقته، بل حتمًا سيكون في كتابه إضافة جديدة.

وقد قالوا إن الكتابة هي الأسلوب، ولا يوجد كاتبان متشابهان في أسلوب الكتابة، وإن تشابها في الحديث عن نفس الموضوع، فلكل كاتب أسلوبه الخاص وطريقته في عرض الموضوع.

والقُراء كذلك مختلفون، فلن تجد كاتبًا يُعجب به كل القُراء، فلكل قارئ كتابه كما قالوا، وكل كتاب له قارئ. فكتابك قد يصلح لفئة أو شريحة معينة، وكتاب غيرك يُخاطب شريحة أخرى مختلفة، وإن كانا يتحدثان عن نفس الموضوع.

المحور الرابع: هل للتأليف عُمر مُحدد؟

هناك تساؤل قد يدور في بال بعض الأشخاص، وهو: هل للتأليف عُمر معين؟ هل هناك مرحلة عمرية معينة إذا كتب الإنسان فيها تجعل تأليفه أكثر إبداعًا وتميُّزًا، وهل من يُؤلف مُبكرًا لن يكون إنتاجه قويًّا؟ حيثُ تجد البعض يستنكر مثلًا أن فلانًا قام بالتأليف وهو في عقد العشرين مثلًا؟ فيزهد في كتبه!

الجواب بأنه لا يوجد عُمر مُعين للتأليف، فمتى ما استعدَّ الإنسان واجتهد وكون نفسه التكوين الصحيح، فبإمكانه أن يكتب ويبدع.

الإبداع غير مرتبط بالعمر

الإبداع ليس مرتبطًا بمرحلة عمرية معينة، والنضج لا يحدث بوصول الإنسان لمرحلة عمرية مُحددة، بل باجتهاد الإنسان وسعيه لتطوير نفسه، وقد أكَّد الباحث (ثامر عدنان شاكر) ذلك، حيث بيَّن أن فقط 10% من نُضجنا يأتي من خلال السِن، أما الباقي وهو 90% فيعتمد علينا وعلى سعينا في تطوير أنفسنا من خلال القراءة والبحث والتأمل والاستفادة من تجارب الآخرين ومخالطة الناجحين.

فالنضج ليس عملية أوتوماتيكية تحدث تلقائيًّا هكذا، دون أن يكون لنا يدٌ فيها؛ بل هو عملية مقصودة لا بدَّ فيها من تخطيط وجِدٍّ واجتهاد واستثمار لمواهبنا، حتى نحصل عليه.

ألَّفوا كتبًا وهم في عقد العشرين أو الثلاثين

العُمر إذن ليس له علاقة بإبداع الكاتب، الإبداع ـ بعد توفيق الله ـ له علاقة باجتهاد المؤلف وتكوين نفسه التكوين الصحيح، وهنا نذكر مثلًا الكاتب (كولن ويلسون) وكتابه (اللامنتمي) الذي أحدث ضجة كبيرة، وقد كتبه وهو في سن الرابعة والعشرين، فقد كوَّن (ويلسون) نفسه تكوينًا صحيحًا قبل ذلك بقراءة نهمة عميقة لا تُجارى.

وقبل هذا ألَّف العلامة (ابن الجزري) كتابه (منجد المقرئين) وهو في الثانية والعشرين من عمره، وألَّف الإمام (أبو حامد الغزالي) كتابه العظيم (إحياء علوم الدين) قبل أن يصل عُمره الثامنة والثلاثين عامًا.

فليس هناك عمر مُحدَّد للتصنيف، وإن كان اكتساب مهارة التأليف ـ كما يقول الكاتب (أحمد الطيار) ـ لا يكون إلا في أوائل العمر ووسطه، ومع ذلك نقول حتى مهارة التأليف تُكتسب ـ بإذن الله ـ مع تقدم العمر، متى ما اجتهد الإنسان.

رأي الإمام (ابن الجوزي)

ذكر الإمام (ابن الجوزي) في صيد خاطره بأن أفضل سن للتأليف هي في الأربعين، لمن كوَّن نفسه قبل ذلك جيدًا، وعلَّل ذلك بأنَّ بعد عقد الأربعين تبدأ حواس الإنسان بالضعف، فالوسط في عمر الإنسان هو العمر المناسب للتأليف.

والصحيح أنهُ متى ما كوَّن الإنسان نفسه التكوين الصحيح فعليه أن يبدأ في التأليف ولا يُسوف ولا ينتظر عقد الأربعين؛ لأنه لا أحد يعرف ماذا سيحصل له مستقبلًا من أشغال تمنعه من التأليف، ولا أحد كذلك يعرف متى يطرق الموت ـ الذي لا يستأذن ـ بابه.

كذلك عندما يبدأ الإنسان في تعويد نفسه على الكتابة، يعتاد ذلك ويتطور قلمه بمرور الأيام، فباستمراره في الكتابة ومداومته عليها، ينضج أكثر في التأليف ويزداد خبرة وتجربة، ولو لم يبدأ ويكتب ويستمر لما تطور قلمه ووصل إلى ما وصل إليه.

وهنا نُذكِّر بما أورده الأديب (الرافعي) حينما قال إنهُ بدأ في قراءة أعمال الإمام (محمد عبده) وهي مرتبة بتاريخ كتابته لها، فرأى في بداية كتاباته كلامًا لا يستحق أن يُقرأ ولا يساوي شيئًا، وبعد سنة تطوَّر قلمه قليلًا وصارت له آثار لا بأس بها، وبعد سنتين تدفق الشيخ، ثم ظهر إبداع الإمام (محمد عبده) المعروف بعد ثمان سنوات. فلو لم يمارس الإمام الكتابة ويُدرِّب قلمه، لما وصل لهذه المرحلة، فالتطور يحدث بالممارسة والتدريب.

المحور الخامس: أهم الخطوات كي تكتب كتابًا

هناك كتب كثيرة تناولت خطوات الكتابة بالتفصيل العميق، لكنِّي أذكر هنا أهم الخطوات التي أراها مهمة جدًّا والتي استفدتُها من قراءاتي في هذا الموضوع، مدموجة مع تجربتي في التأليف لأربعة كتب. وهنا أُحبُّ أن أُنوه أني أقصد التأليف البحثي وليس تأليف الرواية، وإن كانت هناك بعض النقاط المشتركة بينهما، لكن فنَّ كتابة الرواية مختلف وله تقنيات معيَّنة يعرفها أهل الاختصاص.

أولًا: اختر مجالك

في البداية لا بدَّ من اختيار مجال واحد تميل إليه النفس وترغب فيه، وهذه من أهم النصائح لمن يرغب في التأليف؛ فالتشتيت في مجالين أو أكثر يُضعف تركيز الإنسان ويُوزعه، فلا يستطيع الفرد أن يأتي بشيء مميز في أي من المجالات التي وزع فكره فيها.

وقد بيَّن (د. عبد الكريم بكار) أن الاختيار ينبغي أن يُبنى على أساسين؛ الأول: الحُب والميل. والثاني: الملاءمة لإمكاناتنا ومواهبنا واتجاهاتنا النفسية. وليس شرطًا أن يكون المجال الذي تميل إليه كمجال دراستك الأكاديمية، فقد يعشق الإنسان مجالًا مختلفًا عن دراسته الأكاديمية كما رأينا وسمعنا عن كثيرين.

وقد ذكر (د. بكّار) أنَّ كثيرًا من علمائنا في القديم والحديث، وكثيرًا من الكَتاب والمُفكرين والمُثقفين في كل أنحاء العالم، قاموا بصنع تخصصات لهم من خلال القراءة الحُرة، ومن خلال المُطالعة والمثاقفة والكتابة في فرع من فروع المعرفة.

وهنا أُحب أن أُنبِّه إلى أنَّ ليس كل العلوم يُمكن أن تُدرس بالقراءة الحُرة فقط، بل بعضها لا بد من دراسته دراسة أكاديمية أولًا، ثم بعد ذلك نُوسعهُ ونُنميه بالقراءة، كدراسة علم الطب مثلًا.

الإبداع يأتي بالتركيز

اختيار مجال واحد وبذل جهد فيه هو أحد أسباب الإبداع والإتيان بجديد في هذا المجال، وقد ذكر (د. طاق السويدان) في أحد برامجه أن الدراسات أثبتت أنَّ الإبداع والجديد لا يأتي إلا بعد التركيز على مجالٍ واحد لمدة لا تقل عن عشر سنوات.

كذلك ذكرت الكاتبة (إم جيه ريان) أن أحد الباحثين في جامعة (فلوريدا) توصل إلى أن الأمر يستغرق في المتوسط عشر سنوات من التدريب والتركيز كي يُصبح الإنسان خبيرًا في مجاله.

وهنا أُركز على أهمية اختيار مجال تميل له النفس وليس مفروضًا عليها، فالإبداع لا يأتي بالإكراه أو إرغام النفس؛ بل بما ترغب به النفس حقًّا من داخلها.

سبب نبوغ (أحمد شوقي)

تساءل أمير البيان (شكيب أرسلان) عن سبب نبوغ (أحمد شوقي) وتميزه في الشعر، حتى لقَّبوه بأمير الشعراء؟ وعدُّوه من أفضل شعراء العرب، وأن منزلته تأتي بعد منزلة (المتنبي) كما ذكر الشيخ (علي الطنطاوي). فكان (شوقي) إذا قال كلمة سارت في الآفاق، وتطاولت إلى قراءتها الأعناق، وفاق فيها على الشعراء باتفاق، كما يقول (أمير البيان).

يُجيب (أمير البيان) فيقول إن (أحمد شوقي) كان كله شعرًا، قد وقف نفسه على هذه الصنعة لا يهمه أن يُتقن غيرها، فصارت له غرامًا، فهو آناء ليله يُفكر في الشعر، وأطراف نهاره يستنبط المعاني.

ثم عقب (أمير البيان) قائلًا، وهكذا ينبغي للشاعر أن يكون إذا أراد أن يُجيد، فلا يشغل نفسه بشيء آخر مع الشعر، ولا يخلط بين عملين؛ لأنه قلما زاول الإنسان عملين إلا غلب أحدهما عليه أو قصر في الاثنين.

كذلك بيَّن الشاعر (خليل مطران) سبب براعة (شوقي) في الشعر، وقال إن (شوقي) كان يُفكر في الشعر قاعدًا وقائمًا وحاضرًا وسائرًا وساريًا وماشيًا وفي المركبة وما إلى غير ذلك، بينما الشعراء الباقون جعلوا الشعر لفضول أوقاتهم يقومون به عند الضرورة، بعكس (شوقي) الذي أعطى نفسه للشعر، فأعطاهُ الشعر ما لم يُعطِ غيره.

تعقيب

قصة (أحمد شوقي) التي أوردناها خير مثال على ما يفعله التركيز على مجال واحد مع وجود شغف كبير واستمرار طويل وعدم انقطاع، حيثُ لا بد أن يأتي الإبداع بعد ذلك ولا شك، فبقدر ما نُعطي أنفسنا للشيء، بقدر ما يُعطينا هذا الشيء من نفسه كما قالوا.

وقصة (شوقي) كذلك تُبين لنا أهمية استثمار الموهبة التي يُرزقها الإنسان، فيقوم بتطويرها وصقلها ولا يُهملها.

قصَّة الإمام (البهي الخولي) مع د. القرضاوي

كلام (أمير البيان) في أنَّ توزيع جهد الإنسان في عملين يجعله يُقصِّر في الاثنين، صحيح يؤكدهُ الواقع والدراسات، وقد ذكر (د. القرضاوي) أنهُ الْتقى بالشيخ (البهي الخولي) بعد أن أهدى له (د. القرضاوي) قبل ذلك بمدة كتابه الأول (الحلال والحرام في الإسلام).

فكان ممَّا قال له (البهي الخولي): لقد اختلفتُ أنا والشيخ (محمد الغزالي) عليك بعد أن نشرت قصيدتك (السعادة)، فكان من رأي (الغزالي) أن لديك قابلية لأن تكون شاعرًا عظيمًا إذا تفرغت للشعر وأديت له حقَّه، وكان من رأيي أن تتفرَّغ للعلم لتكون فقيه العصر؛ لأن كتابك (الحلال والحرام في الإسلام) يحمل البشارة بتصديق نبوءتي.

فكلام (البهي الخولي) يبيِّن للدكتور (القرضاوي) أنهُ لا يُمكن أن يكون الشخص متفردًا متميزًا في المجالين معًا، لا بد أن يختار أحدهما ويُعطي تركيزه له، أما إذا استمر فيهما بنفس الاهتمام، فإنه سيكون ــ ربما ــ جيدًا في كليهما، لكنه لن يكون مبدعًا في أيٍّ منهما.

إذن، الرسالة واضحة، أعطِ تركيزك كاملًا للمجال الذي شغفت به، وسيُعطيك هذا المجال ما لم يعطِ لغيرك.

ثانيًا: كوِّن نفسك

بعد اختيار المجال الذي تميل له النفس، تأتي النصيحة المهمة جدًّا، التي تحتاج إلى وقتٍ ليس بالقليل، وتتطلب جهدًا كبيرًا، وهي تكوين نفسك التكوين الصحيح في المجال الذي اخترته. وقد يسأل أحدهم: كيف أُكوِّن نفسي؟ يجد الجواب: بالقراءة بالتأكيد(16).

اقرأ كثيرًا ولا تملَّ من القراءة

يجب عليك قراءة الكتب الرئيسة والمهمة في المجال الذي اخترته، وأُؤكد هنا ليست أي قراءة، بل القراءة المتأنية العميقة التي تسبر أغوار هذا العلم، قراءة مع تأمل عميق فيما قرأت، فالتأمل أثناء

القراءة وبعد الانتهاء من قراءة الكتاب كاملًا مهم جدًّا، فَبِهِ تُرسِّخ ما قرأتَ وتعرف صحيح الأفكار من سقيمها. الأهم أن تقرأ وتقرأ ولا تمل من القراءة.

قانون ابن خلدون

ولا بأس أن تأخذ بقانون (ابن خلدون) في العلم، وهو أن تأسيس العلم يحتاج إلى ثلاث دورات من القراءة؛ الأولى: مرور الكرام السطحية، والثانية: تنقيحية تعرفية في محاولة لفهم ما بين السطور وتحت الكلام، والثالثة: ألَّا تدع مغلقًا في هذا العلم إلا فتحته، ولا عويصًا إلا وفككت مغاليقه، ولا مُبهمًا إلا وعرفت سرَّه.

وهذا الأمر بدوره يتطلب صبرًا طويلًا، حيثُ يحتاج الإنسان إلى فترة طويلة حتى يهضم مجاله هضمًا جيدًا. ولمن يسأل: كيف لي بمعرفة الكتب المهمة والرئيسة في هذا المجال؟ نقول له: عليك في البدايات بسؤال المختصين في هذا المجال، وعندما تدخل في العمق؛ فإنك ــ غالبًا ــ لن تحتاج إلى مساعدة أحد، حيثُ ستكتسب الخبرة التي ستؤهلك لمعرفة الكتاب المهم والجيد في مجالك.

احذر الاستعجال

آفة الكثيرين هو الاستعجال وعدم الصبر، وهي أكثر آفة تضر صاحبها، حيثُ لا يُريدون دفع ثمن التميز، فيحرقون المراحل لمحاولة الوصول إلى الثمرة بأسرع وقت، وهذا الذي يُفسد عليهم إنتاجهم، فيُخرجون لنا كتبًا هزيلة أو مُكررة لا جديد فيها.

كيف تكتب إذا لم تكن قارئًا؟

إذا لم تكن قارئًا عميقًا مُطلعًا على المجال الذي رغبت أن تكتب فيه، ربما أخرجت كتابًا قد سبقك غيرُك في طرح مثل أفكاره! وما ذلك إلا لقلَّة اطِّلاعك وقلَّة صبرك على القراءة. ومن أين سيأتي الجديد وأنت لم تقرأ هذا العلم قراءة دقيقة؟

وقد تعجَّب الروائي (خليل صويلح) من بعض من يكتبون كتابات لا ترتقي إلى مستوى جيِّد، كتابات بأخطاء فاضحة، ويعزو السبب في ذلك إلى أن هؤلاء أتوا إلى الكتابة من دون أي دورة تدريبية في القراءة.

ويُرجِّح (خليل صويلح) أن الكتب التي قرأها أمثال هؤلاء هي الكتب المدرسية، وبعض الروايات المُسلية، ثم اكتشفوا أنَّ الكتابة لا تحتاج إلى جهد وإلى قراءة عميقة، فبدءوا يكتبون!

نصيحة د. خالص جلبي

ينصح (د. خالص الجلبي) الشخصَ الذي يرغب في التأليف بألّا يبدأ في الكتابة حتى يكون قد قرأ ألف كتاب على أقل تقدير، وهذا الرقم وإن كان مبالغًا فيه، فإنهُ يوضِّح أهمية التعمق في القراءة قبل الدخول إلى عالم التأليف.

ماذا قال د. فهد الحمود عن أهمية القراءة؟

يوضِّح الكاتب (د. فهد الحمود) أنَّ كلَّ عامل لا بدَّ أن يصطحب معه صندوقًا يحوي أدوات تساعده على أداء عمله، والكاتب أيضًا هو عامل، لكنه عامل في عالم الكلمة، ويحتاج بالتأكيد إلى أدوات، وأهم أداة هي بلا شك القراءة. ويُبيِّن (د. الحمود) أنَّ أكبر فخ يعوق الكتابة الجيدة هو: الثقافة الناقصة، حيث تجد بعضهم يُصيبهُ الغرور، فيستسهل موضوع الكتابة والتأليف، فيدخل فيها دون أن يكون لديه أدنى تكوين علمي ومعرفي!

ثم يوضِّح (د. الحمود) أنَّ الوعي مطلب مُهم في الكتابة؛ لأن له أثرًا كبيرًا على الكتابة وأفكارها ومعانيها، والوعي لا يتحقَّق إلا بالثقافة، التي من أهم الطرق للحصول عليها القراءة العميقة. فلا بدَّ أن يمتلئ الكاتب علمًا ومعرفة، حتى يتدفَّق علمه من خلال الكلمات التي يكتبها. ويؤكِّد (د. الحمود) أنه من دون الثقافة الواسعة ــ التي هي ضرورة للكتابة ــ، قد لا يستطيع الكاتب أن يُضيف شيئًا جديدًا، فقد يكون إنتاجه تكرارًا سبقه إليه آخرون.

نصيحة الأديب توفيق الحكيم

ينصح الأديب (توفيق الحكيم) الروائيين الجدد[17] بالقراءة كثيرًا، ويُؤكد أنه لا تكوين للذات بدون قراءة، والتكوين شيء مهم جدًّا، ويُحذرهم (الحكيم) من أن يُمسكوا بالقلم قبل أن يتكونوا. وبيَّن (الحكيم) أنه هو أتى عن طريق القراءة، فالقراءة قبل كل شيء، على حد تعبيره.

وقد تعجَّب (توفيق الحكيم) من كثيرين ممَّن يكتبون ولم يقرءوا قراءة جادَّة، وقال إنَّهم يريدون أن ينالوا الثمرة قبل الشجرة، فليس لديهم جَلَدٌ على دَرْسٍ، ولا يُريدون أن ينقطعوا إلى علم، ولا يرغبون في أن يبذلوا الجهد، فهم يُريدون أعلى المراتب بسهولة، يريدون ذلك عن طريق المتعة اليسيرة العاجلة، ولا يُريدون أن يضيعوا أوقاتهم في الغرس البطيء والإعداد الطويل؛ لذلك قلَّ الاطلاع العميق وندرت القراءة المجدية لديهم!

وكأنَّ الأديب (توفيق الحكيم) يَصِفُ ما يجري في أيامنا بالضبط، من محاولة الكثيرين الولوجَ في عالم الكتابة دون أن يكون لديهم إعداد حقيقي.

نصيحة (ماريو بارغاس بوسا)

نصيحة (توفيق الحكيم) شبيهة بنصيحة الروائي (ماريو بارغاس بوسا) لشابٍّ سأله كيف يُمكن أن يُصبح روائيًّا جيدًا؟ فأجابه (ماريو) بأن عليه أن يقرأ كثيرًا؛ لأنَّ كتابة الرواية الجيدة تحتاج إلى لغة

ثرية متماسكة مطواعة، وهذه اللغة لا تأتي إلا بقراءة وافرة في الأدب الجيد.

ماذا قال (أيمن العتوم) عن أهمية القراءة للكاتب؟

من أجمل ما قرأت حول أهمية القراءة للكاتب، ما ذكره الروائي (أيمن العتوم) في سيرته الماتعة (هذه سبيلي)، حيثُ يقول في فصل (خميرة الكتابة) إن ما يُميز كاتبًا عن غيره هو الأسلوب، وليس الموضوع الذي يكتب فيه، وإلا فبماذا نُفسِّر إعجابنا بكتاب دون آخر وهما يتحدثان في نفس الموضوع؟

ثم تساءل (العتوم) كيف يأتي الأسلوب المُتفرِّد للكاتب؟ وأجاب بأنَّ الأسلوب لا يأتي ما لم يكن لدى صاحبه ثروة معرفية ولغة خاصة ينفرد بها. وهذه الثروة المعرفية تتشكل عبر سنوات طوال بوسائل شتى من أهمها بالتأكيد القراءة.

شبَّه (العتوم) القراءة بذرات الخميرة. وخميرة الكاتب ـ كما قال (العتوم) ـ هي القراءة، فكلُّ كتاب تقرؤهُ هو ذرة من ذرات هذه الخميرة، والخميرة لا تتكون قبل وجود آلاف من الذرات، وإلَّا فإنها لن تكون قادرة على أن تخبز رغيفًا واحدًا. فالكاتب عندما يقرأ كتابًا يُضيف ذرات جديدة من الخميرة إلى خميرته، ومعنى ذلك أنك تحتاج إلى قراءة مئات ومئات الكتب حتى تُنتج خميرة معرفية جيدة، وإلَّا فلن تكون كتاباتك خالدة ولا مؤثرة.

ثم بعد ذلك يوضِّح (العتوم) أنَّ الخميرة تحتاج إلى وقت كي تخمِّر العجين، فلا بدَّ من الانتظار وإلا سيكون الخبز عويصًا، تلفظه الأفواه بعد أول مضغة. وكذلك ينبغي للكاتب أن يتحلَّى بالصبر المرير لسنوات ليهضم ما قرأ، وبذا ينضج نضجًا حقيقيًّا.

أمَّا تكوين اللغة التي هي جزء من الخميرة، فيُشبه (العتوم) عقل الإنسان ببئر عميقة ليس بها ماء، وكل كتاب نقرؤه هو إضافة كوب من الماء للبئر. يا تُرى كم كوبًا من الماء نحتاج إليه حتى نملأ البئر وتفيض علينا بالماء؟ ربما مئات الأكواب. كذلك الكاتب يحتاج إلى قراءة مئات الكتب حتى يمتلئ عقله وبعد ذلك يفيض كتابة، وبذا يصنع الكاتب لغته وأسلوبه، وملء البئر كملء العقل يحتاج إلى فترة طويلة ولا يتم خلال فترة بسيطة.

وقد تعجَّب (العتوم) ممَّن لا يملأ بئره بالماء ـ أي عقله بالقراءة ـ كيف سيكتب؟ ومن أين سيأتي بالمعرفة؟ وكيف ستنقدح له الأفكار؟ وضرب (العتوم) مثالًا بإمبراطور الشعراء (المتنبي)، وتساءل لماذا خلد شعره بينما مات شعر شعراء كثيرين؟

ويُجيب (العتوم) بأن (المتنبي) كان قارئًا نهمًا، فقد قرأ الفلسفات التي سبقته الشرقية والغربية كلها. وكان يحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من الشعر على الأقل، ويحفظ ديوانَي (أبي تمام) و(البحتري) ـ وتعدادهما أكثر من 10 آلاف بيت ـ كاملين. فالمتنبي كوَّن لغته وأسلوبه الخاص المتفرد عن

طريق قراءة واسعة عميقة ظهرت في شعره وخلدته. يقول (العتوم) من يقرأ شعر (المتنبي) يعرف صدق كلامي.

نصيحة الكاتب أحمد بهجت

حين الْتقى الصحفي (محمد توفيق) ـ وكان طالبًا حينها في الفرقة الثانية ـ بالكاتب الكبير (أحمد بهجت) سأله: كيف يمكن لصحفيٍّ شاب أن يصنع أسلوبًا خاصًّا به؟ فأجابه (أحمد بهجت) بأن على الصحفي في البدايات أن يجد كاتبًا كبيرًا يُقلده، وبيَّن (بهجت) أنهُ فعل في بدايات كتاباته ذلك، حيثُ قلَّد أسلوب (توفيق الحكيم)، لكن ينبغي لهذا التقليد ـ والكلام لأحمد بهجت ـ ألَّا يكون إلا لفترة محدودة جدًّا، وأنَّ على الصحفي أن يجد أسلوبه الخاص به.

وبيَّن (بهجت) أنهُ ابتكر أسلوبه الخاص به الذي لا يُشابهه أحد فيه بقراءة واعية. ونصح (بهجت) الصحفيَّ الشابَّ قائلًا له: «إن على الكاتب الجيد أن يكون قارئًا جيدًا جدًّا، ليصنع أسلوبه الخاص به».

الروائي نجيب محفوظ

ولأهمية القراءة تجد كبار الأدباء لا يستغنون عنها مهما بلغوا شأنا رفيعًا في الكتابة، حيثُ تجد الكتابة والقراءة عادة يومية راسخة لديهم، يذكر الروائي العملاق (نجيب محفوظ) أنه يكتب ثلاث ساعات يوميًّا، ويقرأ ساعتين. يبدأ بالكتابة، ويختم بالقراءة.

نصيحة د. طارق السويدان

ينصح (د. طارق السويدان) مَن يُريد أن يؤلِّف كتابًا أن يكون متمكنًا فيما يكتب، والتمكن يأتي بأن يقرأ الإنسان ما لا يقل عن 50 إلى 70 كتابًا في المجال الذي رغب التأليف فيه على أقل تقدير. ويُحذِّر (د. السويدان) من أن يكتب الإنسان في مجال لم يبحث فيه بعمق، لأنهُ سيظهر مدى ضعفه عند كتابته للموضوع، فتأليف كتاب ليس كإلقاء محاضرة، الكتاب يبقى ويدوم أكثر ويقرؤه المختص وغير المختص.

وبيَّن (د. السويدان) أنك تستطيع تعرف نفسك أنك أصبحت متمكنًا في موضوع ما، إذا استطعت أن تُلقي محاضرة لمدة ساعة كاملة دون تحضير مسبَّق. وهذا لا يكون إلا بالتعمق في القراءة في المجال المختار.

ماذا تقول (آن لاموت)؟

كلام (د. السويدان) صحيح تمامًا، فلا بد أن يتشبع الكاتب بالقراءة في الموضوع الذي يرغب فيه تشبعًا كاملًا قبل أن يكتب، وقد ذكرني كلامه بما ذكرته الروائية الأمريكية (آن لاموت): «لن تكون

كاتبًا إذا لم تنجح القراءة في إثراء روحك أكثر من أي نشاط آخر».

نصيحة الروائي خيري شلبي

ذكر الصحافي وكاتب السيناريو (علي سعيد) أنه في عام 2008م كان في (دمشق) ليحضر ملتقى الرواية العربية الذي كان من ضمن احتفالات دمشق عاصمة الثقافة العربية، وهناك الْتقى بالأديب والروائي المصري (خيري شلبي) (توفي في 2011م)، وكان (شلبي) يومها قد بلغ السبعين من عُمره.

يقول (علي سعيد) إن الروائي (خيري شلبي) أخبره بأنَّ لديه ما يُقارب الأربعين مسودة لأحد أعماله، وأنهُ لا يستعجل أبدًا في إصدار كتاب قبل أن يستوفي العمل حقَّه. وينصح ـ أي خيري ـ الشبابَ بالتأنِّي في إصدار الكتاب الأول، وعدم استسهال الكتابة؛ لأن الكتاب الأول سيُحسب عليك.

اقرأ ما يوافق ويخالف آراءك على حدٍّ سواء

هنا أيضًا نصيحة مهمة: لا بدَّ أن تقرأ الرأي والرأي الآخر، ولا تكتفي بالقراءة فقط في الكتب التي تميل لوجهة نظرك، وإلا سيكون علمك بهذا المجال ناقصًا؛ فلكي نفهم أي مجال بعمق نحتاج إلى أن نقرأ ما يوافق آراءنا وما يُخالفها على حدٍّ سواء؛ وذلك لنسمح لعقولنا فيما بعدُ بأن تُحلِّل وتستنتج ومن ثمَّ تأخذ ما تراهُ صحيحًا، وتفنِّد الرأي الذي لا تراه صحيحًا.

نوِّع في قراءتك

نقطة مهمة أخرى: ليست كلُّ قراءاتك ينبغي أن تكون في مجالك الذي شغفت به، بل اجعل 60% أو 50% في هذا المجال، والبقية في مجالات أخرى، فالعلوم مترابطة، وأيضًا لكي تخرج من ضيق الأفق ومحدودية الرؤية، ولا يكون ذلك إلا بأن تقرأ قليلًا في غير مجالك.

اقرأ كتب الأدباء البلغاء

كذلك لا تنسَ ـ إن أردت أن تُجوِّد أسلوبك في الكتابة ـ أن تقرأ في كتب الأدباء البُلغاء، وقد بيَّن الأديب العملاق (مصطفى الرافعي) أن الكاتب لن ينجح في الكتابة حتى يحكم على نفسه بالأشغال الشاقة الأدبية، ويسجن نفسه (سجن قراءة) سنتين أو ثلاث مع كتب (الجاحظ) و(ابن المقفع) وغيرهما من الأدباء يقرؤها ويستفيد منها.

وهي نصيحة قيِّمة لو تعلمون، فتجويد الأسلوب يُسهِّل عليك التعبيرَ عمَّا يجول بخاطرك، ويُكسبك قلمًا بديعًا رشيقًا.

تحلَّ بالصبر

لا تستعجل ودعْ هذه المرحلة تأخذ وقتها، فهذه المرحلة تأسيس لما بعدها، وستعرف فوائدها الكثيرة مستقبلًا، أما إذا استعجلت وأردت إخراج كتابك بأسرع وقت، فتيقن أن هذا الكتاب لن يعيش طويلًا، فما خرج بسرعة يموت بسرعة ويُنسى تمامًا. يقول (صمويل جونسون): «ما يُكتب دون جهد أو معاناة، يُقرأ دون استمتاع».

ثالثًا: احصل على فكرة

بداية كل كتاب فكرة، وهي بذور الكتب كما قالوا، ولولا الأفكار لما كانت هناك كتب. بعد القراءة العميقة في المجال الذي رغبت فيه، لا بد أن تأتيك فكرة تكتب عنها، فالقراءة تفتح العقل لأفكارٍ كثيرة.

نصيحة د. أحمد كافي

ذكر (د. أحمد كافي) أنَّ مَن يُريد أن يحصل على أفكار للكتابة؛ عليه أن يقرأ كثيرًا. وعلَّل (د. كافي) ذلك بأنك عندما تقرأ قد تجد فكرة مغلوطة فتسعى لأن تُصححها، أو تجد معلومة نادرة فتُظهرها وتتحدَّث عنها وتستدلُّ عليها بما لم يستدلَّ عليها صاحبها، أو تجد قضية لم يُحسن الكاتب التعبير عنها، فتتولَّى أنت أمرها وتقوم بتوضيحها بأفضل وأيسر منه، وقد توحي لك القراءة بأمر جديد لم يَدُرْ بخَلَد مَن قرأت له، فمن المقروء كثيرًا يكون المكتوب، كما قال (د. كافي).

وما قاله (د. كافي) عينُ الصواب، وما أجمل كلامه حين قال: «لتجد ما تكتب أكثر من القراءة، أو بعبارة دالة: إذا أردت أن تكتب فلا تتوقف عن القراءة، فلا يُمكنك أن تكتب إلا إذا كنت مجنونًا بالقراءة».

كما بيَّن (د. كافي) أن هذا هو طريق الأفذاذ في الكتابة، القراءة النهمة العميقة التي تجلب لهم الأفكار.

قصة تأليف كتابي (لو كنا نقرأ)

أذكر عندما كنت أقرأ كتاب (وحي الرسالة) لأحمد حسن الزيات، وهو عبارة عن مقالات نشرها في مجلته الشهيرة (الرسالة)، أني وصلت إلى مقالته الجميلة (لو كنا نقرأ)، وبعدما انتهيت من قراءتها، انقدحت في عقلي فكرة، وقلت: لماذا لا أقوم بجمع المواضيع المتعلقة بالقراءة التي أحتفظ بها من قراءاتي لسِيَرٍ ذاتية كثيرة، وكتب متخصصة في القراءة وغيرها، وأقوم باختصارها؛ لجعل الكتاب سهلًا مبسطًا مشجعًا النَّشْءَ الجديد على الدخول في عالم القراءة، هذا العالم السحري العجيب.

ومن هذه الفكرة التي أتتني بعد قراءة المقال، خرج كتاب (لو كنا نقرأ) إلى الوجود، والفضل للّه أولًا وأخيرًا.

الأديب (السحار) وكتابه (أبو ذر الغفاري)

ذكر الأديب (عبد الحميد جودة السحار) أنهُ كان يُخطط ليكتب رواية متعددة الشخصيات تدور في عقله، ولما همَّ بكتابة السطر الأول تذكر نصيحة صديقه الروائي (نجيب محفوظ) بالتريث في كتابة هذا النوع من الروايات لعدم سهولتها، وشعر (السحار) فجأة بقلق وحيرة، فتناول كتاب (مروج الذهب) للمسعودي ليقرأه وينتشل نفسه من هذه الحيرة وهذا القلق، وكانت الصفحة التي وقعت عينه عليها ليقرأها، تحكي ثورة الصحابي (أبي ذر الغفاري) ـ رضي اللّه عنه ـ في الشام.

فلمعت في عقل (السحار) فكرة، وهي لماذا لا يكتب عن سيرة هذا الصحابي الثائر ويُفرد له كتابًا مستقلًّا، حيث لم يكتب أحد كتابًا مستقلًّا عنه. فبدأ (السحار) يبحث ويقرأ في المراجع التي تحدثت عن هذا الصحابي الجليل، وعمل على المسودة حتى خرج الكتاب إلى النور. وقد نجح الكتاب نجاحًا باهرًا وأثنى عليه أدباء كبار كالمازني، وطُبعت منه طبعات كثيرة، وتلتهُ كتب كثيرة تدور حول فكرته. فهذا مثال على دَور القراءة في جلب الأفكار، والأمثلة في ذلك كثيرة لا تُحصى.

ملاحظة

الحصول على فكرة لبدء التأليف والكتابة، وضعها الكُتاب ـ ممن قرأت لهم ـ في مراحل التأليف في المرحلة الأولى، لأن الفكرة تأتي أولًا، ومن ثم بعد ذلك يبدأ العمل والبحث على الموضوع. وهذا صحيح، وفي الغالب يكون هكذا التسلسل لمن تمرس بالتأليف.

لكني وضعتها في المرتبة الثالثة للمبتدئين في عالم التأليف خصوصًا، لأبين أهمية القراءة، فالقراءة تأتي قبل الكتابة كما هو مؤكد. والقراءة هي أهم مورد لجلب الأفكار، خصوصًا إذا كانت مركزة وعميقة وغير منقطعة.

سبب تأليف كتابي (القراءة صنعة العظماء)

كنتُ مولعًا بالقراءة منذ سنوات طويلة ولم يَدُرْ بخَلَدي أني سأؤلف كتبًا، فقط أستمتع بما أقرأ في مجالات مختلفة، ثم تركَّزت بعد ذلك بسنوات قراءاتي في كتب القراءة ومشتقاتها، وربما أتتني فكرة تأليف أول كتاب لي (القراءة صنعة العظماء) بسبب شغفي بهذه الكتب، وعندها بدأت في العمل على المسودة، وساعدتني قراءاتي طوال تلك السنوات الماضيات في عملية التأليف. المقصد أن القراءة لا بدَّ منها، فهي تسبق مرحلة الكتابة ـ كما ذكرت ـ.

طرق أخرى للحصول على الأفكار

ليس شرطًا أن تأتي الفكرة من القراءة فقط، فقد تأتيك من أمور أخرى كالتأمل وغيره، لكن القراءة هي المورد الأهم.

رابعًا: حدِّد هدفك

لا بد من أن تُحدِّد هدفك من تأليف الكتاب، هذا أمر في غاية الأهمية، فبعد أن أصبحت الفكرة التي تُريد الكتابة عنها واضحة لديك، هنا يأتي توضيح الهدف من تأليف الكتاب، وما هي الأسباب التي دفعتك للكتابة في هذا الموضوع؟ وما الرسالة التي تُريد إيصالها للقارئ؟ فهذه الأسئلة من شأنها أن تجعل خطَّة عملك على الكتاب واضحة ومُحددة، فلا تشتت نفسك في مواضيع كثيرة متشعبة تُخرجك عن موضوعك الأصلي.

كتاب (أبي ذر والشيوعية)

أحيانًا تقرأ كتابًا فتجد مضمونه مختلفًا عن عنوانه، فتتعجَّب من ذلك وتتساءل: لماذا العنوان في وادٍ والمضمون في وادٍ آخر؟ مثال على ذلك كتاب (أبو ذر والشيوعية) للإمام الدكتور (عبد الحليم محمود) ـ رحمة الله ـ، فعندما بدأتُ في قراءة الكتاب توقعت أن أجد حديثًا عن هذا الصحابي الجليل، لكن الصفحات التي تحدَّثت عن (أبي ذر) لا تتعدَّى 20% من مجموع صفحات الكتاب، وباقي الكتاب تحول للحديث عن النظام المالي في الإسلام!

ربما السبب ـ في اعتقادي ـ في تحول موضوع الكتاب، أن الهدف لم يكن واضحًا للمؤلف الإمام عندما كان يكتب، فيبدو أنهُ لم يُحدِّد ما هي النقاط أو المحاور التي سيتطرق لها والتي لها صلة بموضوع الصحابي (أبي ذر) والشيوعية، فبدأ الإمام بكتابة صفحات عن (أبي ذر)، ثم جرهُ الموضوع للحديث عن نظام المال في الإسلام حتى نهاية الكتاب.

فلو كانت المحاور والأهداف واضحة، أغلب الظن أن الإمام لن يخرج عن الموضوع الأصلي، وسيظل متصلًا بالموضوع دون أن يتشعَّب لمواضيع أخرى. وهنا أودُّ أن أُنبِّه أن (د. عبد الحليم) إمام عظيم وله مؤلفات مميزة، لكني هنا فقط أتحدث عن كتابه هذا ولا أتطرق لكتبه الأخرى.

نصيحة سويدانية

ينصح (د. طارق السويدان) لمن يُريد أن يؤلف كتابًا، أن يضع هدفه مكتوبًا واضحًا يراهُ أمام عينه وهو يعمل على مسوَّدة الكتاب؛ وذلك من أجل أن يُذكره طوال مراحل عمله على الكتاب بأهدافه، فيصوغ كلَّ ما يكتبه وَفق هذه الأهداف. وقد أخبرني (د. طارق السويدان) أن لديه خطة واضحة فيما سيكتب فيه وفيما سيؤلفه، وأن أهدافه في التأليف واضحة جدًّا لديه.

دوافع التأليف عند د. القرضاوي

ذكر (د. يوسف القرضاوي) أنه لا بدَّ من وجود دافع يدفعه للتأليف، وبدون هذا الدافع فإنهُ لا يجد الرغبة في الكتابة. يقول (د. القرضاوي) إنَّ هناك ثلاثة دوافع تدفعه للتأليف؛ الأول: قد يُطلب منه الكتابة في موضوع ويجد في نفسه الرغبة في ذلك، فيندفع للتأليف والكتابة فيه.

والدافع الثاني: يكون ردًّا على خصوم الإسلام، أو حتى من أبنائه الذين يسيئون فهمه. والدافع الثالث: هو أن يكون عنده شيء يقوله في توضيح جانب من الجوانب، كأن يُجيب عن أسئلة لم يجد لها إجابات صحيحة بروح ولغة العصر، أو غيرها. وبيَّن (د. القرضاوي) أنه لا يسود القلم دون هدف واضح للكتابة، فهو لا يُحب أن يُكرر غيره، أو حتى أن يكرر نفسه.

فوائد وجود الهدف

إذن، وجود هدف واضح للتأليف، يسهِّل عليك عملية الكتابة والبحث؛ لأنك تعرف عن ماذا تُريد أن تتحدث وما الذي تُريد إيصاله للقُراء.

ملاحظة

قد يأتي الهدف قبل المراحل السابقة، لكنْ ـ كما وضحت في فقرة البحث عن فكرة ـ المبتدئون الذين يريدون الدخول في عالم التأليف، قد يتأخر الهدف لديهم أحيانًا.

خامسًا: اكتب ثم اكتب ثم اكتب

عندما تكون الفكرة جاهزة، وتأملتها لفترة طويلة ورأيت مدى صلاحيتها، ويكون هدفك من التأليف واضحًا، تأتي المرحلة التالية، وهي مرحلة البَدْءِ في كتابة المسوَّدة، وهذه أيضًا مرحلة مهمة، بل ربما هي أهم مرحلة في مراحل التأليف، وهي حاسمة في العمل، فكثيرٌ منهم يتوقفون عند هذه المرحلة، يبدءون الكتابة أسبوعًا أو أسبوعين أو شهرًا، ثم لا يستمرون، وبعدها ينسون العمل تمامًا.

نصيحة الروائي (خالد حسيني)

يقول الروائي (خالد حسيني) إنَّهُ ينبغي على الكاتب أن يكتب كلَّ يوم، سواءً أحبَّ الكتابة أم لم يُحبها، عليه أن يكتب ولا يتوقف، حتى تصير الكتابة لديه نمطًا وضرورة بيولوجية سيكولوجية يومية.

وكلام (حسيني) صحيح، فلا بد من الانضباط والالتزام بالكتابة اليومية ولو ساعة على أقل القليل، وعدم الاستسلام للمُثبطات ولا للعوائق. الكتابة انضباط ومُثابرة وعمل دائم متواصل وليست موهبة وإلهامًا، وإذا انتظرت الإلهام أن يأتي، فإني أؤكِّد لك بأنك لن تكتب شيئًا. اكْتُبْ وسيأتي الإلهام بعد ذلك.

نصيحة الكاتب (دالاس وودبيرن)

أغلب الكُتَّاب الجيدون يدركون أهمية الكتابة اليومية المتواصلة؛ لذلك تراهم يكتبون بشكل يومي مهما كانت الظروف التي تواجههم، ولا يتنازلون عن الوقت المخصص للكتابة بتاتًا. لذلك كان

الروائي ومدرب الكتابة الأمريكي (دالاس وودبيرن) ينصح طلابه ثلاث نصائح أساسية إذا كانوا يرغبون في أن يُصبحوا كُتَّابًا جيدين، فيقول لهم: «اقرءوا كثيرًا، واكتبوا يوميًّا، وادرسوا حرفة الكتابة».

نصيحة (د. ريتشارد كالسون)

يذكر (د. ريتشار كالسون) أنهُ سُئل عن الطريقة المثلى لتأليف كتاب؟ فكان جوابه هو أن تبدأ الكتابة دون انتظار، ولو لم تستطع إلا كتابة فقرة واحدة أو جملة، فهذا أفضل من لا شيء.

صدق (د. كالسون) في نصيحته؛ لأن الفقرة والجملة مع الاستمرار ستكون صفحة، والصفحة مع مرور الأيام ستكون صفحات، والصفحات ستكون كتابًا. المهم العمل ولو بخطوات بسيطة كما قال (د. كالسون).

ممَّا تعجب (كولن ويلسون)؟

ذكر الكاتب الرائع (كولن ويلسون) أن معظم مَن قابلهم ممَّن يودون أن يكونوا كُتَّابًا، لم يكن لديهم أي فكرة عن مدى الصرامة والجدية والتدريب الشاق والانضباط الذاتي، الذي تتطلبه مهنة الكتابة!

نعم، كثيرون كما ذكر (ويلسون)، يعتقدون أن الكتابة فقط إلهام، عندما يزورك عليك أن تكتب، وإن لم يزرك فعليك انتظاره حتى تستطيع الكتابة!

نصيحة الروائية (آن لاموت)

تؤكِّد الروائية (آن لاموت) أن الكتابة إصرار وإيمان وعمل شاق، وتنصح أن يكتب الشخص ما لا يقل عن ثلاثمائة كلمة يوميًّا كحدٍّ أدنى. والمغزى من فعل ذلك، أنَّ الالتزام يوميًّا ـ ولو بكتابة عدد قليل من الكلمات ـ يأتي بنتيجة مع مرور الأيام، لكن إن تنازلت يومًا عن الكتابة، فبالتأكيد ستتنازل عن يوم آخر كذلك، وستكثر الأيام التي تتراخى فيها، وما هي إلا أسابيع ومن ثم ستنسى العمل على المسودة، وربما تُهملها تمامًا.

احذر الانقطاع عن الكتابة

قالوا: «الانقطاع داء الإبداع، فكم من مبدعٍ قال عنه أصحابه ليس بأفضلنا، ولكنه واصل ونحن انقطعنا». وصدقوا في ما قالوا، فليس هناكَ شيء يُميت الإبداع كالانقطاع، أو العمل على فترات متباعدة، وليس هناك ما يأتي من الإبداع ويُغذيه كالاستمرار، ولو بشيء قليل يوميًّا. وأن تكتب يوميًّا ولو بضعة أسطر أفضل من أن تكتب صفحة على فترات متباعدة.

نصيحة (د. أحمد خالد توفيق)

ينصح الأديب الراحل الدكتور (أحمد خالد توفيق) بالكتابة بشكل يومي، ويُحذَر من تَرْكِ الكتابة، لأن الكتابة تضمر بعدم الاستعمال، وتصدأ كمفاصل البوابة، لذلك يقول لك: اكتبْ أيَّ شيء حتى لو كنت تكتب خواطرك اليومية.

طريقة (هيمنجواي) في الكتابة

كان الروائي الأمريكي (إرنست هيمنجواي) يكتب يوميًّا بانتظام، وكان لا يزيد ما يكتبه يوميًّا عن 700 كلمة ولا يقل عن 400 كلمة، وفي الغد يقوم بمراجعة ما كتبه في اليوم السابق. وكان من عادة (هيمنجواي) أن يكتب في الصباح الباكر، حيثُ يستيقظ باكرًا فيتوجه إلى الآلة الكاتبة، ويكتب بدقة.

اكتبْ يوميًّا ولا تتراخَ

إذن النصيحة واضحة: اكتب بشكل مستمر لكيلا يصدأ قلمك، واحرص ـ قدر الإمكان ـ على ألَّا يمر عليك يوم واحد دون كتابة، وأن تجعل لك وقتًا للكتابة يوميًّا لا تتنازل عنه إلا للضرورة القصوى، وقتًا تكون فيه في قمة نشاطك وحيوتك، وتيقن أن نجاح الكتابة بالاستمرار المتصل وليس بالانقطاع ـ كما ذكرت ـ. وطريقة (هيمنجواي) في الكتابة تُعلمنا أن الكتابة، ولو كلمات محدودة يوميًّا لكن مع الاستمرار، تأتي بنتيجة أفضل مع مرور الأيام عن الكتابة المنقطعة.

اكتب واكتب، وكلَّما فترت هِمَّتُك قليلًا، تخيَّل نفسك أنك قد انتهيت من تأليف كتابك وأنه بيد القُراء يقرءونه، فرسم مثل هذه الصورة الإيجابية المستقبلية، يزيد من هِمتك ويجعلك تستسهل الصعاب التي تواجهك، وهذا مُجرَّب ومعلوم.

وقد جربتُ بنفسي هذه الطريقة في كتبي السابقة كثيرًا، فكنتُ كلما شعرت بفتورٍ ورغبةٍ في عدم الاستمرار، حفزتُ نفسي بهذه الطريقة، فتتشجع نفسي من جديد على الاستمرارً حتى أتم تأليف الكتاب بعد عون اللّه وتوفيقه.

تنبيه مهم جدًّا

وهنا أودُّ أن أُنبهك بصعوبة هذه المرحلة، وصعوبتها تكمن في كيفية تحويل الأفكار من رأسك إلى الورق، فلا بدَّ وحتمًا ستواجه صعوبات في التعبير عن الفكرة، وقد لا تجد الكلمات التي تُسعفك في التعبير عنها، لكنك بالكتابة اليومية تصقل قلمك وتتعود على كيفية نقل الأفكار من رأسك إلى الورق.

كذلك ستضطر إلى كتابة بعض الفقرات وإعادتها عشرات المرات، كل هذا شيء طبيعي، وربما في الغد عندما تُعيد قراءة ما كتبته بالأمس، ستجد نفسك أنك لستَ راضيًا عنهُ تمام الرضا، فتقوم بإعادة كتابته. ليس هناك أي مشكلة، هذه مرحلة ضرورية لصقل قلمك والجميع يمر بها، فلا تتوقف ولا تيأس بحجَّة صعوبة التعبير عن أفكارك.

الحلّ يكمن في استمرارك في الكتابة وتدريب قلمك (أو أصابعك على لوحة المفاتيح) على التعبير عما يجول بداخل رأسك. تقول الروائية (آن لاموت) غالبًا ما تأتي الكلمات الصحيحة حين تكتب لفترة من الزمن، وأنك تتعلَّم أن ما لست تكتبه هو الذي ساعدك في اكتشاف ما تكتبه. ومعنى كلامها أن كثرة الكتابة والممارسة هي ما أوصلتك إلى الكلمات الصحيحة التي تريدها، ولولا كثرة الكتابة والممارسة لم تصل إلى الكلمات الصحيحة التي تُريدها.

ماذا أفعل عندما أجد صعوبة في التعبير؟

قد تقف عند فقرة لا تستطيع إكمالها، فلا تجد الكلمات المناسبة التي تُعبِّر عمَّا يجول بخاطرك. لا بأس من ترك الكتابة قليلًا وأخذ فترة راحة واستجمام، كممارسة المشي أو القراءة أو غيرها من الهوايات التي تُحبها، ومن ثم العودة فيما بعدُ للكتابة، فهذا من شأنه أن يُجدد من عقلك ويأتيك بالأفكار.

سادسًا: ابتعد عن المسودة

بعد أن تنتهي من كتابة المسودة وتحويل الأفكار من رأسك إلى عقلك، ومراجعتها عدة مرات. ينبغي أن تأخذ استراحةً وتبتعد عن المسودة فترة من الزمن.

نصيحة (ستيفن كينغ)

ينصحك الروائي (ستيفن كينغ) أن تترك المسودة قرابة ستة أسابيع، وأن تنشغل عنها بشيء آخر تمامًا، وأن تُقاوم رغبة معاودة قراءتها في هذه الفترة قدر الإمكان. والسبب في ذلك أنك عندما ترجع لقراءتها بعد مدة ستشعر أنك تقرأ كتابًا غير كتابك، وبذا ستظهر لك الكثير من الأخطاء والفجوات التي لم تكن منتبهًا لها وقت الكتابة اليومية، وستقوم بإصلاحات مهمة على مسودة الكتاب.

نصيحة (الجاحظ)

قبل (ستيفن كينج) نصح (الجاحظ) مثل هذه النصيحة الثمينة، وفحواها أن على المرء بعد أن يكتب أن يدع كتاباته فترةً من الزمن ولا ينشرها بسرعة، ثم يرجع لها فيما بعد يقرؤها مرة أخرى، ويُعيد النظر فيما كتب، فيصحِّح ويُعدِّل ويحذف ويُضيف، وهو ما يُسمى بتخمير الكتابة، وقد قالوا: «خمير الرأي خير من فطيره».

وفطير الرأي هو الذي يستعجل في كتاباته وينشرها فورًا دون تروٍّ وانتظار. وقد ذكروا أن الشاعر (أبا نواس) كان يكتب القصيدة ثم يتركها ليلة، ثم ينظر فيها بعد ذلك فيلغي كثيرًا من أبياتها ويدع ما يراه يستحق أن يبقى، وكذلك (البحتري) يفعل الشيء نفسه، لذلك خرج شعرهُما مهذبًا، بينما الشاعر (أبو تمام) لم يكن يفعل ذلك، وكان يرضى بأول خاطر يأتيه، فعابوا على شعره عيوبًا كثيرة.

د. سعيد القحطاني

هذا أيضًا منهج الشيخ (د. سعيد القحطاني) ـ مؤلف كتاب (حصن المسلم) الشهير ـ في التأليف أيضًا، حيثُ ذكر (د. محمد اليامي) أنهُ لما كان طالبًا في أوائل المرحلة الجامعية، زار الشيخ (د. القحطاني) وعرض عليه بحثًا قد كتبهُ، فطالعه الشيخ ثم نصحه قائلًا: «عليك بقاعدة اكتب وارفع، أي اكتب بحثك ثم ارفعه على الرفِّ مدةً طويلة، ثم طالعْه بعد ذلك، وستجد ما كتبته عليك جديدًا، فترى فيه بعض الغرائب والعجائب والهفوات، فتتجنبها وتحمد اللّه أنك ما أخرجته مباشرة، وهذا دأبي في كل كتبي».

مصطفى الرافعي

وهذا ما يفعله الأديب (مصطفى الرافعي)، فقد قال (العريان) إنَّ الرافعي بعد أن يُملي عليه المقال، يتناوله منه فيطويه قبل أن يقرأه، ثم يودعه درج مكتبه إلى الصباح، ويخرج إلى الشرفة يشم نسيم المساء، ثم يأوي إلى فراشه، وأول عمله في الصباح بعد صلاة الفجر أن يعود إلى المقال الذي أملاه على (العريان) في الليل فيقرؤهُ ويُصححه، ثم بعد ذلك يُرسله للنشر.

استمعتُ إلى نصيحتهم فانتفعت

أذكر في كتابي الأول والثاني أني فعلت هذا لكن دون عمد أو قصد، انشغلت وتركت المسوَّدة لعدَّة أسابيع، وعندما رجعت لقراءتها بالفعل انتبهت لهفوات كثيرة، فأصلحت وحذفت وعدَّلت وأضفت، ولكن بعد قراءتي لكلام (ستيفن كينغ) فعلتها عن عمد في كتابي الثالث والرابع وكتابي هذا؛ لما وجدت من أهميتها الكبيرة في تطوير المسودة.

إذن، حاول قدر الإمكان أن تنسى لعدَّة أسابيع مسوَّدة الكتاب، وتنسى تمامًا أنك كتبت كتابًا، واشغل وقتك كما قال (كينج) بشيء آخر. وتيقن أنك إذا استطعت أن تنسى مسودة الكتاب تمامًا لعدة أسابيع، ستتعجب من كثرة الأخطاء والهفوات التي ستجدها عندما تعود لقراءتها بعد ذلك، وستقول: كيف لم أنتبه لهذه الأخطاء الكثيرة عندما كنتُ أكتب؟! وستحمد اللّه ـ كما قال (د. القحطاني) ـ أنك لم تستعجل في إصدار الكتاب.

القراءة تُساعدني على نسيان المسودة

بالنسبة لي فإني عندما أشعر أنه لا شيء يمكن إضافته في مسودة الكتاب، وأنهُ حان وقت التوقف، أضع المسودة في درج من الأدراج شرط أن يكون بعيدًا عن عيني، وأنساها تمامًا، ويُساعدني في نسيانها وعدم تذكرها شغفي الكبير بالقراءة، وأن هناك كتبًا كثيرة تنتظر مني أن أقرأها، فأنهمك في قراءتها وكأني بهذا الانهماك الشديد في القراءة، أعوض عن الوقت الذي شغلتني به الكتابة عن القراءة.

التأليف هو إعادة الكتابة

هنا نُذكِّر بأنَّ التأليف ليس كتابة المسودة الأولية فقط، بل هو إعادة الكتابة والتنقيح، كما قال (د. راشد عبد الكريم)، وضرب مثلًا بالإمام (الشافعي) عندما راجع كتابه (الرسالة) أربعين مرة، وفي كل مرة يُعدِّل ويُضيف ويُصحح، فكأنه أعاد كتابته أربعين مرة.

وعندما سُئل الروائي الكندي (يان مارتل): كيف استطعت الاحتفاظ بالقارئ وتشويقه في روايتك الشهيرة (حياة باي)؟ أجاب قائلًا: بالعناية والعمل باجتهاد كبير، وإعادة الكتابة لألف مرة!

نعم، التنقيح يكون في أثناء الكتابة اليومية، حيثُ نكتب ونُصحح ونُعدل ونحذف ونُضيف، ومن الغد عندما نبدأ في إكمال العمل على المسودة، ونقرأ ما كتبناه بالأمس، ربما نحذف الكلام كله ونُعيد الكتابة من جديد بصيغة نراها أفضل ونُضيف كلامًا جديدًا.

لكن الابتعاد عن المسوَّدة وإراحة العقل تمامًا من التفكير في مواضيعها لمدة شهر أو أكثر، يجعلنا نرى ما لم نكن نراه من أخطاء وهفوات ونقائص، وزوائد وكلام غير مفهوم فيها عندما نُعيد قراءتها بعد هذه المدة؛ لأننا قرأناها بذهنية جديدة تحررت من تركيبة العقل وارتباطه أثناء كتابة المسودة، كما قال (د. راشد عبد الكريم).

نصيحة د. أحمد خالد توفيق

كما أنَّ ترك العمل على المسوَّدة وأخذ استراحة، قد يُضيف لك أفكارًا جديدة لم تكن في بالك عند كتابة المسودة، ولقد عبَّر الأديب الراحل الدكتور (أحمد خالد توفيق) عن هذا المعنى بأحسن تعبير، فقال: «أنا أومن أنَّ ترك العمل لفترة ـ والتلهِّي بأعمال أخرى ـ يُنعشك ويُعطيك أفكارًا جديدة لدى العودة له».

لذلك أعتبر هذه المرحلة عندي هي أهم مرحلة في تطوير المسودة، فأقوم بسد الفجوات وإعادة الصياغة، وحذف الزائد من الكلام، وتوضيح المبهم وغيرها من الإصلاحات، فكأني في هذه المرحلة أُعيد كتابة الكتاب لكن بنسخة أفضل منه. وكل كتاب من كتبي أستطيع أن أعتبره أنهُ أصبح كتابًا بعد هذه المرحلة.

الروائي نجيب محفوظ

كبار الأدباء قبل صغارهم يفعلون هذا الفعل. يقول الروائي (نجيب محفوظ) إنهُ يكتب الرواية أحيانًا في شهرين، يكتبها بتدفُّق كامل، ثم يُصحِّحها ويُراجعها في ستة أشهر.

الخلاصة

إعادة الكتابة ومراجعة المسودة خطوة ضرورية لا يُستغنى عنها، وقد حذَر الإمام (النووي) من إخراج أحدنا كتابه إلا بعد مراجعته كثيرًا، وإعادة النظر فيه مرة بعد مرة. وصدق في كلامه وتحذيره.

احذر أن تتجرف

هنا أيضًا نصيحة مهمة: احذر أن تتجرف كثيرًا وتظلَّ تُصحِّح المسوَّدة إلى ما لا نهاية، فلا بدَّ من الوقوف عند مرحلة معينة؛ لأن الإصلاح لا ينتهي. فقَرِّرْ عند لحظة معينة التوقف وعدم النظر إلى المسودة، وإن كان هذا الأمر من الصعوبة بمكان.

د. محمد الأحمري

ذكر (د. محمد الأحمري) في مقدمة كتابه المُلهم (مذكرات قارئ)، أنهُ تأخر في إصدار هذا الكتاب والسبب في ذلك، أنهُ كلما نظر فيه وجد عيوبًا كبيرة، وأنه يحتاج إلى التحسين والتزيين، وظلَّ يفعل ذلك حتى خشي على الكتاب أن يموت لو لم يطبعه، ثم ذكر مقولة (بورخيس) الجميلة التي يقول فيها: «لو لم نطبع كتبنا، لبقينا نُصحهها إلى أن نموت».

وهي جملة صحيحة يعرف صحَّتها كلُّ مَن يعمل على تأليف كتاب أو بحث، فما دام أنهُ لم يُرسل كتابه إلى المطبعة، فإنه في كلِّ مرة يقرؤهُ يُعدِّل فيه فيحذف ويضيف، ولا يحسم الأمر إلا بإرسال الكتاب إلى المطبعة كما قال الروائي (خليل صويلح).

وهذا ما يحدث لي في كلِّ كتاب أكتبه، فلا أستطيع أن أتوقَّف عن إصلاح المسوَّدة نهائيًّا، فعند مراسلة دُور النشر ومحاولة الاتِّفاق الذي يأخذ شهرًا وأكثر، أظلُّ أضيف وأُغيِّر وأحذف وأعدِّل في المسودة، ولا أتوقَّف حتى أتَّفق مع دار النشر اتِّفاقًا نهائيًّا، فأقوم عندها بتسليمهم المسوَّدة للبَدْءِ في العمل عليها، وأكون مضطرًا حينها للتوقُّف عن مراجعة المسودة.

سابعًا: اعرضِ المسودة

بعد أن تشعر أنك انتهيت من كتابة المسودة وأنه لم يبقَ شيء لتُضيفه، قم بإعطاء المسودة لأصدقائك الذين تحترمهم وتُقدرهم وتثق برأيهم، ويستحسن ألَّا يقل عددهم عن خمسة.

لماذا عرض المسودة مهم؟

لسببين، الأول: أنَّ المتصفح للكتاب أَبْصَرُ بمواقع الخلل فيه من مؤلِّفه كما قال (يحيى بن خالد).

والسبب الثاني: المؤلِّف عندما يكتب ويُحوِّل الأفكار من رأسه إلى الورق، أحيانًا يعتقد أنه عرض الفكرة بشكل جيِّد؛ لأنَّ الفكرة واضحة في عقله هو، لكنها ربما ليست كذلك في عقل مَن يقرأ ما

كتبه، أو أنه أحيانًا يعرض أفكاره بطريقة مُعقّدة، أو يُسهب في شرح الفكرة ويُكرر كلامه ممَّا يجعل القارئ يشعر بالملل، وغيرها من الأسباب التي لا ينتبه لها مَن يكتب لوضوح الموضوع عنده، لذلك من الضروري عرض المسودة على أشخاص مختلفين يُعطونك رأيهم في ما كتبت.

الروائية (آن لاموت)

تقول الروائية الأمريكية (آن لاموت) إنها تقوم بإرسال مسوَّدة كتابها ـ بعد أن تشعر أنها أصبحت جاهزة ـ إلى شخصين تثق برأيهما كثيرًا؛ الأول: أمين مكتبة يقرأ كتابين أو ثلاثة في الأسبوع، ولكنه ليس بكاتب، والثاني: صديق لها كاتب. وبعد أن يقرآن المسوَّدة، يقوم كل واحد منهما بإعطائها ملاحظاته واقتراحاته. تقول (آن لاموت) من الصعب جدًّا تقبُّل النقد، لكن هذا الفعل من شأنه أن يُطوِّر النصَّ، وإنها تشعر بالامتنان بعد ذلك.

ثم بيَّنت (لاموت) أن عرض المسودة على أشخاص آخرين تثق بهم هو أمر من الأهمية بمكان، وشبَّهت ذلك بشخصٍ مدعوٍّ إلى حضوره حفلة ويستعد للذهاب لها، وهناك في بيته يوجد شخص آخر يتفحص مظهره ويؤكد له إن كان يبدو رائعًا أم لا، ويلفت انتباهه إلى بعض الأمور التي قد لا ينتبه لها في مظهره.

د. يوسف القرضاوي

في مقدمة سيرته (ابن القرية والكُتَّاب) في الجزء الثالث منها، يقول (د. يوسف القرضاوي) إنه عرض هذا الجزء على عدد من الإخوة والأصدقاء من أهل الفكر والعلم، ليبدوا ملاحظاتهم عليها، ويُشيروا عليه بما يرونه، لأن المؤمن مرآة أخيه، وليس هناك أحد أكبر من أن يُنصح، ولا أحد أصغر أن يَنصح.

فعلى الرغم من مكانة (د. القرضاوي) الكبيرة بين العلماء، إلا أنهُ لا يستنكف أن يعرض مسودة كتبه على مَن يثق برأيهم ويحترمهم، بل إنهُ ـ كما ذكر ـ يعرضها أحيانًا على عدد من القُراء ليجسَّ نبضهم ورأيهم فيما كتب.

مصطفى الرافعي

يذكر الأديب (محمد العريان) أنهُ تأثر بصحبة الأديب (مصطفى الرافعي)، كما أن الرافعي تأثر أيضًا بصحبته، حيثُ كان أسلوب الرافعي يُتهم بالغموض والتعقيد عند ناشئة القُراء منذ أن بدأ الكتابة قبل ثلاثين سنة، فكان حين يُملي الرافعي على العريان بعض العبارات الغامضة، يحاورهُ العريان فيها ويُخبره أنها ربما يصعب فهمها، وذلك حتى يُغير الجملة فيجعلها أقرب إلى الفهم.

وقد كان الرافعي في بداية الأمر يُنكر ذلك على العريان، ويغضب أحيانًا لاعتداده بنفسه، ثم اعتاد الرافعي بعد ذلك منه ورضي به، فكان كلَّما أملى جملة على العريان يسألهُ عن فهمه لها، فإن شعر

أنهُ لم يفهم مقصده، غيَّرها حتى يتّضح المعنى، وأطلق الرافعي على العريان بعد ذلك ـ على سبيل المزاح ـ لقب العقل المتوسط من القُراء.

تعقيب

إذن، الأمثلة التي أوردناها تُخبرنا أن الكاتب ـ مهما كانت مكانته ـ عليه أن يستفيد من آراء غيره، ولا يستنكف أبدًا من إعطاء مسوَّدة الكتاب لأشخاص يُقدِّرهم ليقرءوها ويُعطوه رأيهم فيها، وليس في ذلك أي انتقاص من قدره.

عرضي لكتبي

ولقد قمتُ بفعل ذلك في جميع كتبي، فبعد انتهائي من كتابة مسودة الكتاب ومراجعتها عشرات المرات، أقوم بإعطائها إلى خمسة من الأصدقاء ممَّن أحترم رأيهم وأقدره كثيرًا، وفي مقدمتهم زوجتي، فيفيدونني بملاحظاتهم وتصويباتهم الشيء الكثير، هذا يُنبهني بأن هذه الفكرة تحتاج إلى إيضاح أكثر، والثاني يقول هذه الفقرة تحتاج إلى اختصار قليلًا، والثالث ينبهني لأخطاء لغوية ونحوية لم أنتبه لها، وهكذا، وهذا كله يصب في تطوير مسودة كتابي كثيرًا.

ماذا لو لم أتفق مع آرائهم؟

قد يحدث في أحيانٍ كثيرة ألَّا تتفق مع وجهات نظرهم وملاحظاتهم، هذا أمر وارد الحدوث كثيرًا. والنصيحة في ذلك: خذْ ما تراه مناسبًا وصحيحًا ودَعْ ما لم تقتنع به، ولا مانع أن تُناقشهم وتحاورهم في رأيهم، لكن ليس شرطًا إن لم تقتنع بوجهة نظرهم، أن تأخذ برأيهم، لكن حتمًا ستجد لديهم ملاحظات وتصويبات مهمة جدًّا ترتقي بكتابك.

الكتاب أصبح جاهزًا

في هذه المرحلة إذا وجدت إجماعًا ممَّن قرءوا مسودة كتابك، على أنَّ الكتاب في مضمونه جيد، فمعنى هذا أنك نجحت بإذن اللّه، ووصلت تقريبًا إلى المراحل الأخيرة. وأنا هنا لا أتكلم عن الأخطاء التي لا يخلو منها أيُّ كتاب، أتكلم بشكل عام عن فكرة الكتاب وطريقة طرحك ومعالجتك للموضوع، هذا ما ينبغي أن تُركز عليه وتسمع رأي الأصدقاء فيه، أما الباقي فيمكن إصلاحه وتداركه.

ثامنًا: استعنْ بمُدقِّق لُغوي

الخطوة الأخيرة قبل الدخول إلى عالم النشر، هو أن تبحث عن مُدقِّق جيِّد يُصوِّب الأخطاءَ الإملائية والنحوية والصرفية ويضبط علامات الترقيم، وهذا أمر في غاية الأهمية، فكثير من القُرَّاء ـ

خصوصًا مَن لديه ذائقة قرائية جيدة ـ تنفر نفسه من قراءة الكتاب المليء بالأخطاء اللغوية، ولو كان الكتاب جيِّدًا في بابه.

أذكر أني قرأت كتابًا، فوجدت أنهُ غير مُدقَّق لغويًّا، وأزعجتني كثرة أخطائه الإملائية التي أجدها في كلِّ صفحة، ولم أستطع إكمال قراءة الكتاب بسبب ذلك. الكتاب المُدقَّق لغويًّا يزداد جمالًا لدى القُراء، ويكون أكثر جذبًا لهم لقراءته، فما أجمل أن يكون الكتاب جميلًا معنًى وسليمًا لغة!

لا تُدقِّق كتابك بنفسك

حذَّر (د. طارق السويدان) أن يقوم المؤلف بتدقيق كتابه بنفسه، ولو كانت لغته جيدة، وبيَّن سبب ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يرى أخطاءه، فحتمًا ستفوته أشياء كثيرة. وهذا صحيح جدًّا، فلا بدَّ من شخص آخر يُدقِّق وينتبه للأخطاء التي لا يراها الكاتب، خصوصًا أن الكاتب يقرأ الكلمات كما في ذهنه وليس كما كتبها في المسودة، فلا ينتبه للأخطاء في كتابه.

كتابي (شجون القُراء)

في كتابي (شجون القُراء) قامت الدار بالاستعانة بمُدقق محترف، وهي (أ. كناز موسى)، فقامت بإصلاح الأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية، فصار الكتاب جميلًا يسُرُّ القارئين، وخصوصًا من أهل اللغة ومُحبيها.

بين المُحرر والمُدقِّق(18)

ينبغي أن نعرف الفرق بين التدقيق والتحرير؟ التدقيق ـ كما مرَّ معنا ـ هو إصلاح الأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية، بينما التحرير هو إعادة صياغة بعض الجمل والعبارات بطريقة أخرى لتكون واضحة ومفهومة للقارئ. وظيفة المُحرر إذن أن يقوم بإعادة كتابة الجملة لتكون واضحة المعنى بدون أي لبس لمن يقرؤها.

بمعنى آخر، التحرير يهتمُّ بسلامة الجملة من حيث صياغتُها ووضوحها، بينما التدقيق يهتمُّ بخلوِّ الجملة من الأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية. ومن هنا يتَّضح لنا أنَّ المُحرر أشمل من المُدقِّق، وأنَّ التحرير خطوة تسبق مرحلة التدقيق، فالتدقيق ـ غالبًا ـ يكون آخر مرحلة.

قد يحتاج كتابك إلى تحرير

ربما يحتاج كتابك إلى تحرير، وتعرف ذلك من خلال آراء الأصدقاء الذين قرءوا مسوَّدة الكتاب، فإذا قالوا لك إنَّ أفكار الكتاب جميلة، لكنَّ بعضًا أو كثيرًا من عباراته وجُمَله وفقراته غير مفهومة أو غير مترابطة، فهنا يُفضَّل أن تستعين بُمحرِّر جيِّد يقوم بتحرير كتابك وصياغة أفكارك بطريقة أفضل وأسلس.

والتحرير ليس عيبًا، وليس فيه أيُّ انتقاص من قَدْر المؤلف، وكبار الكَتّاب ـ فضلًا عن صغارهم ـ يستعينون بمُحرِّر جيِّد يُحرِّر كتبهم.

(إدوارد سعيد) والتحرير

أخبرني الصديق المترجم (أ. أحمد المعيني) أنه حضر ندوة افتراضية أُقيمت في (بيت الزبير)، وكان ذلك تقريبًا في شهر نوفمبر من عام 2020م، وكان محور الندوة يدور حول النشر، وكان من بين المشاركين الأستاذة (رنا إدريس) ـ مديرة دار الآداب ـ. وكان أحد محاور الندوة يتحدث عن التحرير.

يقول (أ. المعيني) إن (أ. رنا) ذكرت مثالًا عجيبًا في هذا المحور، حيثُ قالت إنهُ لما بدأنا ننشر كتب الكاتب الكبير (إدوارد سعيد)، كان أول كتاب قمنا بنشره له هو كتاب (الثقافة والإمبريالية). تقول (أ. رنا) إن (إدوارد سعيد) جلب لهم نسختين من النصِّ: النسخة الأولى هي النص الأصلي الذي كتبه (إدوارد) بنفسه، والنسخة الثانية هي النسخة المُحررة من قِبل المُحرر. وذكرت (أ. رنا) أن النسخة المُحررة بها تشطيبات وتعديلات وإصلاحات كثيرة على النص الأصلي.

تقول (أ. رنا) إنها تعجَّبت وسألت الكاتب الكبير (إدوارد سعيد): كيف يرضى (إدوارد) ـ المعروف بقيمته العلمية ومكانته الأكاديمية الكبيرة ـ أن يقوم مُحرر بتغيير لغتته وجُمله وعباراته؟ فكان رد (إدوارد) عليها أن الكتابة ليس فيها كبير أو صغير، الكتابة فيها هل كلامي واضح أم أنهُ غير واضح لمن يقرؤه.

ثم تقول (أ. رنا) إن (إدوارد سعيد) أخبرها أنهُ تعلم أنه لا يمكن أن يطبع أي كتاب من كتبه قبل أن يقوم محرر بتحريره، وعلَّل ذلك بأنه قد يصوغ أفكاره بطريقة يراها واضحةً بحكم أنهُ هو المؤلف، لكن المُحرر يرى النص من وجهة نظر قارئه، وليس من وجهة نظر مؤلفه، فربما تكون الفكرة التي ذكرتها ليست واضحة، لذلك فوجود شخص آخر يقرأ النص ويرى هل هو واضح أم لا، أمر مهم جدًّا.

ثم يذكر (أ. المعيني) أن (أ. رنا) قالت إنَّ دار الآداب انتهجت هذا المنهج بعد ذلك لأهميته، وهو تحرير أي كتاب قبل صدوره. ثم قال لي (أ. المعيني) أن من يقرأ كتب (عبد اللّه القصيمي) يجد فيها تكرارًا كثيرًا يقود من يقرؤه للملل، حيث إن (القصيمي) يقوم بتكرار الفكرة مرات ومرات، والسبب في هذا التكرار الكثير، عدم استعانته (أي القصيمي) بمحرر يقرأ كتابه قبل طباعته.

تعقيب

إذن، الاستعانة بمحرر ـ كما ذكرت ـ ليس فيه ما يحطُّ من قدر المؤلف، بل العكس، فالمؤلِّف الواثق بنفسه ـ كإدوارد سعيد مثلًا ـ يفعل ذلك؛ ليقينه أنه أحيانًا قد لا يُحسن عرض الفكرة بوضوح، لما تتنازعه من أمور، وتعتريه من صروف تشغل قلبه وتُشعِّب فكره، كما قال (يحيى بن خالد).

موقف طريف حصل مع (عبد المنعم الزيادي)

موضوع تحرير المقالات والكتب يُذكِّرني بالقصة الطريفة التي رواها الصحفي والكاتب والمترجم (عبد المنعم الزيادي)، حيثُ يذكر أنه تم تعيينه مساعدًا لسكرتير تحرير عجوز قضى أكثر من عشرين عامًا في هذه المهنة.

يقول (الزيادي) إن مهمته كانت أن يُراجع المقالات التي يُقدمها المحررون، ويُنقحها، أو يصوغها صياغة أخرى إن احتاج الأمر، وأن يختصرها إن كان فيها طول، أو يطوِّلها إن كانت قصيرة، حتى تلائم الحيِّز المُخصَّص لها، وأحيانًا يختار لها عنوانًا مع مقدمة تُشوِّق القارئ!

يحكي (الزيادي) أنهُ بعد أيام من تسلمه عمله في المجلة، عهد إليه سكرتيره بقصة لكاتب لطالما أعجب (الزيادي) بكتابته. يُعقب (الزيادي) بأنه ذُهل عندما قرأ القصة، فليس هذا هو أسلوب الكاتب الذي أحبَّ كتاباته! فقد كانت القصة في غاية ركاكة الأسلوب، وتشتت الفكرة، وحافلة بمختلف الأخطاء اللغوية النحوية!

يقول (الزيادي) حينها فهمت كلَّ شيء، فهمت أنَّ ما كنت أقرؤه لهذا القصَّاص، إنما كان يصلني خلال جنود مجهولين يعملون في القصة تنميقًا وتعديلًا وتشطيبًا. عندها قام (الزيادي) بنفس المهمة. شمَّر عن ساعده، ونحَّى القصة بعد أن فهم فكرتها. وراح يُعيد صياغتها من جديد، حتى خلق قصة جديدة! وجعل لها عنوانًا آخر توسَّم فيه أنهُ أدلُّ على المضمون، وأكثر إثارةً لاهتمام القارئ.

يذكر (الزيادي) أن القصة تم نشرها، وقرأها صاحبها بين ما قرأ من محتويات المجلة، لكنه لم يتعرف عليها. عندها قام بسؤال (الزيادي) لماذا لم ينشر قصَّته في العدد الأخير من المجلة؟ فردَّ عليه (الزيادي) بأنه قد نشرها. فسأله الكاتب: أين؟ حينها قام (الزيادي) وقلب صفحات المجلة حتى وصل للقصة وأشار له بأنها هذه. تعجَّب الكاتب ومضى لمدير (الزيادي).

يقول (الزيادي) لقد أقبل عليَّ مديري السكرتير العجوز وهو يُغالب الضحك، وقال لي: «إن فلانًا لم يتعرف على قصته في المجلة! وهو يشكو من أنَّك غيَّرت بنيانها وعنوانها ولم تُبقِ له شيئًا منها! رفقًا بعض الشيء بنفثات أقلام الكتَّاب. أَبْقِ لهم شيئًا من أسلوبهم!».

يقول (الزيادي) عندها وعيت الدرس، ورحتُ أحرص قدر ما أمكن على أن أحتفظ بالهيكل العظمي لكتاباتهم، ثم أكسوه لحمًا جديدًا!

ثم عقَّب (الزيادي) وقال: لذلك لا تتعجَّب ـ أيها القارئ ـ ولا تحسب أنك مخدوع أو مُضلَّل إذا صارحتك بأنَّ عددًا من الأسماء اللامعة التي تقرأ لها القصص والمقالات، إنما تصلك ثمرات أفكارهم في صيغ قد تختلف اختلافًا كبيرًا عن الصيغ التي أُفرغت فيها أول مرة!

التحرير في عالمنا العربي

في العالم الغربي لا يُمكن أن تُصدر كتابًا حتى يكون لديك وكيل ومُحرِّر، لكن للأسف في عالمنا العربي وجود مُحرر ليس شرطًا في النشر كما في الصحف، وقلة قليلة من دور النشر من يفعل ذلك.

تاسعًا: الدخول إلى عالم النشر

بعد تدقيق الكتاب، أو تحريره إن لزم الأمر، نستطيع أن نقول إنك اقتربت كثيرًا من عالم النشر، وما عليك سوى أن تتواصل مع دُور النشر أو تلتقي بهم في معارض الكتب، وتعرض عليهم مسوَّدة الكتاب وتُخبرهم عن مضمونه، وتتفق معهم على طبع الكتاب.

ماذا لو تلقيتُ رفضًا؟

وهنا نقطة مهمة كذلك، فقد يُصاب بعض مَن أرسلوا مسودة كتابهم إلى بعض دُور النشر بإحباط شديد عندما يتلقَّون رفضًا بعدم الموافقة على نشر كتابهم.

الرفض لا يعني دائمًا أن كتابك سيئ

الرفض لا يعني دائمًا أن كتابك غير جيد، الرفض أمر مألوف عند جميع الكُتَّاب، خصوصًا في بداية مؤلفاتهم كما ذكروا، فالرفض له أسبابه الكثيرة، فقد يكون مضمون كتابك لا يتوافق مع سياسة دار النشر، أو أن موضوع كتابك جيد، لكن غير ذي عائد من الناحية المادية للدار، فأغلب الدُّور تبحث عن المواضيع التي تلفت انتباه القُراء، وإلا أعلنت إفلاسها.

وقد يكون الأشخاص الذين قرءوا كتابك في لجنة الدار لم يَرُقْ لهم كتابك، هذا وارد جدًّا. النصيحة هي عدم أخذ الرفض بأنَّ كتابك لا يصلح للنشر، بل ينبغي أن تخاف إذا لم تتلقَّ رفضًا لكتابك كما قالت الكاتبة (آني سيبا).

الأديب علي أدهم

ذكر (وديع فلسطين) أن الأديب (علي أدهم) اشتكى له وهو في أواخر حياته أنهُ لا يجد ناشرًا يرغب في طباعة كتبه، بعكس ما كان في بداية كتاباته قبل عقود، والغريب ـ كما يقول (علي أدهم) ـ أن هذا حدث عندما صار مشهورًا واستقرَّت مكانته في عالم التأليف! وقد بيَّن له (وديع فلسطين) أن الكتب تخضع لنواميس السوق، وأن العيب ليس في كتبه، إنما العيب في العوامل التجارية الطاردة للكتاب الجادِّ.

تعقيب

ما ذكره (وديع فلسطين) خير مثال على أنه أحيانًا ليس العيب في الكتاب، إنما العيب في عوامل أخرى تجعل دُور النشر لا تُخاطر بطباعة الكتاب الجادِّ؛ لنُدرة من يقرؤه، وتُفضل عليه طباعة كتاب تجاري تنفد طبعاته في شهور بسيطة، مع أن الدار تعلم قبل غيرها أن هذا الكتاب ليس ذا قيمة كبيرة لمن يقرؤه، لكن السوق هكذا يطلب ولا بدَّ من اتِّباعه!

كتاب (شوربة دجاج)

كم من كتاب رُفض كثيرًا من قِبل دور نشر كثيرة، ولكن عند صدوره أقبل عليه القُراء ولاقى قَبولًا عجيبًا، وبِيع منه ملايين النسخ. خيرُ مثال على ذلك سلسلة كتب (شوربة دجاج للروح) لمؤلفيها (جاك كانفيلد) و(مارك هانسن)، وقد صدر أول كتاب من السلسة عام 1993م، وتم رفض مسودة الكتاب من قِبل أكثر من 130 ناشرًا! قال (جاك كانفيلد) إنَّهُ في أول يوم لعرض مسودة الكتاب ذهب إلى (نيويورك) وزار فيها عشرة ناشرين خلال يومين، وكلهم رفضوا الكتاب، وقالوا إن العنوان غبي، ولا أحد يرغب في شراء مجموعات من القصص القصيرة لا توجد فيها أي مهارة.

والآن بعد قرابة ثلاثة عقود من صدور أول كتاب من السلسلة، تجاوز عدد كتب السلسة 100 كتاب، وبِيعَ منها أكثر من 130 مليون نسخة، لتُصبح من أكثر الكتب بيعًا في العالم. الرفض قد لا يعني أن العيب في كتابك.

للرفض فوائده

قد يكون الرفض فرصةً لتطوير المسودة أكثر إذا أعطاك الناشر نقدًا لها، خصوصًا أن الناشر ــ في الغالب ــ يُفكر بعقلية التاجر وليس بعقلية المؤلِّف، كما قال (د. راشد العبد الكريم)، فهو صاحب خبرة في مجال النشر ويعرف ماذا يجذب القُراء.

لذلك من المهم أن تستمع لنقده في المسودة، فقد تفيد منه شيئًا يُحسن من مسودتك ويجعل الكتاب أكثر قبولًا في سوق الكتب، لكن انتبه أيضًا فليس من الواجب عليك أن تستجيب للناشر في كلِّ ما يقوله من نقد! قيِّم نقدَه وخذْ ما تراه صحيحًا، وتجاهل غير ذلك.

الخلاصة

هذه باختصار أهم المراحل لمن يرغب أن يكون كاتبًا، ولمن أراد الاستزادة، عليه بقراءة الكتب المُتخصصة في ذلك، وهي كثيرة ولا تخفى على كل باحث لها.[(19)]

أولًا وأخيرًا: استعنْ بالله في كلِّ وقت

قبل هذا كله، عليك أن تلجأ إلى اللّه وتسألهُ أن يُلهمك التوفيق والسداد، وأن يعينك في تأليف وإتمام الكتاب، فكمِ انقطع كثيرون في المنتصف وبقيت المسوَّدة حبيسة أدراجهم لسنوات، فالتصانيف ــ كما

قالوا ـ رزق من اللّه يهبهُ لمن يشاء، فكلّ التوفيق والعون من اللّه وحده، وما خاب مَن دعاه ورجاه وسألهُ بصدقٍ، وتسألهُ ـ سبحانه ـ كذلك أن يجعل كتابك نافعًا خالصًا لوجه.

التأليف أنضج مراحل القراءة

تأكَّد أن التأليف هو أعلى مراحل القراءة وأنضجها؛ لأنك تقرأ بتركيز وعمق وتحاول أن تُحلِّل وتستنتج وتقارن، والمؤلفون هم أكثر القُرَّاء استفادةً، كما قال (د. عبد الكريم بكار). وقد أكدت (آن لاموت) نفس المعنى، حيثُ قالت: إن عملك ككاتب يُحدث تغييرًا عميقًا في حياتك كقارئ؛ إذ تقرأ بتقدير وتركيز أعنف، وتدرك مدى صعوبة الكتابة، وخاصة في كيفية جعلها سهلة للقارئ.

قصَّة (هنري ميلر) مع التأليف

كلام (آن لاموت) أن القارئ عندما يدخل عالم الكتابة يُدرك مدى صعوبة التأليف، يُذكرني بما قاله (هنري ميلر) في كتابه الرائع (الكتب في حياتي)، بأنهُ عندما كان شابًّا صغيرًا، كان كثيرًا ما اعتقد بعد الانتهاء من قراءة كتاب ما، أنَّ باستطاعته كتابة أفضل منه بكثير.

وقال (ميلر) إنهُ كلَّما قرأ أكثر صار منتقدًا أكثر، حتى أصبح لا يُعجبه شيء، ولا يوجد في نظره كتاب جيِّد، وكره الكتب والكُتَّاب، وصار ينهال عليهم بالنقد القاسي بلا رحمة.

وما إن دخل (هنري) عالم التأليف والكتابة، تغيَّرت نظرتهُ إلى النقيض، وذكر أنهُ كلما كتب أكثر ازداد فهمه لما يحاول الكُتَّاب الآخرون أن يُخبروه من خلال كتبهم، وازداد تسامحه معهم، وصار أكثر تساهلًا وتفهُّمًا لكتاباتهم ممَّا كان عليه قبل أن يؤلِّف أي كتاب.

تعقيب

أتفق مع كلام (ميلر)، فعندما تخوض التجربة وترى مدى صعوبة الكتابة والجهد الذي يتطلَّبه تأليف كتاب واحد، تعذر الكاتب حينها. وصدق الروائي الكولومبي الشهير (ماركيز) حين قال إن تأليف الكتب مهنة انتحارية؛ لأنها تتطلب قدرًا كبيرًا من العمل والتفاني لا يتطلبه غيرها من الأعمال الأخرى.[(20)]

المحور السادس: حبسة الكاتب وعلاجها

قد تُصاب بحبسة الكاتب في أي مرحلة من مراحل تأليف الكتاب، و(حبسة الكاتب) هي حالة مؤقتة تُصيب الكاتب، حيثُ لا يستطيع أن يكتب فيها شيئًا، أو لا يستطيع أن يُكمل عمله الذي بدأ الكتابة فيه، فيظلُّ أيامًا ـ قد تطول أو تقصر ـ عاجزًا عن الكتابة، وحبسة الكاتب تُصيب أي كاتب مهما كان له باع طويل في الكتابة، وهو أمر طبيعي الحدوث.

وقد واجهتني حبسة الكاتب في كلَ كتبي بلا استثناء، ولها عدَّة علاجات، نورد بعضًا منها.

أولًا: القراءة

من طرق علاج حبسة الكاتب: كثرة القراءة، وهذا ما أفعله، فكلَّما شعرت بعدم الرغبة في الكتابة، أو عدم الاستمرار في الكتابة لأيام أو أسابيع، أقوم بالقراءة بِنَهَم، وسرعان ما أجد نفسي تتحفز لإكمال المسودة، فلا يخفى دَور القراءة في تحريك الأذهان كما قال (د. راشد العبد الكريم). وعادةً أختار القراءة في مجال مختلف تمامًا عن المجال الذي أكتب فيه؛ لأخرج من الجوِّ قليلًا.

ثانيًا: مارسْ رياضة المشي

أيضًا من العلاج ممارسة رياضة المشي، والمشي له دَور كبير في تحريك العقل وجلب الأفكار الإبداعية، يقول الكاتب والمدرب (ستيف تشاندلر) إنهُ عندما يريد أن يتغلَّب على أمر ما، أو يواجه مشكلة ويبحث عن حلٍ لها، يقوم بجولات طويلة مشيًا على قدميه. وبيَّن سبب ذلك أنهُ عندما يمشي لفترة طويلة غالبًا ما يظهر له الحلُّ، ويتَّجه نحو مستوى أعلى من الإبداع. وفي اعترافاته قال الفيلسوف والكاتب الفرنسي الشهير (جان جاك روسو) إنهُ لا يستطيع التفكير إلا وهو يمشي، فعقله لا يتحرك إلا مع تحرك قدميه.

ولعلَّ المشيَ هو أحد الأسباب في إبداعات العملاق (مصطفى صادق الرافعي) الكتابية، فقد ذكر الأديب (محمد العريان) أن الرافعي كان مولعًا بالرياضة البدنية يمارسها بانتظام، وأن المشي الطويل كان أحبَّ رياضة إليه.

وهذا ما أفعله كذلك، فإن لم تُجْدِ القراءة في علاج الحبسة، فإني أقوم بممارسة رياضة المشي لمسافة طويلة، وقد أثبت المشي فاعليته ـ بعد توفيق الله ـ في تحريك ذهني وإرجاعي للكتابة في حالاتٍ كثيرة.

ثالثًا: غَيِّرِ المكان الذي تكتب فيه أو خُذِ استراحةً قليلة

من العلاج تغيير مكان الكتابة، كأن تأخذ لك غرفة في فندق، من باب التغيير والتجديد. أو تأخذ استجمامًا لفترة وراحة ومن ثم تعود لإكمال العمل.

رابعًا: مارس التمارين الرياضية

أيضًا من العلاج ممارسةُ التمارين الرياضية؛ حيثُ لها دَور في التغلُّب على حبسة الكاتب. يذكر الروائي الأمريكي (دالاس وودبيرن) أنهُ أصيب بحبسة الكاتب لفترة تجاوزت الأسابيع، فلم يستطع خلال تلك الفترة أن يكتب شيئًا، فكان صعبًا عليه أن يجلس على الحاسوب ويبدأ في الكتابة، ولم يمرَّ

عليه مثل هذا التوقّف الطويل سابقًا. يقول (دالاس): وفي فترة شعوري بالإحباط والاستنزاف الإبداعي، قررتُ التحرك والخروج من غرفتي لممارسة رياضة الجري.

يقول (دالاس) إنهُ بعد نصف ساعة فقط من الجري، شعر بهدوء غريب لم يشعر به منذ فترة طويلة، واستطاع أن يسمع نفسه وهي تُفكِّر، وعندما عاد إلى غرفته، شعر بحماسٍ شديد للجلوس والكتابة، وطَفَتْ أفكار لشخصيات وأجزاء من حوارات في عقله، وكأن الممر الذهني إلى إبداعه الباطن قد انفتح.

ثم يذكر (دالاس) أنَّه من يومها أصبحت رياضة الجري أو المشي السريع جزءًا من روتينه اليومي، وبيَّن سبب ذلك قائلًا: «لأني وجدتُ التمرين يُشعرني بالتوازن أكثر، وبالحدة الذهنية، والتواصل مع مشاعري، ممَّا أثَّر بشكل إيجابي في جميع جوانب حياتي، حيثُ يُبقي عصاراتي الإبداعية متدفقة، ويُساعدني في إيجاد الحلول لمشاكل الحياة كلها، وليس حبسة الكتابة فقط، ويُجدِّد طاقتي».

كيف تغلَّب (طريف الخالدي) على حبسة الكاتب؟

ذكر الكاتب (طريف الخالدي) أنهُ أُصيب بحبسة الكاتب لفترة من الزمن، حيثُ كان كلَّما أراد أن يبدأ في الكتابة يرى بياض الصفحة وكأنه انعكاس لبياض أفكاره، فتمضي الساعات ــ بل الأيام ــ في التأمُّل وفي استقبال شلَّال الأفكار التي لا تَمُتُّ بِصلة للموضوع الذي يرغب في الكتابة فيه دون أن يكتب شيئًا.

يقول (الخالدي) إنَّ الذي ربما أنقذه من حبسة الكاتب هو أنه بدأ يُرغم نفسَه على الكتابة وإن لم يجد الرغبة في ذلك.

ثم وجَّه (الخالدي) نصيحته المهمة، وهي أنَّ على الكاتب عدم انتظار الإلهام حتى يكتب، بل عليه الشروع في الكتابة كيفما اتفق، والعودة إلى ما كتبه لاحقًا بعد صفاء الذهن لتصحيحه.

الخلاصة

هذه عدَّة حلول لمواجهة حبسة الكاتب، والنصيحة الأهم هي ألَّا تستسلم لها، بل قاومها بكلِّ الطرق حتى تتغلَّب عليها.

المحور السابع: كيف تتعامل مع النقد؟

خصَّصتُ في كتابي (عزاءات القراءة) مقالًا مطوَّلًا عن النقد وبيَّنت كيفية التعامل معه، ودعمتُ المقال باستشهادات ونقولات ونصائح وقصص، وهنا أريد أن أوضِّح عدَّة أمور حول النقد وأنواعه، وكيفية التعامل الصحيح معه وإضافة بعض الأمور المهمة.

لن تَسْلَمَ من النقد

أولًا: النقد لا بدَّ منه، ولن يَسلم منهُ أيُّ كاتب مهما علا شأنه أو قلَّ، وبما أنك قد ولجتَ عالمَ التأليف فضع نُصب عينيك أنهُ ستأتيك انتقادات كثيرة، وقد قيل: «من صنَّف كتابًا فقد استُهدف، فإن أحسن فقد استُعطف، وإن أساءَ فقد استُقذف»؛ أي صار هدفًا لسهام النقد.

وقد أكَّدت الكاتبة (آن لاموت) ذلك، وقالت: لا بدَّ أن تجد مراجعات وتقييمات فظيعة عن كتابك، ويستحيل أن يُعجب الجميع بكتابك، هذا أمر طبيعي جدًّا.

إذن، وطِّنْ نفسك على ذلك، والطريقة الوحيدة ــ كما قالوا ــ لكي تتجنَّب النقد، هي ألَّا تعمل شيئًا، ولا تكن شيئًا، أما غير ذلك فلن تنجو منه، ولن تستطيع أن تُكمم الأفواه كما قالوا.

أنواع النقد

ثانيًا: النقد نوعان: النقد البنَّاء والنقد الهدام، وينبغي للكاتب أن يعرف كيف يتعامل مع النوعين.

النقد البنَّاء

النقد البنَّاء ضروري لتطوير الكاتب وأسلوبه، ولا يستغني عنه أيُّ كاتب مهما علا شأنه. وغالبًا ما تعرف أنَّ هذا النقد نقد بنَّاء عندما تجد مَن ينتقد الكتاب يقوم بذكر إيجابياته وأهم الإضافات النوعية فيه، ثم يُعرج على بعض الملاحظات والأخطاء بأسلوب راقٍ مُهذَّب ليس فيه تجريح أو استنقاص.

وهدف الناقد من ذلك أن ينتبه المؤلِّف لهذه الأخطاء ويتجنَّبها في كتبه القادمة، وهذا أمرٌ في غاية الأهمية لتحسين الكاتب وتطويره؛ لأن القارئ ينظر من زاوية أخرى قد لا ينظر منها الكاتب، وبذلك يُنبههُ لأمور لم يكن منتبهًا لها من قبلُ.

نعم، من طبيعتنا البشرية أن نكره النقد ولا نصبر عليه، وعندما ننقد كتابًا نُصبح خصومًا عند المؤلِّف، كما قال الأديب الشيخ (علي الطنطاوي)، وقد توقف كثيرٌ من الفضلاء عن النقد النافع، لئلا يُتَّخذوا أعداءً من قِبل مَن نقدوهم، كما قال (محمد كرد علي).

لكن الكاتب الواثق بنفسه عليه أن يتقبَّل هذا النوع من النقد بروح مرحة ولا ينزعج منه، بل عليه أن يفرح بأنَّ هناك مَن عرَّفهُ على الأخطاء التي وجدها في كتابه، ليقينه أنَّ أيَّ كتاب خطَّتهُ يد بشر لا يسلم من الزلل والنقص، والكاتب الواعي يتعلم ويستفيد من أخطائه ولا يُكررها. ينصح (د. محمد الحمد) كلَّ كاتب قائلًا: «افرحْ بالنقد الهادف فرحَك بالثناء الصادق».

يقول (د. محمد رجب البيومي): «إن النقد الهادف يُصحح أخطاء المؤلف، ويُوجِّه نظره إلى مسائل لم تكن تخطر على باله لو لم يقرأ النقد». هذه إحدى فوائد النقد التي تأتي إلى المؤلف على طبق من

الذهب، والمؤلف الناضج هو مَن يجعل مِن مثل هذا النقد فرصةَ لتطوير كتاباته وتوسعة فكره.

النقد الهدَّام

النوع الثاني من النقد: هو النقد الهدَّام، الذي هدفه تحطيم الكاتب؛ غيرةً وحسدًا، والتعامل معه يكون بعدم الالتفات إليه متى ما تيقَّن المؤلِّف أنَّ هذا النقد ليس نقدًا لتحسينه، بل لتحطيمه. وقد يسأل سائل: كيف لي أن أعرف إن كان هذا النقد نقدًا هدَّامًا؟

نقول: من خلال مؤشراتٍ يستطيع الكاتب معرفة ذلك، كأن يرى أنَّ الناقد متحامل جدًّا ضد كتابه، يُخفي حسناته الكثيرة ولا يذكرها، وفي المقابل يُبرز الأخطاء والهفوات ويُضخِّمها.

كذلك، يمكن معرفة ذلك عندما يُثني على الكتاب طائفةٌ من الأفاضل المشهود لهم بالعلم والفضل، ثم تجد هذا الناقد يتعامى عن هذا كله، ويبحث عن هفوات الكتاب ليذكرها.

الكاتب الناضج لا يسمح للنقد الهدَّام أن يُؤثر عليه، ولا يُدخل الكلام في عقله، فهو يعلم أنَّ هدف هذا النقد هو إيقافه عن مشاريعه الكتابية، بل يتجاهله كأن لم يقرأه، ويستمر في كتاباته.

النجاح يجذب النقد

ذكر الكاتب (تيري جيليبوف) قصَّة الكاتب الروماني (قسطنطين جيورجيو) وقال بأن روايته (الساعة الخامسة والعشرون) التي أصدرها في العام 1949م وهو في الثالثة والثلاثين من عُمره، حققت نجاحًا مُبهرًا، فسرعان ما صارت الرواية من أكثر الكتب بيعًا، إذ بِيع منها أكثر من مليون نسخة، وتُرجمت إلى ما يفوق الثلاثين لغة، حتى قال ناقدٌ عنها: «قراءة (الساعة الخامسة والعشرون) ضربٌ من الواجب»، وقال آخر: «(الساعة الخامسة والعشرون) تُنزل رواية (كانديد) [21] إلى مرتبة العمل الترفيهي».

يقول (تيري جيليبوف): «النجاح يجذب النقد»، وبسبب نجاح الرواية الكبير وبقدر ما منحت كاتبها من مجدٍ كبير، إلا أنها سبَّبت له عداوات متينة ودائمة، حيث تكالب خصومه عليه وشوَّهوا سيرته، واتَّهموه بأنهُ مجرم حرب، مُعادٍ للسامية، وناشط هتلري، على الرغم من أن زوجته يهودية! واتَّهموه بأنهُ يدافع عن الإبادة الجماعية، ومُخْبر للشرطة الرومانية!

تعرض (جيورجيو) وزوجته بسبب هذه الاتهامات إلى الاعتداءات اللفظية والجسدية، ومرَّات عديدة تم نقلهما في سيارات الشرطة أو الإسعاف! ومُزقت كتبه، وصارت القمامة تُرمى في وجهه، والقُراء يُعيدون إليه النسخ الموقَّعة من روايته ورسائله. وانقلبت الصحافة الفرنسية عليه تذمُّه، وهي التي كانت قبل أربع سنوات قد رفعتهُ إلى السحاب! ثم تطور الأمر وقامت الصحافة العالمية بأسرها، بإعادة نشر مقالات الصحف الفرنسية، والغريب أنَّ هذه الاتهامات ظلَّت تلاحقه حتى بعد وفاته بأربعين عامًا[22]!

يتبيَّن لنا من قصَّة الروائي (جيورجيو)، أن النقد لا يعني دائمًا أن كتابك به الخلل، بل ربما العكس هو الصحيح، فنجاح كتابك وانتشاره وتأثيره يكون هو سبب الهجوم والانتقاد الظالم، ولو لم يكن لكتابك هذا الصدى والتأثير لما حاربوه وحاربوك ولم يلتفتوا إليك، وكلَّما كان الكتاب أكثر تميُّزًا، زاد النقد الظالم الموجَّه لمؤلفه، كما مرَّ معنا في رواية (الساعة الخامسة والعشرون).

ماذا فعل النقد بكتاب (من هنا نبدأ)؟

ثالثًا: النقد ليس شرٌّ كله، فلا ينبغي أن تخاف عندما تجد من يُحارب كتابك وينتقده بشدة، بل قالوا إن من علامات الكتاب الجيد أن يكون له نُقاد، وكلُّ ما لا يُنتقد يزول بسرعة. يذكر الأديب (خالد محمد خالد) أنهُ عندما ألَّف كتابه الأول (من هنا نبدأ)، هُوجِم الكتاب وانتقد كثيرًا في الصحف وغيرها، من قِبل بعض علماء الأزهر وبعض الدعاة وبعض الأدباء، وطالبوا بمصادرة الكتاب ومحاكمة المؤلف.

يقول الأديب (خالد محمد خالد) إن هذه الهجمات والانتقادات الكثيرة زادت الكتاب انتشارًا وذيوعًا، لا في مصر وحدها، بل في البلاد العربية وغير العربية، ونفدت طبعات الكتاب بسرعة فائقة، ولولا هذا النقد والهجوم الشرس على الكتاب، لما ذاع وانتشر في كل مكان بهذه السرعة.

لن تتطور إذا حاربت كل نقد

رابعًا: الكاتب الذي يرفض النقد ويحاربه ويرى أنَّ أيَّ نقد موجَّه له أو لكتاباته أنها محاولة لتحطيمه، وأنَّ كلَّ مَن ينتقده هو يحسده على نجاحه، لن يتطور ولن يتحسَّن، وسيبقى في مكانه يُكرِّر نفسَّه؛ لأنه اعتقد في نفسه الكمال وعدم النقص، واعتقد في كتابه أنَّهُ منزَّه عن الأخطاء، وهذه الصفة لا توجد في أيِّ كتاب بشريٍّ، بل تفرَّد بها كتاب اللّه الخالد (القرآن الكريم) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هل أتقبَّل كلَّ نقد وصلني؟

هنا نقطة مهمة، فقد يسأل سائل: هل كلُّ نقد وصلني عليَّ أن آخذه بعين الاعتبار؟ نقول له: كما أنَّ الكاتب الذي يتجاهل النقد تمامًا ولا يستفيد منه يكون مُخطِئًا، فكذلك مَن يُبالغ في قراءة كلِّ نقد موجَّه له وتصديقه يكون مُخطئًا أيضًا.

لأنَّ كثيرًا من النقد انطباعي، وربما شخصي كما قال (د. راشد العبد الكريم)، وبعض النقاد يكتب فقط ليعرف القُرَّاء أنهُ ناقد جيِّد، وبعضهم يتعامل مع الكاتب وليس الكتاب، فلا تكن مفرط الحساسية تجاه النقد، كما ينصح د. راشد العبد الكريم، فهذا من شأنه أن يوقفك عن مشاريعك.

(بلزاك) والنقد الهدَّام

(بلزاك) أحد أكبر الروائيين الفرنسيين، حين كان عمره 20 سنة، كتب رواية عرضها على أحد الأكاديميين، فنصحه بأن يترك حرفة الأدب!

لو تقبَّل (بلزاك) هذا النقد الهدام، لما وصل لما وصل إليه من قمة عالية في سماء الأدب. لكنهُ لم يسمح لهذا النقد أن يُحطِّمه؛ لأنهُ يعلم أنَّ مثل هذا النقد هو انطباع شخص، وليس شرطًا أن يكون صحيحًا. وربما كان دافِعُ هذا النقد الغيرة والحسد، لذلك كان (بلزاك) عصيًّا على هذا النوع من النقد، ماضٍ في طريقه، لا يُعيره أيَّ اهتمام ولا يُبالي به.

نصيحة الشيخ (طاهر الجزائري)

يذكر علَّامة الشام (محمد كرد علي) أن شيخه (طاهر الجزائري) نصحه نصيحة أثناء بدئه بتحرير جريدة (الشام). وفحوى النصيحة أنَّ عليه ألَّا يكترث لما يُقال فيه من خير أو شر، وألَّا يلتفت إلى يمين أو شمال، بل عليه أن يُبقي بصره مصوَّبًا نحو هدفه الذي يبغي الوصول إليه، وإذا وضع أحدهم له حجرًا في الطريق، فعليه أن يتنحى عنه، ويُكمل طريقه.

يقول (كرد) إنه استفاد من هذه النصيحة وما عبئ بعدها بأقوال المُثبطين، ولا بمجاملة المادحين. ثم يكمل (كرد) فيقول: عرفتُ مع الزمن أنَّ أصوات المُثبِّطين تضيع في الهواء كالهباء، وأنهم كسالى لا يعملون؛ لذلك يصعب عليهم أن يروا أحدًا يعمل.

ثم يذكر (كرد) أنه تبيَّن له أنَّ أكثر مَن ينتقدون إنما يكتبون للشغب، وكشف المساوئ، والظهور على الأقران، وكل صعلوك مغمور يُحاول أن يشتهر بالنَّيْل ممَّن هم أفضل منه. لذلك صار (كرد) لا يردُّ على مَن يُناقشه، فإن كان في كلامه ما ينفع استفاد منه، وإن كان من الهُراء المعتاد ينصرف عنه، ولا يشغل باله به.

كيف يرى (السحَّار) النقد؟

كلام العلَّامة (محمد علي كرد) في أن أغلب من يكتبون النقد إنما للظهور ونَيْلِ الشهرة، وليس لنفع القُرَّاء، يُذكِّرني بما حدث للأديب (عبد الحميد السحار)، حيثُ قال إنهُ قرَّر ألَّا يكتب نقدًا لأيِّ كتاب، وعلَّل ذلك بسبب موقف حدث له، وهو أنَّ أحد الأدباء قام بكتابة نقد لمجموعة أقاصيص (على الماشي) ـ التي ظهرت في تلك الفترة ـ للأديب الشهير (إبراهيم المازني)، وقام هذا الناقد يكيل المدح على أنها قصة وليست مجموعة أقاصيص، وعندما قرأ (المازني) التقريظ غضب غضبًا عارمًا، وعلم أنَّ هذا الأديب لم يقرأ المجموعة، بل كتب هذا المدح ليتقرب منه ويكون محظيًّا لديه.

وقام (السحار) بتهدئة غضب (المازني) وإصلاح الموقف عن طريق كتابة نقد صحيح عنها. فقرأ (السحار) المجموعة وأثنى عليها. ثم علق (السحار) بعد هذا الموقف أن النقد لم يكن في يوم من الأيام خالصًا لوجه الفن، فهو كتب مجاملة لإزالة غضب (المازني)، والأديب كتب مجاملة ـ دون أن يقرأ المجموعة ـ ليتقرَّب من (المازني)!

وقال (السحار) إنَّنا قوم عاطفيون نجامل على حساب كل شيء، نتعصَّب لأصدقائنا وشيعتنا ونَهَبُهم مواهب ليست فيهم، ونقدح فيمن نحسبهم خصومنا ونسلبهم كلَّ محاسنهم. ثم بيَّن (السحَّار) أنهُ ما قرأ نقدًا إلَّا وأحسَّ بالدوافع الخفية الحافزة إليه.

يقول (السحَّار) إنه عانى من كثرة المدح فقط لأنه أُشيع أنه هو المسيطر على لجنة النشر للجامعيين، فأخذوا يتقرَّبون منه لينشر إنتاجهم عن طريق مدح كتبه وتقريظها. وبسبب هذه المواقف يقول (السحار) بأنَّ أمرَّ النقد هان عليه، وأصبح لا يفرح إن قرأ مَن يمدح أحد كتبه، ولا يحزن كذلك عندما يقرأ نقدًا لاذعًا لكتاب من كتبه.

الشيخ (علي الطنطاوي)

تعجَّب الشيخ (علي الطنطاوي) من أنَّ كثيرًا من الكُتَّاب يميلون لمعرفة آراء الناس حول كتاباتهم، ويهتمون جدًّا بهذه الآراء، وقد تُحبطهم إذا كانت آراؤهم سيئة، وتُشجِّعهم إذا كانت حسنةً، ونصح (الطنطاوي) بترك هذه العادة؛ لأنَّ مَن يفعل ذلك يخسر كثيرًا من مواهبه ويحط من منزلته التي وضعها الله له ككاتب. وبيَّن (الطنطاوي) أنَّ على الكاتب ألَّا يُبالي بأذواق الناس إذا خالفت ذوقه، ولكن عليه أن يستمع إلى نقدهم إن كان يستند إلى أساس علمي صحيح، أما الذوق وحده فلا يُلتفت له، ولو كان ذوقَ أستاذه.

تقييمات موقع (جود ريدز)

موقع (جود ريدز) موقع شهير جدًّا يعرفه أغلب القُرَّاء، حيثُ يقوم كثيرون منهم بتقييم بعض الكتب التي قرءوها، وكذلك يزورونهُ لمعرفة تقييم بعض الكتب التي يرغبون في اقتنائها وقراءتها. وهنا إشكالية كبيرة في موقع (جود ريدز)، حيثُ لن تجد اتَّفاقًا على تقييم كتاب مُعيَّن، ستجد بعضهم يعدُّه أفضل كتاب قرأه، والبعض الآخر يعدُّه أسوأ كتاب قرأه. والسؤال: كيف يستطيع الكاتب أن يعرف الرأي الحقيقي في كتابه مع تضارب هذه الآراء؟

د. أحمد خالد توفيق و(جود ريدز)

يحكي الأديب الراحل (د. أحمد خالد توفيق) تجربته مع موقع (جود ريدز) فيقول إنهُ دخله مرَّةً أو مرتين فقط ليقرأ ما كُتب عن كتبه، وبعدها توقَّف عن زيارته تمامًا. والسبب أنه لم يستطع معرفة الرأي الصحيح في أعماله، فهناك مَن يراها أعمالًا عبقرية، وهناك مَن يراها أسوأ من السوء. بل وجد الأديب الراحل كميةً كبيرة من الهجوم والسبِّ حتى اعتقد أنَّ مَن كتبوا هذا الهجوم لو رأوه لقتلوه!

يُكمل الأديب الراحل فيقول إنه دخل صفحات بعض الكُتَّاب الذين يُحبُّ كتاباتهم، فوجد أنَّ الهجوم عليهم أعنف! وبيَّن سبب ذلك بأنَّ القُراء مختلفون، فهناك القارئ المُعجب بنفسه، يُعطي نجمة لشدة غروره! ثم تعجَّب الأديب الراحل من صنف آخر أشدَّ عجبًا من الصنف المغرور، صنف يمتدحون

كتاباته، لكنهم في نفس الوقت يمتدحون كتابات أشخاص يؤمن هو أنَّ كتاباتهم في غاية الرداءة والسطحية. ومعنى ذلك عند هذا الصنف، أنَّ أي كلام مطبوع هو كلام جيِّد! وهذا بالتأكيد تقييم لا يُفرح الكاتب إطلاقًا، كما قال الأديب الراحل.

يُعقِّب الأديب الراحل ويقول: المشكلة في الإنترنت أنهُ صار كلُّ مَن يملك جهازًا قادرًا على أن يمسح بكرامة الكاتب وجهده الأرضَ علنًا. يُمكنه أن يُهين (نجيب محفوظ) أو (يوسف إدريس) لو أراد، مثله مثل الصبي راكب الدراجة الذي يصفعك على قفاك لمجرد التسلية ثم يهرب!

لهذه الأسباب توقَّف الأديب الراحل عن دخول موقع (جود ريدز) وأطلق عليه اسم (باد ريدز)؛ لأنَّ إرضاء جميع الناس (القُرَّاء) مستحيل طبعًا، بالذات مثل قصة جحا وولده والحمار؛ إن ركب ومشى ولده بجواره، فهو أبٌ قاس، وإن ركب الولد ومشى جحا فهو ولد عاق، وإن مشيا معًا بجوار الحمار فهما أحمقان، وإن ركبا الحمار معًا فهما وحشيان. وأفضل نصيحة في مثل هذا الموقف هو أن تسدَّ أذنيك عمَّا يُقال.

لذلك صار الأديب الراحل يعتمد على تقييم أعماله على حدْسه الخاص، وعلى آراء خمسة أصدقاء يثق برأيهم حقًّا، ويعرف أنهم قُرَّاء مجيدون وصادقون لا يُجاملون.

خليل صويلح و(جود ريدز)

يحكي الروائي (خليل صويلح) تجربته مع موقع (جود ريدز) فيقول: صادفت قُرَّاء حصيفين في تقويم ما أكتب، وتحمَّلت هجاء آخرين، كقول أحدهم عن روايته (عزلة الحلزون): «رواية لا تستحق الورق الذي طُبعت عليه، مُملة ورتيبة». وقول آخر عن روايته (وراق الحُب): «لا ورق ولا حُب».

ثم يُعقب (صويلح) ويقول: إن النزهة في موقع (جود ريدز) مسلية إلى حدٍّ ما، حيثُ تجد بعض القراء يفرش أجنحته الطاوسية على النصِّ بخُيَلاء ودكتاتورية فظَّة، يمنح هذا خمس نجوم، ويُطيح بآخر نحو الهاوية.

كيف التعامل مع تقييمات (جود ريدز)؟

إذن، لن تجد إجماعًا على كتابك في موقع (جود ريدز)، وهذا شيء طبيعي جدًّا لاختلاف القُراء في النضج والشخصية والخلفية الثقافية والعمر وغيره. ونصيحتي لك في تقييمات موقع (جود ريدز) التالي:

إذا كنت تتأثر كثيرًا بالنقد والهجوم القاسي، ويُعطِّلك عن مشاريعك، فالأفضل لك ألَّا تدخل موقع (جود ريدز) وتقرأ ما كُتب عن كتابك؛ لأنك ستجد نقدًا شديدًا، هذا مؤكَّد جدًّا.

أمَّا إذا كنت لا تُبالي بالنقد كثيرًا، ولو تأثَرت كان التأثر فقط لعدَّة أيام، ثم تعود لمشاريعك الكتابية بحماس. فلا مانع أن تتجوَّل وتقرأ ما كُتب عن كتابك، فلعلَّك تستفيد من نقد أحدهم.

لكن أنصحك بألَّا تدخل موقع (جود ريدز) كثيرًا، وتذكَّر أنَّ بعض النقد ـ كما ذكر (صويلح) و(أحمد خالد توفيق) ـ ليثبت القارئ شخصيته الطاوسية، وأنهُ قارئ واعٍ، فلا تحفل بكلام أمثال هؤلاء. أنت بنفسك تستطيع معرفة النقد الذي تستفيد منه، من النقد الذي يُريد منه صاحبهُ أن يبرز شخصيته الطاوسية على كتابك.

الخلاصة

سماع النقد والاستفادة منه ضروري، لكن دون مبالغة، فلولا النقد لما عَرف الكاتب عيوبَه وأخطاءه، ولما سعى في إصلاحها. وما أجمل ما قاله الأديب الدكتور (أحمد خالد توفيق) من أن الكاتب لا يستغني عن رأي القارئ. لكن أيِ قارئ؟ القارئ الذكي العادي الذي ينتقد أعمال الكاتب الرديئة، ويُثني على أعماله الجيدة، فلا يغشُّه ولا يُجامله.

نعم، قد يتَّفق كُتَّاب كثيرون مع كلام (أحمد خالد توفيق)، ولكن السؤال: كيف يجدون هذا القارئ الذكي؟ صار هذا القارئ في حكم النادر والشاذ عن القاعدة. أغلب مَن ينتقد ـ كما مرَّ معنا ـ ليس لوجه الفن، بل هناك دوافع أخرى!

إذن، على الكاتب أن يستفيد من النقد بنوعيه البنَّاء والهدَّام، فحتَّى النقد الهدَّام قد يجد فيه الكاتب ما يُطوِّره ويُحسِّنه، بل ربما يستفيد من النقد الهدَّام أكثر من استفادته من النقد البنَّاء، حيث يتعرَّف على عيوبه ـ التي يُفتِّش عنها أعداؤه بدقَّة كما قال الشيخ (الغزالي) ـ ويُصلحها بعد ذلك. وإن لم يجد الكاتب في النقد الهدَّام ما يستفيد منه، فعليه أن يتجاهله تمامًا.

المحور الثامن: كيف كانوا يكتبون؟

الأدباء مختلفون في طريقة تأليفهم وكتاباتهم، وكلُّ واحد منهم له أسلوبه وطريقته الخاصة في الكتابة والتأليف التي لا يُشابهه أحد فيها، وهنا أورد بعض مناهج هؤلاء الأدباء في التأليف؛ ليتضح لنا بأنَّه ليست هناك طريقة واحدة في الكتابة، وليس هناك صحٌّ أو خطأ في الموضوع، المهم كيف يوصل الكاتب الفكرة أو المعلومة للقارئ بالأسلوب الذي يراه مناسبًا، وكيف يكتب بالطريقة التي يرتاح إليها.

الإمام الكبير (ابن سينا)

ذكر (ابن سينا) منهجَه في التأليف، فقال إنهُ حين كان يعزم على تأليف كتاب، كان يعتكف ـ يومين أو ثلاثة فقط ـ اعتكافًا كاملًا، أو شبهَ كامل، ويأخذ في وضع عناوين للأجزاء، جاعلًا لكلِّ جزءٍ دفترًا، ثم يأخذ في وضع عناوين للأبواب ـ في ثنايا الأجزاء ـ ويترك في الدفتر فراغًا بين الباب

والباب، ثم يأخذ في وضع عناوين الفصول في الأبواب، تاركًا فراغًا بين كل فصل وفصل، بما يقدِّر أنهُ يكفي للفصل.

ثم يأخذ (ابن سينا) في وضع إشارات سانحة لما عساه أن يكون فقرات، ثم يخرج من معتكفه، معتبرًا أنَّ ما بقي من الكتاب إنما هو تشطيبه فحسب، وأنه ـ في الوضع «السينوي» ـ قد انتهى من تأليفه. وبعد ذلك يحمل معه الكتاب أينما سار، فيكتب ـ بحسب الظروف ـ كلمة هنا وكلمة هناك، في هذا الفصل أو ذاك، من أواخر الكتاب أو من منتصفه، أو من أوله بحسب الفكرة المواتية.

الأديب المفكر (عبَّاس محمود العقَّاد)

ذكر الأديب (وديع فلسطين) في أعلام عصره، أنهُ سأل الأديب المفكِّر العملاق (عباس العقَّاد) عن المنهج الذي يتبعه في تأليف كتبه؟ فأجابه (العقَّاد) بأنهُ يختار موضوع الكتاب أولًا، وقد يقترح عليه ناشرٌ موضوعًا يلقى منه قَبولًا فيعلِّق عليه.

ثم يقوم بجميع المطالعات اللازمة المرتبطة بموضوع الكتاب حتى تكون حاضرة في ذهنه. ويُقسِّم الكتابَ إلى فصول، مخصِّصًا لكلِّ فصل مظروفًا. فإذا شرع في الكتابة، لم يتقيد بترتيب الفصول، فقد يكتب الفصل العاشر قبل الفصل الأول، وقد يُنجز الخامس قبل الرابع، حتى إذا ما اكتملت الفصول داخل مظاريفها، استخرجها ورقَّمها ترقيمًا مسلسلًا بعد مراجعة المسوَّدة كاملة؛ تحقيقًا لوحدتها وتداركًا لأي نقص أو تكرار في مادتها، ثم يضع للكتاب مقدمة مناسبة ويتوجَّه به إلى الناشر.

الأديب (مصطفى صادق الرافعي)

قال الأديب (محمد العريان) إن الأديب (مصطفى الرافعي) كان كثير الأناة والتأنُّق فيما يكتب، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه حتى يخلي فكره أيامًا وليالي، يبحث ويوازن، ويزاوج ويستنبط، ثم يتهيأ للكتابة وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب.

واختيار الموضوع كان أول عمل يقوم به الرافعي، وكان لا يكتب إلَّا وعنده دافع يدفعه لذلك، لكن بعد أن أصبح له مقال منتظم في مجلة (الرسالة)، راح يبحث عن الموضوعات، ولا يكتب في موضوع إلَّا أن يجد له صدًى في نفسه، وانفعالًا في باطنه؛ لذلك كان في جيبه ورقات يكتب فيها كلَّ ما يخطر له من موضوعات في الأدب، يختار منها بعد ذلك ما يصلح أن يكتب عنه مقالًا.

يقول العريان: فإذا اختار الرافعيُّ الموضوعَ، تركه للفكر يعمل فيه عمله، وللواعية الباطنة تُهيِّئ له مادته، يدعه كذلك وقتًا يطول أو يقصر، يكتب خلالها خواطره، فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كافٍ خلال يومين أو ثلاثة أيام، أخذ في ترتيبها معنًى إلى معنى، وجملة إلى جملة، ورأيًا إلى رأي.

ثم يقوم الرافعي بمراجعة ما كتب، وحَذْفِ ما يراه زائدًا، ويستنتج ويستولد رأيًا عن رأي، ويكشف معنًى عن معنى، حتى تستوي المقالة فكرة تامة. هنا ينتهي عمل الذهن، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج المقالة.

فإذا عقد العقدة ورتَّب موضوعه، يرجع إلى قراءة أيِّ كتاب من كتب العربية يقرأ منه صفحات كما تتفق، ليعيش وقتًا في بيئة عربية فصيحة مع إمام من أئمة البيان، وكان أكثر ما يقرأ للجاحظ وابن المقفع وكتاب الأغاني.

وإذا تأبَّت عليه صياغة فكرة، يقوم بتناول أي كتاب على مكتبته، فيفتحه فيقرأ كلمةً أو سطرًا أو جملةً، ثم يطوي الكتاب ويعود إلى الإملاء. لقد كانت هذه العادة لدى الرافعي لازمة من لوازمه تعوَّدها حين تستعصي عليه صياغة جملة، وتعوَّد أن يجد فيها الصياغة المناسبة.

وكان خير أوقات الكتابة لدى الرافعي هو وقت المساء، حين يعتدل الجوُّ وتسكن الحركة وتخفُّ المعدة. وكان الرافعي ـ على ما في أذنيه ـ يُزعجه النسيم على صفحة خدِّه عن الاستمرار في الكتابة.

بعد أن يفرغ من إملاء المقالة ـ كما ذكرنا في فصل اترك المسودة ـ يتناولها ويطويها دون أن يقرأها، وفي اليوم التالي بعد الفجر يقوم بقراءتها ويصحِّح ما يلزم، ومن ثم يرسلها للنشر.

العلَّامة (د. يوسف القرضاوي)(23)

سُئل (د. يوسف القرضاوي) كيف يكتب؟ فأجاب أنه حين يختار موضوعًا للكتابة فيه، يُقسِّمه مبدئيًّا إلى محاور أو أبواب أو فصول، وقد يُغيِّر هذه المحاور بالزيادة أو الحذف، أو الإدماج أو التحوير، حتى تستقرَّ تمامًا في ذهنه. ثم يفتح لهذا الموضوع (ملفًا) يضع فيه من النقول المختلفة ما يرى أنهُ يخدم البحث. ويضع فيه أيضًا كلَّ ما يتراءى له من العناصر التفصيلية في كلِّ محور من المحاور.

يقول (د. القرضاوي) ثم إنهُ كثيرًا ما يُقدِّم محاضرات في موضوع الكتاب أكثر من مرة، ليتَّسع الموضوع بالأسئلة والمناقشة حوله من الحضور، وقد يترتَّب على هذه المناقشات إضافة عناصر جديدة، أو حذف عناصر قديمة، أو إعادة ترتيب الأفكار، ونحو ذلك. أمَّا لماذا يُحاضر (د. القرضاوي) في الموضوع؟ فلأنه جرَّب هذه الطريقة أكثر من مرَّة، فكانت نافعة جدًّا في تأليف الكتاب.

ثم يبدأ الكتابة في أي محور منها حسبما يُفتح عليه، قد يكون أول المحاور، وقد يكون وسطها، وقد يكون في آخرها. وما يكتبه يضعه في الملف. وقد يبقى الملف مفتوحًا عدَّة أشهر، وقد يظلُّ مفتوحًا عدَّة سنين. فمثلًا، كتابه (أعداء الحلِّ الإسلامي) ذكر في مقدمته أنَّ بعض فصوله كتبها قبل ثلاثين سنة، وأنَّ كثيرًا ممَّن بيَّضوا هذه المسوَّدات قد انتقلوا إلى رحمة اللّه.

والسبب في ذلك، كما يقول (د. القرضاوي)، أنهُ يُفكِّر في الكتاب، ويبدأ في كتابة بعض فصوله، ثم يَشغلهُ أمرٌ آخر، ثم آخر وآخر، وينسى الكتاب القديم إلى فترة قد تطول أو تقصر. ولذلك عنده ملفات كثيرة لم تكتمل في موضوعات شتى، ولا يدري هل يستطيع أن يُكملها قبل أن ينقضي العمر أم تكون لمن بعده؟

أما أكثر سبب يقطع عليه إكمال الكتابة في الموضوع الذي يكتبه، فهو كثرة الأسفار التي قد تطول أحيانًا. فكثيرًا ما يكون منهمكًا في كتابة موضوع معيَّن، ينطلق فيه قلمُه، وتتوارد عليه الخواطر، وتتزاحم المعاني، وتكون الهمَّة موجودة، ويقطع فيه شوطًا كبيرًا. ثم تأتي سفرة تُخرجه من هذا الجوِّ، فينقطع حبل أفكاره في هذا الموضوع، وقد تفتح له السفرة موضوعًا آخر، يفرض نفسه عليه فرضًا.

وعندما سُئل (د. القرضاوي) متى يكتب؟ أجاب بأنهُ يكتب في كلِّ وقت يُتاح له من ليل أو نهار، بعدما تكون الفكرة في رأسه جاهزةً. لكن، عادة ما يكتب بالنهار حتى مُنتصف الليل. وقد تُسيطر عليه الأفكار فتطرد النوم من عينيه، فيظلُّ يكتب، حتى إنه قد تمرُّ عليه بعض الليالي لا ينام فيها إلا ساعتين، وقد لا ينام فيها أبدًا.

كذلك يكتب في الصباح لمدَّة ساعتين قبل الذهاب إلى عمله، وإذا وجد فرصةً للكتابة أثناء الدوام الرسمي للكتابة فإنهُ لا يُفوِّتها. وفي السفر كذلك يكتب، خصوصًا أنه رجل كثير الأسفار، فيكتب في المطارات، وفي أثناء تنقُّله من طائرة إلى طائرة، ويكتب في الطائرة، ويكتب كذلك في الفندق. يكتب كلَّما سنحت له الفرصة بذلك. لذلك كان غزير الإنتاج، وقد تجاوزت مؤلفاته أكثر من 200 كتاب.

المحور التاسع: الكتابة سعادة

على الرغم من مشقَّة التأليف، والجهد الذي يتطلَّبه من إعمال الفكر والبحث، والجلوس لساعات طويلة للكتابة، فإنَّ الكتابة فيها سعادة لا تُعادلها أيُّ سعادة، يعرفها مَن ذاقها، ولا شك في ذلك، فهي من لذَّة طلب العلم الذي لا تُعادله أي لذة أخرى، وأيضًا هذا من ثمرات نشر العلم وبركته، فالمؤلف يسعى بتأليفه ــ غالبًا ــ لنفع غيره وإفادتهم، فيرزقه اللّه من السعادة بقدر نفعه لغيره.

ذكر الأديب (عبد الحميد جودة السحار) أنهُ اعتاد أن ينام مبكِّرًا ليستيقظ في الفجر يقرأ ويكتب حتى تصل الساعة السابعة، حيثُ تأتيه عربة الحكومة تأخذه إلى مقرِّ عمله. يقول (السحار) إنهُ يستشعر سعادة غامرة وهو يكتب في أوقات ينعم فيه زملاؤه بالنوم اللذيذ أو بالترويح عن أنفسهم، على الرغم من أنه أحيانًا يسمع صوتًا من أعماق نفسه يتَّهمه بالأنانية حيث يهمل زوجه وأولاده من أجل متعة نفسه، وأن هذا الصوت يُخبره بأنه يتعاطى الكتابة كما يتعاطى المدمنون المخدرات ليفرُّوا من واقع الحياة. لكنَّ (السحَّار) لم يسمح لهذا الصوت أن يعوقه عن مشاريعه الكتابية، فأعرض عنه واستمرَّ في الكتابة.

صدق (السحَّار) في ما قال، وأجد ذلك الصوت كثيرًا، فأحيانًا في أيام الإجازات، أبدأ الكتابة قبل الساعة السادسة صباحًا، ولا أشعر إلَّا بأنَّ وقت صلاة الظهر قد حان؛ لأن عقلي يكون مشغولًا بالبحث والكتابة، مع أنني آخذ كل ساعتين تقريبًا استراحة لمدة عشر دقائق أو ربع ساعة، لكني لا أُركز على الوقت، حتى أتفاجأ بأذان صلاة الظهر، وإذا كانت الفكرة تطرق عقلي بشدة ولم أُفرغها كليًّا على الورق، فأقوم بإكمال الكتابة بعد صلاة الظهر، ولا يقطعني قاطع إلَّا على أذان العصر، وإذا لم أنتهِ من صياغة الفكرة كاملةً على الورق، فإنِّي أظلُّ أكمل حتى وقت دخول المغرب، ثم أكمل أحيانًا إلى الساعة التاسعة مساءً أو العاشرة، حتى أشعر أني قد فرَّغت الفكرة كاملة على الورق ولم يبقَ في عقلي منها شيء.

لكن، مع كل هذا التعب والإرهاق، فإنَّني أشعر بسعادة داخلية كبيرة، أكثر من شعوري بها لو كنتُ جلستُ مع بعض الأصدقاء، أو قمت برحلة أو مارستُ هواية من هواياتي الأخرى. وإنَّ التعب ليزول كله عندما تكتب نصًّا جيدًا، أو تقوم ببحث مُسهب في موضوع معين ثم تخرج بخلاصة دقيقة عنه.

تقول الروائية (آذر نفيسي): «بصراحة جميع أجزاء الكتابة صعبة. إنها مثل ولادة طفل، قدر كبير من الألم وعدم اليقين، ولكنها في النهاية بهجة تستحق كل ذلك الألم». وكلامها صحيح، فالكتابة بهجة تستحق كلَّ ما نُعانيه معها من ألم وتعب وقلق.

الكتابة والقراءة عندي أحد الأمور التي أُقاوم بها ضغوطات الحياة وشدائدها التي لا يخلو منها بشر كائنًا من كان، وأجد فيهما ـ بعد عون الله ـ الحصن الحصين لي من أن أقع فريسة لضغوطات الحياة اليومية. القراءة والكتابة يرفعانني من عالمي الضيق إلى عالمهما الرحب الواسع غير المحدود. فاللهم لك الحمد على نعمة القراءة ونعمة الكتب، ونعمة الكتابة، فلولاها ـ بعد عونك ـ لاستسلمت لليأس منذ زمن طويل.

المحور العاشر: احْذُ حَذْوَ (ابن الهيثم)

أختم هذا الفصل بالحديث عن العالِم الموسوعي (ابن الهيثم)، الذي قدَّم إسهامات كبيرة في البصريات والفيزياء وعلم الفلك والهندسة وطب العيون وغيرها، حتى لُقِّب ببطليموس الثاني، وقال عنه مؤرِّخ العلوم الشهير (جورج سارتون) إنهُ من أكبر الباحثين في علم البصريات في جميع الأزمان.

وقد بلغت كتب (ابن الهيثم) المائة كتاب، وقيل إنَّ ما كتبه من كتب ورسائل في شتى فروع المعرفة بلغ 273 كتابًا، وقد وضَّح سبب كثرة تآليفه بثلاثة أسباب، فقال:

1

- أن يجد الناس في كتبه بعد موته الفائدة والعلم اللذين يقدمهما لهم في حياته.

2

- أن يجعل من التأليف وتدبيج الرسائل ارتياضًا لنفسه بهذه الأمور.

3

- أن يدخر من تلك التآليف عدَّة للشيخوخة وأوان الهرم.

وبيَّن (ابنُ الهيثم) أنهُ سيتسمر في التأليف ما دام على قيد الحياة، بل سيبذل جهده ويستفرغ قوته فيه. وهذا بلا شك يدلُنا على أهمية التأليف ونفعه الكبير، فالكتاب يعيش عمرًا أطول بكثير من مؤلِّفه، وهذا ما حصل مع (ابن الهيثم)، رحل جسدًا لكن بقيت كتُبه تنفع الناس، بل كانت مصدر إلهام لكثير من علماء الغرب، في أبحاثهم عن الضوء والحرارة.

ولعلَّه لو لم يُؤلِّف كتبًا ويضع فيها علمه، لذهب علمه معه بوفاته، ولخسرنا كثيرًا. فبالتأليف حُفظ لنا عِلم (ابن الهيثم) واستفادت منه البشرية. ولعلَّ هذا ما دفع الإمام (ابن الجوزي) في صيد خاطره أن يقول إنَّ نفع التأليف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ وعلَّل ذلك بأنَّ الإنسان قد يُشافه خلال عمره المحدود عددًا محدودًا من الناس، لكن بتأليفه يُشافه أعدادًا لا تُحصى من الناس، وليس في زمانه فقط، بل قد تستمر تآليفه لأزمانٍ كثيرة بعده، وهذا مشاهَد فنحن نقرأ وننتفع بكتب كثير من السابقين الذين رحلوا عن الحياة منذ أزمانٍ بعيدة، ولو لم يضعوا علمهم لنا في كتب، لما وصل إلينا ولحُرمنا من خيرٍ كثير.

رسالة إلى مكتبتي

مكتبتي الجميلة

مكتبتي الجميلة...

ما أراني على مرور الأيام والأسابيع والشهور والسنوات إلا أزدادُ تعلُّقًا وتشبُّثًا بكِ، لقد سلبتِ مني أغلب وقتي وجزءًا كبيرًا من راتبي الشهري، يزداد هذا الجزء ولا ينقص على مرِّ الأيام! بل إنك سلبتِ أغلى ما لديَّ: عقلي وقلبي الذي يكون موجودًا أغلب الأوقات معكِ!

مكتبتي الجميلة...

صار عدد الكتب التي تُضافُ إليكِ مع مرور الأيام يزيد ولا ينقص، بل تضاعف كثيرًا، وقد قمتُ بعمل حسبة لعدد الكتب الجديدة التي دخلت إليكِ خلال عام كامل واحد فقط وهو عام (2021م)، فوجدتُ أنهُ تم إضافة 56 كتابًا شهريًّا! والأدهى أنَّ هذا العدد في ازدياد![24]

مكتبتي الجميلة...

لقد عوضتِني مقابل وقتي ومالي بسعادة كبيرة لا أجدها ـ في الغالب ـ إلا معكِ، حيث أجلس مع كتبكِ وأحاور مؤلِّفيها الأحياء منهم والأموات، ولا أخرج من جلوسي معكِ إلا وقد ملأتِ عقلي فكرًا نيِّرًا.

مكتبتي الجميلة...

كم هي المرات التي أتيتكِ فيها وأنا مملوء بالهموم والغموم، وما إن أجلس معك ساعة واحدة فقط، فإذا بِهمِّي وغمِّي يرتحلان، فأخرج منك مسرورًا جذِلًا مستعدًّا لمواجهة الحياة من جديد! كنتِ دائمًا ما تُعيدين شحنِّي بالأمل والتفاؤل وعدم الاستسلام.

مكتبتي الجميلة...

لقد كنتِ لي أوفى من الصديق، لم أرَكِ طوال سنوات طويلة تضجرين مني، ولم تتجهَّمي في وجهي ولو يومًا واحدًا، بل كلَّما جئتُ إليكِ أراكِ تستقبلينني بحفاوة كبيرة وتُقدِّمين لي كلَّ كتبكِ وأنتِ في غاية السعادة والفرح، حتى لو ابتعدتُ عنكِ لأيَّام عدَّة لظرفٍ ما، لا أجد منكِ إلا البشاشة وحُسن الاستقبال.

مكتبتي الجميلة...

لا فرَّق اللّه بيننا في هذه الدنيا إلا بالموت الذي هو نهاية كلَ مخلوق على وجه هذه الأرض! فإنِّي لا أُطيق أن أعيش دون أن تكوني معي. وكم قرأتُ لأشخاص فقدوا مكتباتهم ولم يعودوا كسابق عهدهم أبدًا.

إذا ما أتى يومٌ يُفرِّقُ بيننـــــا

بموتٍ، فكن أنتَ الذي يتأخرُ[25]

مكتبتي الجميلة...

كم أشتاق إليكِ عندما أبتعد عنكِ لسفر، فتجدينني أعدُّ الليالي والأيام التي بقيت لألتقي بكِ من جديد. وسعادتي لا توصف عندما أعود إليكِ وقد جلبتُ لكِ من سفري كتبًا جديدة، وأنت تَسعدِين بذلك كثيرًا.

مكتبتي الجميلة...

لقد صرتُ معروفًا بالقراءة ومحبَّة الكتب، حتى أخبرني الكثيرون أنَّهم عندما يروننني يتذكَّرون الكتب والقراءة، وأنَّهم رسموا صورةً عنِّي بأنَّ شُغلي الشاغل في الحياة، هو القراءة وزيارة المكتبات وشراء الكتب، ثم الجلوس معكِ لقراءة هذه الكتب، ولا يظنُّون أنِّي أفعل شيئًا آخر، ولا عجب في ذلك، فمَن أكثر مِن شيء عُرِفَ به كما قالوا.

مكتبتي الجميلة...

لولاكِ ـ بعد توفيق اللّه وعونه ـ [26] لما أصبحتُ كاتبًا، فالجلوس معكِ كثيرًا حفَّزني لكي أكتب وأشجِّع القُرَّاء على أن يذوقوا السعادة التي ذُقتها بالعيش مع الكتب، وأن يجنوا الفوائد التي جَنَيْتُها من الجلوس معكِ، فلكِ مني كلَّ الحُبِّ والتقدير والاحترام.

مكتبتي الجميلة...

لا بدَّ أن أرحل عنكِ في يوم من الأيام، فهذه سُنَّة الحياة، وأنا على يقين أنكِ لن تجدي أحدًا يحنو عليكِ ويهتمُّ بكِ كحنوِّي واهتمامي بكِ. لكني أقول لكِ: لا تضجري ولا تتزعجي، فلا بدَّ يومًا من الفراق، وعزاؤكِ وما سيُخفف عنكِ أنكِ ستنتقلين من بعدِي لتكوني مكتبة عامة ينتفع بها خلقٌ كثير، وإنِّي أرجو أن يكون هذا العمل على يد أبنائي حفظهم اللّه وبارك مسعاهم.

الخاتمة

أخي القارئ/أختي القارئة:

يقول المُفكِّر والفيلسوف الفرنسي (ميشال دي مونتين): «ليس ثمة أجمل من القراءة والتفكير، لزيادة معرفتنا، وانتشال أرواحنا من الظلمة».

رجائي وأَمَلي أن تكونوا قد قضيتم وقتًا مُمتعًا ومفيدًا في صحبة الكتاب، ويُسعدني كثيرًا تواصلكم وتقديم مُلاحظاتكم وآرائكم وتصحيحاتكم لهذا الكتاب على صفحاتي في مواقع التواصل الاجتماعي، وعلى بريدي الإلكتروني:

Abunoor Alfarsi

Abunooralfarsi

Abuno0r

naeemalfarsi2017@gmail.com

شكر وامتنان

بعد توفيق اللّه وعونه الذي وفَّقني وأعانني على إتمام الكتاب، فلولا تيسيره ـ سبحانه ـ لظلَّت مسوَّدة الكتاب حبيسة الأدراج لسنوات، وربما لن ترَى النور أبدًا. فله الحمد والشكر دائمًا وأبدًا، ما خاب من دعاه ورجاه وأمَّله وقصد بابه.

أتوجَّه بالشكر الجزيل مقرونًا بالدعاء للإخوة الأحبَّة والأصدقاء الذين تفضَّلوا عليَّ بقراءة مسوَّدة الكتاب رغم انشغالاتهم الكثيرة، وأفادوني بتوجيهاتهم وتصويباتهم وملاحظاتهم وآرائهم؛ ممَّا أسهم كثيرًا في إثراء الكتاب، وهم: زوجتي نوال الشيدي، سعيد حمد الوشاحي، محمد سعيد المسلماني، أسماء الشيدي.

جزيل الشكر للمهندس أحمد سيف الشيدي الذي قرأ المسوَّدة قراءة عميقة فور تسلُّمه إيَّاها، وأفادني بتصويباته وآرائه المُهمة، وتناقشنا كثيرًا حول ذلك. وشكرًا على كلماته الراقية وتشجيعه، التي حفزتني إلى تطوير الكتاب أكثر وأكثر.

شكر خاص للمهندس الصديق عُمر سالم القاسمي، الذي قرأ المسوَّدة قراءة مجهرية، وأضاف إليها الكثير من تصويباته وتصحيحاته وتوجيهاته. كما نبهني لأمورٍ غابت عني أثناء كتابة المسودة، فله مني كل الاحترام والتقدير.

شكر خاص أيضًا للصديق أ. علي عبد الله العلوي، الذي بذل جهدًا كبيرًا في قراءة المسودة قراءة متأنية عميقة، وقدَّم الكثير من التصويبات والاقتراحات المُهمَّة، وكم أثراني بآرائه، فله كلَّ الشكر والتقدير.

شكر من أعماق القلب للصديق المُترجم أ. أحمد المعيني، الذي كان دائمًا ما يُثريني بنقاشاته، ويشرح لي الكثير من الأمور التي تلتبس عليَّ.

وكذلك الشكر موصول للشيخ الأستاذ محمد موسى، فكم أفادني كثيرًا من خلال حواراتي المستمرة معه، التي انتفعتُ بها كثيرًا. كلمات الشكر لا تُوفيك حقَّك أستاذنا الحبيب.

شكرًا لكم جميعًا، فلولاكم ـ بعد توفيق اللّه وعونه ـ لما ظهر الكتاب بهذه الصورة. وفَّقنا اللّه وإياكم لما يُحبُّ ويرضى، وجمعنا على الخير دائمًا، وأسألهُ ـ سبحانه ـ أن ينفع بكتابي ويجعله ذُخْرًا لي يوم ألقاهُ، ولا حول ولا قوة إلا به.

المراجع

1

- **السيرة النبوية.. عرض وقائع وتحليل أحداث**. د. علي محمد الصلابي. دار المعرفة ـ لبنان. الطبعة الأولى 2004م.

2

- **كتاب الحيوان**. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2013م.

3

- **صيد الخاطر**. الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي. دار القلم ـ دمشق. الطبعة الثالثة 2012م.

4

- **التعريف بآداب التأليف.** الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: مرزوق علي إبراهيم. مكتبة التراث الإسلامي ـ جمهورية مصر العربية. بدون تاريخ نشر ولا رقم الطبعة.

5

- **قسطنطين جيورجيو.. الكاتب المُفترى عليه.** تيري جيليبوف. ترجمة: محمد آيت حنا. دار كلمات للنشر والتوزيع ـ الكويت. 2021م.

6

- **أَحْفَاد سُقرَاط.. قصة الغرام بالفلسفة من أرسطو إلى ميرلو بونتي.** علي حسين. دار الرافدين ـ بغداد. الطبعة الأولى 2021م.

7

- **وَنَس الكتب (الجزء الثاني).** محمود عبد الشكور. منشورات إبييدي ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2022م.

8
- **فن التأليف والنشر**. د. طارق السويدان. شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع – الكويت. الطبعة الأولى 2016م.
9
- **قوة الصبر**. إم جيه ريان. مكتبة جرير – المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2015م.
1
0
- **الحقيبة الجلدية.. بصحبة مفكرين وأدباء وفنانين.** علي سعيد. دار أثر للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2016م.
1
1
- **ثقافة الشباب**. أ. د. عبد الكريم بكار. نحو القمة للطباعة والنشر. الطبعة الأولى 2007م.
1
2
- **كيف تُحقق نجاحك وتستمتع بالرحلة؟ دليل شامل للشباب الجديد**. عبد الكريم بكار. دار القلم – دمشق. الطبعة الأولى 2022م.
1
3
- **أدب الزمان.** أ. د. عبد الكريم بكار. نحو القمة للطباعة والنشر. الطبعة الثانية 2010م.
1
4
- **في دنيا الناس**. عبد المنعم محمد الزيادي. مكتبة الخانجي بالقاهرة. الطبعة الثانية

1996م.

15

- **معنى الحياة**. اللورد أفبري. ترجمة: وديع البستاني. آفاق للنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2022م.

16

- **نُزهةُ الغُراب.. سيرة روائية**. خليل صويلح. دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ـ سورية. الطبعة الأولى 2020م.

17

- **ضد المكتبة**. خليل صويلح. دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ـ سورية. الطبعة الأولى 2017م.

18

- **يوسف القرضاوي فقيه الدعاة وداعية الفقهاء**. عصام تليمة. دار القلم ـ دمشق. الطبعة الأولى 2001م.

19

- **اللغز وراء السطور.. أحاديث من المطبخ.** أحمد خالد توفيق. دار الشروق ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2017.

20

- **صنعة الكاتب**. د. فهد بن صالح محمد الحمود. العبيكان للنشر ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2016م.

2
1
- **أسباب للبقاء حيًّا**. مات هيغ. ترجمة: محمد الضبع. دار كلمات للنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة السادسة 2019م.
2
2
- **ملاحظات حول كوكب متوتر**. مات هيغ. ترجمة: محمد الضبع. دار كلمات للنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الرابعة 2020م.
2
3
- **شوقي أو صداقة أربعين سنة.** أمير البيان شكيب أرسلان. دار الفضيلة للنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2003م.
2
4
- **بداية كاتبة.** هناء بنت عبد العزيز الصنيع. توزيع: دار الجوهرة للنشر والتوزيع بالرياض. الطبعة الأولى 1427هـ.
2
5
- **رسائل من المنفى**. سينيكا. ترجمة: الطيب الحصني. صفحة سبعة للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2019م.
2
6
- **هذه سبيلي**. أيمن العتوم. دار المعرفة للنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. بدون تاريخ نشر ولا رقم الطبعة.

2
7
- **فن الحياة**. أندريه موروا. ترجمة: يوسف مظهر. آفاق للنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2020م.
2
8
- **خواطر**. د. محمد بن إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الثانية 2008م.
2
9
- **أبو ذر والشيوعية**. الإمام د. عبد الحليم محمود. دار المعارف ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الخامسة. بدون سنة نشر.
3
0
- **فيزياء الرواية وموسيقى الفلسفة.. حوارات مختارة مع روائيات وروائيين.** ترجمة وتقديم: لطفية الدليمي. دار المدى ـ العراق. الطبعة الأولى 2016م.
3
1
- **كاليدوسكوب.. الإنسانُ والعالم من منظورات متعددة.** لطفية الدليمي. دار المدى ـ العراق. الطبعة الأولى 2021م.
3
2
- **منار الطريق.. في طلب العلم.** د. البشير عصام المراكشي. العصرية للنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 1441هـ.

3
3
- **ربيعيات.. تغريدات حول القراءة والكتابة.** ربيع السملالي. العصرية للنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2017م.
3
4
- **فن الأدب**. توفيق الحكيم. دار الشروق ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2019م.
3
5
- **أدباء عرب معاصرون**. جهاد فاضل. دار الشروق ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2000م.
3
6
- **آداب الدين والدنيا**. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 1434هـ.
3
7
- **الكتاب في الحضارة الإسلامية**. عبد اللّه الحبشي. شركة الربيعان للنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الأولى 1982م.
3
8
- **أولياء الكتابة الصالحون**. محمد توفيق. كيان للنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. بدون سنة نشر ولا رقم الطبعة.

3
9
- **كيف أكتب؟** د. أحمد كافي. دار الكلمة للنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2020م.
4
0
- **لا تقلق بشأن كسب المال**. د. ريتشارد كالسون. مكتبة جرير ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2000م.
4
1
- **رسالة إلى روائي شاب**. ماريو بارغاس يوسا. ترجمة: صالح علماني. دار المدى ـ العراق. الطبعة الثالثة 2013م.
4
2
- **في ميزان الإسلام (1 ـ 2)**. محمد رجب البيومي. الحكماء للنشر. الطبعة الأولى 2019م.
4
3
- **إلى طالب العلم**. سيد عبد الماجد الغوري. دار ابن كثير ـ سورية. الطبعة الأولى 2017م.
4
4
- **كتب غيَّرت وجه العالم**. روبرت ب. دونز. ترجمة: أحمد صادق. دار قناديل للنشر والتوزيع ـ العراق. الطبعة الأولى 2020م.

4
5
- **مجالس التأثير**. د. سعد سعود عايد الكريباني. العبيكان للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2021م.
4
6
- **إلى أبنائي وبناتي.. خمسون شمعة لإضاءة دروبكم.** أ. د. عبد الكريم بكار. دار وحي القلم ـ دمشق. الطبعة الأولى 2010م.
4
7
- **هكذا فلتكن الهمم**. إبراهيم حسن الأسطل. دار القلم ـ دمشق. الطبعة الأولى 2022م.
4
8
- **افعل شيئًا مختلفًا**. عبد اللّه علي العبد الغني. شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الثانية 2007م.
4
9
- **آخر 200 يوم مع أنيس منصور.. مذكرات.. مراجعات.. اعترافات.** د. مجدي العفيفي. دار اكتب للنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الثانية مارس 2016م.
5
0
- **وحي الرسالة**. أحمد حسن الزيات. الصحوة ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2017م.

5
1
- **تعريف عام بدين الإسلام**. علي الطنطاوي. دار المنارة للنشر والتوزيع ـ جدة. الطبعة الخامسة 2001م.
5
2
- **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر.. سيرة غير ذاتية غير موضوعية.** عبد الوهاب المسيري. دار الشروق ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الرابعة 2009م.
5
3
- **مذكرات الكيلاني**. د. نجيب الكيلاني. دار الصحوة ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2016م.
5
4
- **مذكرات الدعوة والداعية**. حسن البنا. مكتبة آفاق ـ الكويت. الطبعة الأولى 2012م.
5
5
- **سعيد الأفغاني.. حامل لواء العربية وأستاذ أساتيذها.** د. مازن المبارك. دار القلم ـ دمشق. الطبعة الأولى 2002م.
5
6
- **العبادة في الإسلام**. د. يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة ـ لبنان. الطبعة الثانية 2001م.

5
7
- **ابن القرية والكتاب ـ ملامح سيرة ومسيرة.** الجزء الأول. د. يوسف القرضاوي. دار الشروق ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الثانية 2006م.
5
8
- **ابن القرية والكتاب ـ ملامح سيرة ومسيرة.** الجزء الثاني. د. يوسف القرضاوي. دار الشروق ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2004م.
5
9
- **ابن القرية والكُتاب ـ ملامح سيرة ومسيرة.** الجزء الثالث. د. يوسف القرضاوي. دار الشروق ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الثانية 2008م.
6
0
- **طائرٌ إثر طائرٍ.. بعض التعاليم حول الكتابة والحياة.** آن لاموت. ترجمة: إيمان معروف. دار أثر ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2021م.
6
1
- **قرية تحاور العالم.. حوارات أدبية عالمية.** أجراها: عبد اللّه الزماي. دار كلمات للنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الأولى 2018م.
6
2
- **الحمد للّه هذه حياتي.** الدكتور عبد الحليم محمود. دار المعارف ـ مصر. الطبعة السادسة 2019م.

6
3
- **سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.** د. صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم ـ دمشق. الطبعة الرابعة 2007م.

6
4
- **وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره.** الجزء الأول والجزء الثاني. وديع فلسطين. دار القلم ـ دمشق. الطبعة الأولى 2003م.

6
5
- **مفاتيح للتعامل مع القرآن.** الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم ـ دمشق. الطبعة السادسة 2013م.

6
6
- **النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها المعاصرين ـ الجزء الرابع.** د. محمد رجب البيومي. دار القلم ـ دمشق. الطبعة الأولى 1999م.

6
7
- **طرائف ومسامرات.. شئون أدبية واجتماعية وسياسية في محيط الحياة في القديم والحديث.** د. محمد رجب البيومي. دار القلم ـ دمشق. الطبعة السابعة 2018م.

6
8
- **كيف تكون كاتبًا بارعًا؟** عبد اللّه ناصر الداود. دار الأدب العربي للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الثالثة 2015م.

6
9
- **اليد واللسان.. القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة.** عبد اللّه الغذامي. المركز الثقافي العربي ـ المغرب. الطبعة الثانية 2013م.
7
0
- **حياة الرافعي.** محمد سعيد العريان. شركة الريان ناشرون ـ لبنان. الطبعة الثانية 2015م.
7
1
- **اعترافات جان جاك روسو.** جان جاك روسو. ترجمة: حلمي مراد. دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع ـ لبنان. بدون سنة نشر ولا رقم الطبعة.
7
2
- **100 طريقة لتحفيز نفسك.. كيف تكون الشخص الذي تريد.** ستيف تشاندلر. مكتبة جرير ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة السادسة 2010م.
7
3
- **فكر ومباحث.** علي الطنطاوي. دار المنارة للنشر والتوزيع ـ جدة. الطبعة الأولى 2005م.
7
4
- **جمهرة بحوث ومقالات الشيخ العلامة أحمد محمد شاكر رحمه اللّه.** دار المودة ـ الرياض. دار القرطبي ـ القليوبية. الطبعة الأولى 2015م.

7
5
- **الأعمال الكاملة**. مصطفى لطفي المنفلوطي. الدار النموذجية ـ بيروت. 2006م. بدون رقم الطبعة.
7
6
- **حياة في الإدارة**. غازي بن عبد الرحمن القصيبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ لبنان. الطبعة الخامسة عشرة 2011م.
7
7
- **ثلاثون عامًا في صحبة نجيب محفوظ**. محمود الشنواني. دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الثانية 2019م.
7
8
- **الشذرات في أخبار الكتب والكُتاب والمكتبات**. جمع وترتيب: عبد العال سعد عويد الشليه. دار الصميعي للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2021م.
7
9
- **الكتاب في الحضارة الإسلامية**. يحيى وهيب الجبوري. دار الغرب الإسلامي ـ لبنان. الطبعة الأولى 1998م.
8
0
- **صناعة طالب علم ماهر**. أحمد بن ناصر الطيار. مكتبة دار الحجاز للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الثانية 2022م.

8
1
- **حلم غاية ما**. كولن ويلسون. ترجمة وتقديم: لطفية الدليمي. دار المدى ـ العراق. الطبعة الأولى 2015م.
8
2
- **ما أعرفه على وجه اليقين**. أوبرا وينفري. مكتبة جرير ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2018م.
8
3
- **أنا والكتب**. طريف الخالدي. منشورات الجمل ـ بغداد. الطبعة الأولى 2018م.
8
4
- **كيف غيرت القراءة حياتي**. آنَّا كويندلين. ترجمة: محمد كحال. دار شفق للطباعة والنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الأولى أغسطس 2020م.
8
5
- **الارتقاء بالكتابة**. د. محمد بن إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الثانية 2011م.
8
6
- **الكتب في حياتي**. هنري ميلر. ترجمة: أسامة منزلجي. دار المدى ـ العراق. الطبعة الثانية 2013م.

8
7
- **القارئ الأخير**. ريكاردو بيجليا. ترجمة: أحمد عبد اللطيف. منشورات المتوسط ـ إيطاليا. الطبعة الأولى 2020م.
8
8
- **حلم البراءة.. مالكوم إكس.. عطاؤه الفكري ومنهجه الإصلاحي.** عبد الرحمن محمد ضاحي. شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2020م.
8
9
- **لماذا ينتحر الأدباء؟** حاتم الشهري. مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2019م.
9
0
- **ألوان**. أورهان باموق. دار الشروق ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2009م.
9
1
- **العلاج بالقراءة.. كيف نصنع مجتمعًا قارئًا؟** حسن آل حمادة. مكتبة آفاق ـ الكويت. الطبعة الأولى 2015م.
9
2
- **مذكرات قارئ**. محمد حامد الأحمري. دار الخلود للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ـ لبنان. الطبعة الأولى 2014م.

9
3
- **سيرة حياة غابرييل غارسيا ماركيز**. جيرالد مارتن. ترجمة: د. محمد درويش. الدار العربية للعلوم ناشرون ـ لبنان. الطبعة الأولى 2010م.
9
4
- **شوربة دجاج لأرواح المراهقين.. 101 قصة عن الحياة والحب والتعلم**. جاك كانفيلد، مارك فيكتور هانسن، كيمبرلي كيربرجر. مكتبة جرير ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2013م.
9
5
- **صور وذكريات**. عبد الحميد جودة السحار. مكتبة مصر ـ جمهورية مصر العربية. بدون تاريخ نشر ولا رقم الطبعة.
9
6
- **إشباع الشغف في سيرة ابن وهف.. الشيخ الدكتور سعيد بن علي بن وهف القحطاني رحمه اللّه.. سيرته ودعوته ومواقفه وماذا قالوا عنه.** عبد العزيز بن سعيد القحطاني. دار ابن الجوزي ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2021م.
9
7
- **شوربة دجاج للروح. عزز قدراتك الذهنية**.. للدكتورة ماري باسينسكي من كلية الطب بجامعة هارفرد بالاشتراك مع ليز نيبورنت. مكتبة جرير ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2014م.

9
8
- **قصة حياتك وكيف تبتكر قصة جديدة**. ستيف تشاندلر. مكتبة جرير – المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2007م.
9
9
- **قصتي مع الحياة**. خالد محمد خالد. دار أخبار اليوم – جمهورية مصر العربية. بدون سنة نشر ولا رقم الطبعة.
10
0 - **خاطرات**. د. عبد العزيز بن علي الحربي. دار ابن حزم – لبنان. الطبعة الثانية 2014م.
10
1 - **في النفس والمجتمع**. محمد قطب. دار الشروق – جمهورية مصر العربية. الطبعة الثانية عشر 2003م.
10
2 - **آكام الحروف.. مقالات في العلم والدعوة والمنهاج**. د. عمر بن عبد اللّه بن محمد المقبل. العبيكان للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2018م.
10
3 - **المعجم الوجيز**. جمهورية مصر العربية. 1998م.
10
4 - **من أسرار القرآن الكريم**. د. مصطفى محمود. مكتبة مصر – جمهورية مصر العربية. 2015م بدون تحديد رقم الطبعة.
10
5 - **عام من التفكير السحري.** جوان ديديون. ترجمة: شادي خرماشو. دار المدى –

العراق. الطبعة الأولى 2020م.

10

6 ـ **قبل النهاية.** إرنستو ساباتو. ترجمة: حسني مليطات. دار مدارك للنشر ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2021م.

10

7 ـ **بناة العالم.** ستيفان تسفايج. ترجمة: محمد جديد. دار المدى ـ العراق. الطبعة الثالثة 2015م.

10

8 ـ **اخلع حذاءك.** ياسر حارب. دار مدارك للنشر ـ دبي. الطبعة الأولى يناير 2015م.

10

9 ـ **كيف تؤلف كتابًا؟** د. راشد بن حسين العبد الكريم. دار العلم للملايين ـ لبنان. الطبعة الأولى 2009م.

11

0 ـ **مسيرتي في التأليف**. ستيفن كينج. ترجمة: أوليغ عوكي. الدار العربية للعلوم ناشرون ـ لبنان. الطبعة الأولى مايو 2019م.

11

1 ـ **قراءة القراءة.** فهد بن صالح الحمود. العبيكان للنشر ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الخامسة 2012م.

112

- **قوانين البناء المعرفي.** خالص جلبي. الشقري للنشر وتقنية المعلومات ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2018م.

113

- **كيف تقرأ كتابًا؟** أ. د. عبد الكريم بكار. نحو القمة للطباعة والنشر ـ دمشق. الطبعة الثانية 2010م.

114
- **دليل العظمة**. روبين شارما. مكتبة جرير ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الرابعة 2011م.
115
- **ذكريات الجزء الأول والجزء الثاني**. علي الطنطاوي. دار المنارة للنشر والتوزيع ـ جدة. الطبعة الخامسة 2007م.
116
- **قيمة الزمن عند العلماء.** عبد الفتاح أبو غدة. دار البشائر الإسلامية ـ لبنان. الطبعة الرابعة عشر 2010م.
117
- **قصة حياتي**. هيلين كيلر. ترجمة: د. أنوار يوسف. دار الرافدين ـ لبنان. الطبعة الأولى يناير 2021م.
118
- **ومضات.** د. محمد بن إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى 2010م.
119
- **حياة الإمام جلال الدين السيوطي**. محمود شلبي. دار الجيل ـ لبنان. الطبعة الأولى 1998م.
12
0 - **مُطالعات وتأملات**. رجاء النقاش. أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى. بدون تاريخ النشر.
12
1 - **أعطِ الصباح فرصة**. عبد الوهاب مطاوع. الدار المصرية اللبنانية ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الثانية 2010م.

12
2 ـ **عاشوا في خيالي**. عبد الوهاب مطاوع. الدار المصرية اللبنانية ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 1998م.
12
3 ـ **مودة الغرباء.. حكايات من السير الذاتية والمذكرات**. محمد عبد العزيز الهجين. جسور للترجمة والنشر ـ لبنان. الطبعة الأولى 2020م.
12
4 ـ **لو كنا نقرأ**. نعيم بن محمد الفارسي. دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ـ سوريا. الطبعة الأولى 2019م.
12
5 ـ **شجون القُراء**. نعيم بن محمد الفارسي. دار شفق للطباعة والنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الأولى 2021م.
12
6 ـ **عزاءات القراءة**. نعيم بن محمد الفارسي. دار شفق للطباعة والنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الأولى سبتمبر 2019م.
12
7 ـ **باي باي لندن ومقالات أخرى**. غازي القُصيبي. العبيكان للنشر ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الثالثة 2011م.
12
8 ـ **موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة**. د. عبد الحليم محمود. دار الرشاد ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الثانية 2003م.
12
9 ـ **فن التعامل النبوي مع غير المسلمين**. د. راغب السرجاني. دار أقلام للنشر والتوزيع والترجمة ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الرابعة 2011م.

13
0 - **عليون**. صالح بن محمد الخزيم. دار كلمات للنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الثانية 2017م.
13
1 - **كيف تُعاش الحياة أو حياة مونتاني**. سارة بكويل. ترجمة: سهام بنت سنية وعبد السلام. دار التنوير للطباعة والنشر ـ لبنان. الطبعة الأولى 2019م.
13
2 - **صرح مصدرٌ غير مسئول**. ثامر عدنان شاكر. دار مدارك للنشر ـ دبي. الطبعة الرابعة يناير 2014م.
13
3 - **القادة الجدد.. 100 نصيحة في القيادة الإدارية الحديثة**. ثامر عدنان شاكر. الدار العربية للعلوم ناشرون ـ لبنان. الطبعة الأولى سبتمبر 2018م.
13
4 - **شاهد عصره.** يوسف إدريس. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2009م.
13
5 - **من النافذة**. إبراهيم عبد القادر المازني. دار الشروق ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2009م.
13
6 - **كشف المستور.. أفكاري التي أحيا من أجلها**. د. منير محمد الغضبان. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية. الطبعة الأولى 2013م.
13
7 - **مقال عن الحسن بن الحسن بن الهيثم لإسماعيل القريشي الشريف**. متوفر على الشبكة العنكبوتية.

13
8 - **مقال (الفرق بين التدقيق اللغوي والتحرير) لعفراء البكري**. متوفر على الشبكة العنكبوتية.
13
9 - **دورة (فن التأليف).** د. طارق السويدان. متوفرة على اليوتيوب.
14
0 - **الخلاصة في البحث العلمي وتحقيق المخطوطات.** د. محمد بن إبراهيم الحمد. دار الحضارة للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الثانية 2019م.
14
1 - **جورج برنارد شو يُفْصِحُ عن نفسِه.** ترجمة: مروة الجزائري. دار الرافدين ـ لبنان. الطبعة الأولى يناير 2021م.

الكاتب

نعيم بن محمد بن ماجد الفارسي.

- مواليد عام 1982م بولاية شناص ـ سلطنة عُمان.
- حاصل على بكالوريوس (إدارة) في عام 2005م، من جامعة السلطان قابوس.
- حاصل على ماجستير (إدارة الأعمال) في عام 2021م من جامعة (بيدفوردشير) في (بريطانيا).

صدر له:

- **القراءة صنعة العظماء**. دار الخيال ـ لبنان. الطبعة الأولى 2018م.
- **لو كنا نقرأ**. دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ـ سوريا. الطبعة الأولى 2019م.
- **عزاءات القراءة**. دار شفق للطباعة والنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الأولى سبتمبر 2019م. الطبعة الثانية أكتوبر 2020م.
- **شجون القُراء**. دار شفق للطباعة والنشر والتوزيع ـ الكويت. الطبعة الأولى 2021.

الهوامش

(1) أسعدني وأنا أراجع مسودة الكتاب أن وكالة الصحافة العربية قامت بإعادة طبع الكتاب في أواخر 2021م، وهذا خبر مفرح لمُحبِّي كتب القراءة.

(2) هذه التأملات تدور في عقلي منذ سنوات بين فترة وأخرى كثيرًا، لكنها في ذلك الصباح هجمت على عقلي بقوة ممَّا دفعني لكتابة حوارات هذا الفصل.

(3) للتوضيح فإني في كل حوار متخيَّل أجريته مع كاتب في هذا الفصل، أنقل كلامه كاملًا دون اختصار، أو باختصار بسيط. لكن إذا وجدتُ أن كلامه طويل أقوم بالتصرف فيه. وقد أُضيف بعض الكلمات ليتَّضح المعنى إذا اضطررت لذلك، وقد أعيد تغيير بعض المفردات لتكون الجملة أو الفقرة واضحة، لكن قليل ما فعلت ذلك. كما أقوم في بداية المقال بذكر الكتاب الذي أخذت منه نصائح الكاتب أو الفيلسوف أو الأديب.

(4) للتوضيح فإن مقالات هذا الكتاب كُتبت بين عامَي 2009 و2010م، أي قبل انتشار الهواتف الذكية وثورتها الهائلة.

(5) يقول الروائي (أيمن العتوم) في سيرته (هذه سبيلي): «الكتاب صديقٌ صامتٌ، لكنهُ أفصح لسانًا من أي صديقٍ آخر».

(6) هذه العادة صارت شبه منقرضة الآن، استعاض عنها الناس بهواتفهم الذكية التي تنقل لهم ما يدور في العالم لحظة بلحظة. ولا أعتقد أنَّ أحدًا ينسى المجلات والصحف التي قرأناها ـ قبل الهواتف الذكية ـ لشغل وقتنا وعدم الشعور بالملل ونحن في انتظار دورنا في الحلاقة! وأحيانًا نجد آخرين سبقونا في أخذها وقراءتها، فنشعر بالملل لعدم وجود شيء نفعله!

(7) للتنبيه فإنهُ يقصد الهاتف الكلاسيكي.

(8) لهذه الكلمة قصة تستحق أن تُروى. سألني الصديق (عُمر القاسمي) عند مراجعته لمسوَّدة الكتاب عن معنى هذه الكلمة وماذا يقصد بها المؤلف؟! فأجبته بأني فهمت مغزى الكلام من السياق ولم أُركز على معنى هذه الكلمة بالضبط، لكن دعني أبحث عن معناها في المعاجم. وعندما بحثتُ في المعجم الوجيز والمعجم المتوسط، وجدتُ أنَّ معنى الكلمة مختلف عما يُفهم من سياق الجملة. عندها سألت الشيخ الأستاذ (محمد موسى) فوضَّح لي معناها في اللغة العربية، وقال لي يبدو أن معناها هنا مختلف عما في المعاجم، ويبدو أنَّ المؤلف يقصد معنى إبداعيًّا آخر. سألت كذلك الصديق المترجم أ. أحمد المعيني، فقال لي نفس الكلام وأنهُ لأول مرة يسمع بوصف المعدة المفذلكة، وفسَّر لي معنى الفذلكة الذي يعرفهُ. عندها قلت لا بدَّ من التواصل مع مترجم الكتاب الأستاذ السوري المبدع (الطيِّب الحصني)، ومباشرة ردَّ عليَّ عبر (الفيسبوك)، وقال لي: «إنه يقصد بالفذلكة المعنى الذي يُستخدم في العراق وسوريا وفلسطين والأردن منذ 150 عامًا، والتي تعني: الذي يُفصل في ما لا لزوم له، فنقول رجلٌ مُفذلك: أي رجلٌ ينتقي أشياء صغيرة ويعتني بها بشكل مفرط، ولم يقصد المعنى الذي ذُكر في المعاجم، أما ما يقصده (سينيكا) بالمعدة المفذلكة: أي المعدة كثيرة التشهي والانتقاء بحيثُ تضرُّ نفسها، بسبب كثرة انتقائها، هذا ما يقصده (سينيكا) من تشبيه، فهو يُشبه مَن يقرأ أجزاءً قصيرة من كتب كثيرة بالشخص الذي يأكل لقمًا قليلة من كل الأطباق، وهذا لا يُفيد الإنسان، بل يُفيده ويُقيم جسده أن يأكل طعامًا ثابتًا». كل

الشكر للمترجم المبدع (الطيِّب الحصني) على سرعة تجاوبه وتوضيحه المعنى، وعلى أخلاقه وتواضعه الجم.

(9) هنا يقصد آثار مرض الاكتئاب الذي منعه من القراءة وأثَّر على عقله بشكل كبير.

(10) وقت صدور سيرته (هذه سبيلي) وفي نهاية الكتاب وضع المؤلف تاريخ فراغه من تأليفها 27 ديسمبر 2020م.

(11) وقت صدور الكتاب كما ذكرنا في الهامش السابق، لكن بتاريخ 27 سبتمبر 2022م نشر الروائي (أيمن العتوم) فيديو له في حسابه على (تويتر) يقول فيه إنَّ عدد الكتب في مكتبته قد بلغ 60 ألفَ كتابٍ، وأنَّ مكتبته لم تعد تحتمل المزيد من الكتب، فالكتب لم يعد لها مكان توضع فيه، حيث تفترش سطح الأرض، ولا بدَّ من بناء طابق جديد للمكتبة! منظر مهيب جدًّا لمن يرى هذه الكتب الكثيرة جدًّا، فاللهم زِدْ وبارك وانفعْ بها.

(12) ليس هناك ذنب أسوأ من قتل نفس بشرية بدون حق بعد الإشراك بالله كما في الحديث الصحيح، وبنص القرآن أنَّ من قتل نفسًا بريئة فكأنما قتل الناس جميعًا، ولكن ربما يقصد الروائي الجميل (أيمن العتوم) بكلامه ـ المبالغ فيه ـ إلى بشاعة إحراق الكتب، وأنها جريمة عظيمة وخسارة كبيرة تخسرها البشرية جمعاء عندما يتم إحراق كتاب نافع. شكرًا للصديق (عُمر القاسمي) لتنبيهي إلى هذه النقطة.

(13) يعني اجتهدتُ ولم أقصِّر في ذلك، كما أفادني الأستاذ (محمد موسى).

(14) لم يذكر (د. محمد البيومي) اسم الكاتب الروسي، لكن (جهاد فاضل) ذكره في حديثه عن سرقات (المازني). وللتوضيح فإنَّ هناك تشابهًا كبيرًا جدًّا في الحديث عن سرقات (المازني) بين ما ذكره (جهاد فاضل) وما ذكره (د. البيومي). ويظهر أنهما أخذا هذه القصص من مصدر واحد، وهذا المصدر هو كتاب (صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر) لأنور الجندي ـ ولم أطَّلع عليه حتى الآن ـ، كما وضح (جهاد فاضل) في حديثه عن سرقات (المازني) أنه أخذها من هذا الكتاب، أمَّا (د. البيومي) فلم يذكر مصدره.

(15) ذكر الكاتب (عبد اللّه الحبشي) في كتابه (الكتاب في الحضارة الإسلامية) أنَّ (السيوطي) يُتهم بأنهُ ينقل كلام ونصوص ومؤلفات غيره وينسبها لنفسه، فهو ينتحل كتب غيره! ولم يذكر (الحبشي) مصدر المعلومة. وقد حاولت أن أبحث عن صحَّة هذا الخبر، فلم أجد من يؤيد (الحبشي) في كلامه على حسب اطلاعي، بل ذكروا أنَّ هذا الخبر من التهم الكاذبة التي لُفقت على الإمام (السيوطي) لعلو كعبه ومكانته وكثرة تصانيفه كما ذكرنا! وأنَّ الغيرة والحسد من قِبل الأقران هي سبب إشاعة هذا الخبر. ولعلَّ مَن عنده خبر من القُرَّاء حول هذا الموضوع أن يُفيدني وله جزيل الشكر.

(16) خصصتُ في كتابي (عزاءات القراءة) مقالًا خاصًّا عن أهمية القراءة للكاتب، عنونته بعنوان: (هل يشترط على الكاتب أن يكون قارئًا نهمًا؟)، وذكرتُ استشهادات مختلفة عمَّا ذكرته هنا، فليُرجع له لمن يريد الاستزادة.

(17) ليس الروائيون فقط هم مَن يحتاجون إلى القراءة العميقة، بل الكتابة في أي مجال تحتاج إلى قراءة عميقة جدًّا، لمن يُريد أن يُضيف جديدًا للقارئ.

(18) كل الشكر للصديق المترجم المبدع (أ. أحمد المعيني) فقد أفادني كثيرًا حول توضيح مهام المُدقق والمُحرِّر والفرق بينهما، فله مني كل محبَّة وتقدير.

(19) أفضل كتب قرأتها في هذا المجال: كتاب (الارتقاء بالكتابة) للدكتور محمد الحمد، وقد قرأته سابقًا في بدايات عام 2012م، وانتفعتُ به كثيرًا. وكتاب (فن التأليف والنشر) للدكتور طارق السويدان، وقد قرأته في بدايات عام 2016م وفتح عقلي على أمورٍ كثيرة. وكتاب (صنعة الكاتب) للدكتور فهد الحمود، وقد قرأته في بدايات عام 2017م، واستفدتُ منه فوائد عظيمة جدًّا، وهو كتاب إبداعي بحق. وكتاب (كيف تُؤلِّف كتابًا؟) للدكتور راشد بن حسين العبد الكريم، وقد قرأته بعد أن صدر كتابي الثالث (عزاءات القراءة)، وكتاب (مسيرتي في التأليف) للروائي الأمريكي (ستيفن كينغ)، وقد قرأته وأنا أؤلف كتابي (عزاءات القراءة). وقد أفدتُ من الكتابين الأخيرين كثيرًا في كتابي الرابع، وظهر لي أني أفعل الكثير من الأمور التي نصحوا بها، وإن لم أكن أعلم بفائدتها في حينها، وهذه إحدى فوائد القراءة؛ أنها تؤكِّد ما لديك من أفكار وقناعات تفعلها، فتجد الكثير يفعلها مثلك تمامًا.

(20) خصصت مقالًا في كتابي (لو كنَّا نقرأ) عن التأليف، وعنونته بعنوان: (لماذا نؤلف الكتب؟)، حيث جمعت فيه استشهادات كثيرة جدًّا حول هذا الموضوع، ينبغي الرجوع إليه لمن أراد الاستزادة.

(21) رواية (كانديد) أو (التفاؤل) هي رواية فلسفية خيالية، وهي من أشهر روايات الأدب الفرنسي، للكاتب والفيلسوف الفرنسي (فولتير) (1694 ـ 1778م). وقد ترجمها إلى العربية المترجم العملاق (عادل زعيتر) ـ رحمه الله ـ وصدرت من عدَّة دُور نشر مختلفة. كذلك رواية (الساعة الخامسة والعشرون) مترجمة إلى العربية من قِبل عدَّة دُور نشر، منها الدار التونسية (مسكيلياني للنشر).

(22) كرر الكاتب أكثر من مرة أن الاتهامات ما زالت تُلاحق (قسطنطين جيورجيو) بعد وفاته بأربعين عامًا! لكن (جيورجيو) توفي عام 1992م، وكتاب المؤلِّف صدر في عام 2017م، أي مرَّ فقط ربع قرن على وفاته عند صدور الكتاب! أما إذا كان المؤلف يقصد وقت بَدْءِ حملة التشهير ـ ولا أعتقد ذلك ـ فإنه مضى عليها قرابة 64 عامًا حسبما ذكر المؤلف أنها بدأت عام 1953م! فقط أحببت التنبيه على هذه النقطة.

(23) أثناء المراجعات الأخيرة للكتاب وقبل تسليمه لدار النشر، توفِّي الشيخ العلَّامة د. يوسف القرضاوي ـ رحمه الله ـ وأسكنه الفردوس الأعلى بصحبة الأنبياء والصدِّيقين والشهداء عن عُمر 96 عامًا. العلَّامة د. القرضاوي أحد أكبر علماء هذا العصر، يشهد له بالعلم كبار علماء الأمَّة الذين عاصروه، وفَقْدُ العالِم مصيبة كبيرة لا يسدُّها شيء، كما قال السلف.

(24) ذكرت في كتابي (لو كنا نقرأ) أنه في (يوليو 2018م) بلغ عدد كتب مكتبتي 2040 كتابًا، وفي إهداء كتابي (عزاءات القراءة) ذكرت أنَّ عدد الكتب في مكتبتي بلغ 2500 كتابًا، وذلك في (يوليو 2019م). والآن (أكتوبر 2022م) تجاوز عدد الكتب في مكتبتي 4 آلاف كتاب! فاللهمَّ زِدْ وبارِكْ، ولك الحمد ربَّنا على هذه النعمة العظيمة، والفضل لك أولًا وآخرًا.

(25) البيت للأقرع بن حابس.

(26) لا أنسَى أبدًا تشجيع زوجتي الحبيبة (أ. نوال الشيدي) لي على الدخول إلى عالم التأليف، وإن هذه القراءة لا بدَّ أن يستفيد منها الآخرون وليس وحدي فقط، وقد ذكرتُ ذلك في إهداء كتابي (القراءة صنعة العظماء) وكتابي هذا، فلها منِّي كل الحُب والاحترام.

الفهرس

إهـــداء7
في البَدْءِ9
الفصل الأول:15
كم كتابًا قرأت في هذا العام؟17
لا تُشتت نفسك في القراءة24
هل تتنازل عن كتبك؟29
هل تودُّ لقاء الكاتب الذي أحببت كتاباته؟41
الفصل الثاني: قالوا لي عن القراءة والكتب49
تمهيد51
د. عبد الله الغذامي54
أندريه موروا60
سينيكا65
مات هيغ69
أيمن العتوم76
اللورد أفبري89
د. عبد الكريم بكار95
ربيع السملالي103
الفصل الثالث: في الكتابة111
هل الأفضل أن يُصحِّح المؤلِّف كتابه في كلِّ طبعة؟113
هل على الكاتب أن يُروِّج كتابَه؟124
احذر أن تُحرم بركة العلم!145
عندما يفقد الكاتب مسوَّدة كتابه!162
الفصل الرابع: كيف أكون كاتبًا؟173
تمهيد175
المحور الأول: أهمية التأليف176
المحور الثاني: هل الكتابة موهبة؟180
المحور الثالث: لا تستصغر نفسك182
المحور الرابع: هل للتأليف عُمر مُحدد؟191
المحور الخامس: أهم الخطوات كي تكتب كتابًا194

المحور السادس: حبسة الكاتب وعلاجها237
المحور السابع: كيف تتعامل مع النقد؟241
المحور الثامن: كيف كانوا يكتبون؟254
المحور التاسع: الكتابة سعادة260
المحور العاشر: احْذُ حَذْوَ (ابن الهيثم)262
رسالة إلى مكتبتي265
مكتبتي الجميلة267
الخاتمة271
شكر وامتنان273
المراجع275
الكاتب291

=

=

=